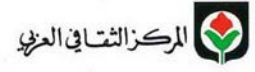
رواية

ربيع جابر

تقرير ميليس



دار الآداب - بيروت

ربيع جابر

تقرير ميليس

تقرير ميليس
(رواية)
تأليف: ربيع جابر
الطبعة الأولى، 2005

ISBN: 9953-68-113-9

الناشران

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب: 4006 سيدنا
هاتف: 212-2-2303339
فاكس: 2305726
e-mail: markaz@wanadoo.net.ma
بيروت: ص. ب: 5158 ـ 113 الحمرا
هاتف: 352826(01) ـ 343701(01)

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص. ب: 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633(01) ـ 861632(03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

إلى رينيه ومروى

هذه الرواية من نسج الخيال، وأي شبه بين أشخاصها وأحداثها وأماكنها مع أشخاص حقيقيين وأحداث وأماكن حقيقية هو محض مصادفة ومن الغرائب ومجرد عن أي قصد.

سمعان يارد عنده ثلاث أخوات: جوزفين وماري وإميلي. جوزفين خُطفت سنة 1983 على خط التماس بين بيروت الشرقية وبيروت الغربية. ماري مقيمة في بالتيمور. إميلي في باريس. ماري متزوجة من ابن عمها حنا يارد. نالا إذناً كنسياً خاصاً من المطران وتزوجا. استقرا وراء الأطلسي منذ 1984. رُزِقا أربعة أولاد: سلمان وإيليا وجوزف وتوماس. فتحا قبالة الكنيسة المارونية في بالتيمور مطعماً لبنانياً وفرناً يبيع الخبز العربي (pita) ومناقيش الزعتر والكشك واللحم بعجين. إميلي مترجمة في اليونسكو. زوجها فرنسي. موظف إداري في جامعة باريس الثانية (Assas). يملكان بيتاً في بناية أثرية في شارع جورج ساشيه (باريس ـ الدائرة الـ 14). عندهما ولدان: آني وجاك. آني شقراء زرقاء العينين تشبه أباها شارل كوربليه. جاك أسود النظرة قاتم البشرة ورِث جينات أجداد لا يعرفهم في شرق المتوسط.

سمعان يارد يدير هذه الأيام «يارد للإستشارات الهندسية والتخطيط». مكاتب الشركة تشغل الطبقة الثالثة من عمارة «استرال» (1931) في وسط بيروت التجاري. سمعان يارد لا يعلم لماذا يبقى هنا. شركاؤه (أقاربه) هاجروا من المدينة على دفعات. الآن ينزل إلى المكتب لئلا يبقى وحده في بيت العائلة الشاسع الغرف في شارع

غندور السعد (منطقة الجامعة اليسوعية ـ الأشرفية).

«ها أنا في الأربعين. ولم أفعل شيئاً بحياتي»، يفكر سمعان يارد. ويشعر بثقلٍ غامض على صدره. هذه الأفكار، هذه الأحاسيس، تقوى ثم تتراجع. في الفترة الأخيرة، بعد تعاقب الانفجارات وعودة التوتر إلى البلاد، أخذت تنتابه نوبات ذعر غير مفهومة.

أخته أميلي تراسله بالبريد الإلكتروني. تسأله متى يغادر بيروت والحياة المثيرة للفزع في بيروت. منذ 14 شباط (فبراير)، منذ الانفجار أمام أوتيل سان جورج المتداعي، ترسل إليه بريداً إلكترونياً كل يوم أو يومين.

ويرّد على الـ e-mail. يكتب عبارات قصيرة بالفرنسية. أو يستخدم الحرف الأجنبي للكتابة بالعربية. أهل الأشرفية يعرفون الفرنسية أكثر من العربية. لكنه هو يغلط في قواعد الفرنسية. ويفضل العربية. يقضي ساعات الصباح أمام الشاشة الزرقاء. اعتاد في الفترة الأخيرة أن يقرأ الصحف المحلية ـ وغير المحلية ـ على الجهاز. يقرأ الأخبار ويرسل رسائل مقتضبة إلى أصدقاء في المدينة وخارج المدينة. أصدقاء وصاحبات. أصابعه قصيرة تميل إلى سمنة. مع أنه ينتبه لطعامه. يشرب قهوته وينظر من النافذة إلى الحمائم تعبر بين المآذن والأبنية. ما زال يحتفظ بموظفتين في الشركة. الموظفة الطويلة ماهرة في إعداد القهوة. الأخرى القصيرة لا تنفع. لا يدري ماذا تفعل بساعات الدوام (8 ساعات كل يوم).

صباح الخميس 2 حزيران (يونيو) أطلت برأسها من باب المكتب الموارب صفراء الوجه:

ـ قتلوا سمير قصير.

غامت عيناه قليلاً وهو يربط الاسم بذكرى ما في أعماق دماغه. يعرف هذا الاسم. صحيح. ويعرف وجه الرجل. طالما تقاطعت دروبهما، هنا، في وسط البلد، طالما التقاه وانتبه إليه. يعرف وجهه من التلفزيون والجرائد. وأثناء تظاهرات آذار (مارس) الفائت، عندما انقلبت الساحات وماجت بالبشر، رآه يخطب أيضاً. في الفترة الأخيرة التقاه أكثر من مرة وفي زمنٍ قصيرٍ جداً... هذه صدفة غريبة. التقاه هنا، أمام «نوافير البلدية» بعد التظاهرة الكبرى في منتصف آذار. ثم التقاه على ساحة الإيتوال (البرلمان). ثم التقاه في مطعم الإيتوال ذاته بعد يومين أو ثلاثة أيام. كان يوم جمعة. لأنه لا يقصد هذا المطعم إلا الجمعة. من أجل «الصيادية». رز وسمك وبصل وطاجن. عادة قديمة. الجمعة يأكل في «الإيتوال» أو في «بالتوس».

ـ فجروا سيارته. أمام بيته ببناية لاروز على طريق فرن الحايك.

هذه المرة، الأخرى الطويلة هي المتكلمة. لا تربطه علاقة بأي من الاثنتين. وَرِثها ـ هذه الطويلة ـ عن شريك من الشركاء. والأخرى القصيرة لا يعلم من وظفها. لعلها جاءت مع البناية. لا يدري. إذا سأله أحدٌ ماذا يفعل في هذا المكتب يقول أشرب قهوة.

يشرب قهوة وحين يتعب من القعود ينزل ويمشي. يذهب ويزور أصدقاء. ساعة الظهر يتصل بإحدى صاحباته. أو يمضي إلى البيت.

ـ بناية «لاروز». أمام «الزنبقة السوداء».

سمعان يارد تذكر عندئذٍ أنه التقى الرجل ثلاث مرّات في الشهر الفائت. التقاه مرتين على رصيف شارع المعرض: مرة واقفاً أمام «بنك لبنان والمهجر» ومرة خارجاً من مطعم «غاسبر أند غامبيني». كان خارجاً من الباب الزجاج الذي ينفتح على الرصيف. وأوشك

الباب أن يصدم سمعان يارد في وجهه. «المرة الأخيرة الثالثة متى كانت؟ نهاية الأسبوع الماضي؟». أراد أن يتذكر. كان يعبر «عبد الوهاب الإنكليزي» وفي يده كيس مكسرات ابتاعه من «الرفاعي»، هنا، في جوار المكتب. «في أي يوم؟ الخميس أم الجمعة؟». رآه واقفاً أمام مطعم Al dente ينكش أسنانه بعود. لا، لم يكن ينكش أسنانه. كان يلاعب العود بين شفتيه ويبدو مسروراً. يذكر لحيته الرمادية المشذبة. يذكر قميصه الأزرق بالزرّ العلوي المفكوك. لا يدري لماذا ألقى عليه التحية. بدا له أليفاً. ربما لأنه يراه في التلفزيون دائماً. بدا له أليفاً. فألقى عليه التحية. والرجل الذي يكتب في الجرائد ويخطب في المتظاهرين ردّ عليه التحية وابتسم.

نحن الآن في الخريف. يعبر سمعان يارد طريق فرن الحايك فيرى عمال سوكلين يكنسون ثمار الجميز عن الرصيف. الطريق تنعطف هنا، والأشجار تغمرها بظلال كثيفة. جدته لأبيه طالما أخبرته عن الأشرفية القديمة، الأشرفية التي تهدر بزقزقة أسراب الدوري في الجميز. كانت الأشرفية مثل الغابة. يقطع سمعان يارد أمام محل «الزنبقة السوداء» ويتابع الطريق طالعاً صوب ساحة ساسين. لا يقصد الساحة. ينعطف قبلها. يدخل طريقاً بعد مجمع ABC التجاري ثم يدخل البناية الثالثة عن اليمين ويركب المصعد إلى الطابق العلوي. يقرع الجرس فيُفتح له. المرأة الواقفة في الباب تبتسم وهو يبتسم. اسمها سيسليا.

نحن الآن في الخريف. والنمل يفقس من البيوض ويغزو بيوت بيروت ويغطي بلاطها. اميلي ترسل إلى أخيها الرسائل. تسمع عن الانفجارات في بيروت وتخاف. كل الانفجارات تحدث في الشرقية. وبعد الانفجار في الجعيتاوي تضاعف خوفها. هذا

الانفجار الثالث في الأشرفية. الأول في فرن الحايك. الثاني في هوفلين (لا بدَّ أن الزجاج تحطم في غندور السعد). وهذا الثالث في الجعيتاوي. خالتها كانت تسكن هناك قبل سنوات. إميلي تكتب من باريس إلى سمعان، تسأله متى يغادر بيروت، ماذا ينتظر؟ تسأله لماذا لا يترك البلد؟ متى يهاجر؟

ويردّ عليها:

ـ لم أقرر بعد، أنتظر تقرير ميليس.

مجلة فرنسية مفتوحة على طاولة المطبخ. سيسليا تنقل أطباقاً من البراد إلى الطاولة الأخرى، في الصالون. شرب كوب النبيذ الأبيض البارد وهو يقرأ تحقيقاً في المجلة عن تفجيرات بيروت. كاتب المقالة وضع مقدمة قصيرة عن الحرب الأهلية اللبنانية الطويلة. بدأت الحرب في 1975. انتهت الحرب في 1990. أثناء الحرب انقسمت المدينة إلى مدينتين. قُتل مئة ألف إنسان. وخُطف نحو عشرين ألفاً. منذ 1990 والأحوال تتحسن. خلال هذه الأعوام أعادت سوليدير شركة رئيس الوزراء الأسبق رفيق الحريري بناء وسط بيروت التجاري. هذه العملية تُعتبر من أكبر مشاريع الإعمار في العقود الأخيرة. يجوز مقارنتها بما جرى في مدن أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية. لم تجرِ العملية بيسرٍ. واجه المشروع معارضة داخلية قوية. مع هذا لم تتجدد الحرب ولم تتجدد الانفجارات حتى الأول من تشرين الأول (أكتوبر) 2004. هذا التفجير اعتُبر إنذاراً للرئيس الحريري وحلفائه. صورة لكورنيش المنارة. مصابيح الكهرباء. وناس يتنزهون. في إطار: صورة سيارة تحترق. الانفجار الثاني وقع في 14شباط (فبراير) 2005. هذه المرة احترق موكب الحريري. قُتل الرجل. صورة لشرفات أوتيل سان جورج المتساقطة. صورة للزجاج أمام أوتيل فينيسيا. صورة جثة متفحمة. صورة سيارة مقلوبة

وحولها ركام حجارة ورماد. صورة الحفرة مملوءة بماء المطر. شريط أصفر وزيتونات يابسة وصنوبرات قصيرة لم تحترق. مولّد كهرباء أبيض وكاميرات وشاحنة. في أسفل الصفحة: إعلان شامبو. على الصفحة المقابلة: حوار مع كاتبة من السنغال.

سيسليا تقلي قرنبيطاً. تسأله أين يقضي هذه الأيام. تضحك وهي تتراجع لئلا يصيبها الزيت المغلي برذاذه.

ـ القرنبيط رطب. لهذا يطرطش الزيت.

يُبعد المجلة ناعساً. هذه الكأس الثالثة. بات يشرب أكثر... أخيراً. تذهب إلى النافذة فوق المجلى وتفتحها. ليخرج دخان القلي. تدخل أصوات الشارع. المدينة وهديرها. والسيارات التي تسرع ثم تخترق النفق.

تأخذ المجلة إلى الغرفة الأخرى. هكذا لن ينشغل بالمجلة مرة أخرى. ترجع وهي تربط شعرها وتقول شيئاً عن انفجار الجعيتاوي. تقول الزجاج تحطم عند الجيران.

وهو يقول:

ـ انفجار هوفلين كسَّر زجاجاً أكثر. مع أن العبوة كانت أصغر.

وهي تقول:

ـ لأنه شارع ضيق مضغوط.

وهو يقول:

ـ والبيوت هناك قديمة. وزجاجها قديم.

لا يخبرها أنه تلك الليلة كان يستقبل صاحبة أخرى في بيته. لا يخبرها أنه ذلك الصباح ـ بعد ليلة الانفجار ـ خرج وتمشى مع صاحبته في شارع مونو المغطى بالزجاج. سيارات الأمن الداخلي والجيش تملأ الشارع وصاحبته تتعلق بذراعه وهو يحاذر لئلا يزلق

علم الزجاج. عند مفرق الجامعة اليسوعية، تحت المفرق، رأى نساء ورجالاً يكنسون الزجاج ويجمعونه جنب الرصيف كوماً كوماً. زجاج المقاهي وزجاج الدكاكين وزجاج الملاهي الليلية... الزجاج زجاج. تغطى شارع مونو بالزجاج. لمع الضوء على الزجاج وعلى الحجر البركاني الأسود. صاحبته ليليان استندت إليه وبكت. ظلّت تبكي من مونو إلى عبد الوهاب الإنكليزي إلى فرن الناصرة إلى طريق بيضون. اشترى لها قنينة ميرندا من المحل عند الجامع واشترى لها منقوشة. لم تقبل أن تأكل. هو أكل المنقوشة وهي شربت نصف القنينة. كانت أجراس الكنيسة المجاورة تقرع. دخلا وجلسا. لم تكن الكنيسة فارغة. وحين خرجا قالت ليليان إن أحداً في هذه المدينة لن يذهب إلى نار جهنم.

سألها لماذا؟

قالت:

ـ لأننا في جهنم.

أراد أن يقول:

ـ ماذا تقولين إذاً عن بغداد؟

لكنه تذكر أنها قد تزعل ـ إذا زعلت لا ترضى بسهولة، وهو لا يحب أن تزعل، إذا استبقاها عنده ليلة تقدر أن تبقى، لا يريدها أن تزعل ـ ثم ماذا يفيد الواحد أن يقول دائماً ما يفكِّر فيه؟

وبقي ساكتاً.

ـ أين تشرد وأنت معي؟ لماذا لا تتكلم؟ قلْ شيئاً!

صوت سيسليا يأتي من وراء السحابة البيضاء الرجراجة. سمعان يضع الكأس على الطاولة وينظر إليها.

يقول إن أحد الأصدقاء ـ هذا مهندس في «دار الهندسة» ـ

أخبره أن وزارة الداخلية استوردت كاميرات مراقبة من أوروبا وأن قوى الأمن الداخلي ستركّب الكاميرات في شوارع بيروت كلّها. لن يُترك تقاطع طرق بلا كاميرا. لن يُترك ولو زاروب صغير مسدود في المدينة بلا كاميرا. حتى مدخل هذه البناية، هنا، سيركبون له كاميرا.

وضحك وسألها أين سجائرها؟

ذهبت إلى الصالون وعادت تحمل صحناً أخضر مملوءاً بعلب الدخان. انتقى علبة جيتان لايتس. أتت له بعلبة الكبريت عن البوتاغاز. أشعل سيجارة وقال إن عليه أن يزور «مستشفى رزق» ويعمل الفحص السنوي.

كانت تدق ثوماً بالمدقة وسألته لماذا؟

قال إنه يشعر بهبوط جسماني ويقلق كثيراً في الليل ولا يعلم لماذا يقلق. يكون نائماً ثم يستيقظ ليدخل إلى الحمام مثلاً وبعد ذلك لا يقدر أن ينام.

قالت إن هذا له علاقة بالانفجارات.

ـ وبميليس. لن يتحسن نومنا قبل أن يتكلم.

توقفت عن دق الثوم. شردت تنظر من النافذة إلى البناية في الجهة الأخرى. شرفات كثيرة وغسيل منشور. بنغلادشية تنفض سجاجيد. قالت سيسليا وهي تلتفت صوبه:

ـ انقطعت الكهرباء أمس. هذا الشارع فقط. خط لخمس بنايات. ولم تأتِ إلا عند الصباح. طوال الليل أشعر بحركة الناس في البناية. الأبواب. أنابيب الماء. والأصوات. في هذه البناية. وفي البناية الأخرى. وأرى الأضواء. لم ينم أحد. طوال الليل.

أفرغت الثوم في صحن عميق ثم مزجته بالطحينة والماء. فاحت

رائحة الطرطور. نهض وفتح البراد وأخرج من الجارور بندورة وخياراً.

من النافذة جاء صوت التلفزيون. موسيقى الأخبار. ثم كلمات ضائعة. ثم نائب يعلن أن القاتل المتسلسل (Serial Killer) الذي يمرح في شوارع بيروت ويزرع المتفجرات هنا وهناك لا بدَّ أن يقع في قبضة العدالة.

ـ سأخبرك ما رأيت كما رأيته. ليس أكثر. ولا أقل. كنت عائداً إلى البيت. كانت الساعة جاوزت العاشرة والنصف. الطريق مظلم ثم أبلغ مصابيح الكهرباء أمام بيت إدوار كوراني ولا تبقى الطريق مظلمة. رأيت حركة وراء صناديق النفايات الخضراء. الأرض دائماً وسخة هنا. الإسفلت دبق بسبب السوائل التي تنزل من أكياس الزبالة. وعندك البورة المهملة وسور الحديد والرصيف المخصص للكلاب. الحيّ ملآن كلاباً. لكل بيت كلب أو أكثر. والبنغلادشيات والسريلنكيات والفيليبينيات (بيت جورج اسطفان عندهم كورية، بيت بردويل عندهم أندونيسية)، العاملات القاتمات البشرة الصغيرات القدّ، يأتين بالكلاب إلى هذا الرصيف. كلاب بودل صغيرة وكلاب غير بودل وغير صغيرة، كلّها تقضي حاجتها على هذا الرصيف. ورأيت حركة. ظننت أنها كلاب شاردة، أو قطة في الصندوق. ثم رأيت رجلاً يخرج من وراء الصناديق، ظننت أنه أحد عمال سوكلين ثم فكّرت: لا يمكن، أين الكميون، أين شاحنة الزبالة؟ لم يكن قد رآني بعد. كنت في الجانب المظلم من الشارع ورأيت نوراً أحمر يوجّ وراء الصناديق. ما هذا؟ ضوء بطارية. لم أعتقد أن الرجل متشرد. لأن لباسه عادي وشكله عادي. ليس متشرداً. ثم سمعته يتكلم. اقتربت خطوة واحدة محاذراً فرأيت رجلاً آخر ودراجة نارية

ورأيت سيارة. ماذا يفعلان بالسيارة؟ كانت السيارة مطفأة مركونة، سيارة مرسيدس فخمة الطراز. كانا يفعلان شيئاً بالسيارة. أقول لك العرق سال على رقبتي. سال على ظهري. عرق بارد ساح مني وأنا لا أدري لماذا لا أتحرك. كالصنم تجمدت في مكاني. ماذا يفعلان بالسيارة؟ وماذا إذا انتبها إليَّ؟

كأن الفكرة خرجت من رأسي وعملت ضجة. قفزا على الدراجة النارية وسمعت الصوت يزأر وفكَّرت أنني سأموت. لم أفكِّر أنني سأموت. الصوت الذي هدر بغتة قتلني. كأنني خُبطت في بطني. أحسست شيئاً ينفجر في جسمي، داخل معدتي، ولم أعد قادراً على الوقوف. مددت يدي أستند إلى الشجر على سياج البيت القريب ثم سالت تحتي ساقاي ونزلت على حافة الرصيف. قعدت على الوسخ ولم أهتم والعرق يبلل ثيابي. الدراجة اختفت في شارع «الدوماني» ونورها الخلفي الأحمر اختفى والعرق ظل يسيل من أصابعي ومن شعري. رأسي صار كالممسحة. كله ماء. ماء وعرق. الصوت لم يكن رصاصاً ولا قنبلة. كان صوت الدراجة النارية. وقفت ومسحت العرق عن وجهي. السيارة المركونة الصامتة نظرت إليّ مثل غول. السيارة لا تنظر. أعرف. لكنها لم تكن سيارة. كانت غولاً. عشت الحرب كلّها هنا. لم أترك البيت أبداً. كنا نسافر. ثم نرجع. كلّها رحلات قصيرة. الحرب كلها وأنا هنا. في هذا البيت. بابنا على باب بيت رياشي وإذا خرجوا منه نسقي أشجارهم وإذا خرجنا منه يسقون أشجارنا. اندثرت البيوت القديمة من الحيّ، هدموها وارتفعت مكانها الأبراج، وبقي بيتنا. البيت بقي ونحن بقينا. الحرب كلّها ولم نذهب. حرب السنتين لم تخرجنا. وحرب المئة يوم لم تخرجنا. حتى حرب الجنرال مع القوات لم تخرجنا. كنت أخاف، كلّنا كنا نخاف... لكن كيف أقول هذا؟ لم أخف مثل

هذه المرة. مع أن الصوت لم يكن قذيفة ولا مدفعاً ولا رصاصاً ولا حتى خرق جدار صوت. لم يكن انفجاراً. كانت فرقعة محرك الدراجة. لكن يا له من خوف. ليس خوفاً. أحسست أنني قُتلت. قتلوني وأنا عائد إلى بيتي في الطريق التي أسلكها كل يوم وكل ليلة منذ سنوات وسنوات وسنوات، منذ كنت ولداً صغيراً. تغيّرت الطريق كثيراً في هذه السنوات وأنا تغيّرت كثيراً. لكنها ما زالت الطريق إلى بيتنا. وأنا ما زلت أنا. تغيَّرت دكاكين وتغيَّرت أفران وتغيَّرت بيوت. لكنها طريق بيتنا. فرقع الصوت في الليل وقطعني قطعتين. العرق ينزّ مني وأنا أنظر وأرى الأشياء غائمة. ليس بسبب البيرة والويسكي والنبيذ. صرت في الفترة الأخيرة أشرب كثيراً، بلى، وأخلط في الشرب، لا أشرب صنفاً واحداً في الجلسة الواحدة. هذا خطأ. وأنا لا أفعل هذا أبداً. لكنها الصدفة. من قبل كنت أنتبه ولا أترك الصدفة تجبرني. الآن لا أنتبه. كأن إرادتي ليست لي. وهذا ميليس الأبيض الأشقر يبقى ساكتاً. إلى متى يبقى ساكتاً؟ قالوا إلى 21تشرين ثم قالوا إلى 25 والآن يقولون إلى كانون الأول! ما هذا؟ ينتظرون حتى لا يعود في بيروت آدمي؟ إلى متى ينتظرون؟ ألم يعرفوا الحقيقة بعد؟ ما هذه الحقيقة التي لا تُعرف أبداً؟ الحقيقة ساكتة والناس يموتون.

لكنني في ليل الأشرفية وأنا وحدي على الطريق والمصابيح يقع نورها على صناديق النفايات لم أفكِّر في هؤلاء الناس الذين يموتون. فكَّرت ولم أفكِّر. وقفت وتحركت بطيئاً. بليداً كبزاقة أو سلحفاة. كأنني أتعلم السير للتو. للمرة الأولى في حياتي أمشي. قدم أرفعها ثم أتقدم. لا أتقدم. عليَّ أن أرفع القدم الأخرى الآن. رفعتها وتقدمت. خطوة تعقبها خطوة. خرجت من الظلمة إلى نور المصابيح. كأنني في بستان برتقال. لكنني لست في بستان. سمعت

عظامي تطقطق. العرق كفّ عن السيلان. لكن جلدي مبلول. كأنني نزلت في الماء وخرجت. جسمي وجه المخدة وداخل المخدة عظام. عظامي تطرطق وأنا أتحرك، أتقدم نحو المفرق، أتقدم نحو الزاوية، أتقدم نحو البيت. كم سنة وأنا أقطع هذه الطريق؟ من أيام المدرسة والحقيبة على الظهر! لكنني في هذه الليلة أسير هنا للمرة الأولى. وما هذا السكوت؟ أين أهل الحي، أين أهل المدينة؟ ماتوا جميعاً! غادروا المدينة! ماذا؟ أين هم؟ أسمع أصوات تلفزيونات، وأرى نور الشاشات الأزرق يبرق في أبواب الشرف العالية وفي نوافذ نصف مقفلة. أسمع الصوت وأشم روائح أطعمة وأرى حركة غامضة. لكن كأنني أرى أشياء في عالم آخر. والسيارة ـ وراء ظهري الآن ـ أما زالت غولاً يحدق إليّ؟ هل سأقطع هذه الأمتار وأبقى؟ هل أموت الآن؟ ينفجر الغول ويبعثرني أشلاء على هذه الطريق، على الحيطان، وعلى سياج بيت كوراني المغطى بالشجر، أموت الآن؟ عليّ أن أتحرك أسرع. أن أقطع هذه المسافة. هذه الأمتار. لكن جسمي ليس لي. لم يعد لي. فقدته ولم أنتبه. كأنني خرجت منه، صرت أعلى، صرت أرفرف كالعصفور فوقه، جنب قمم الصنوبرات، ومن فوق أراه يتقدم كالمعاق خطوة ثم خطوة... خطى بطيئة. العضلات تخشبت. والمفاصل لم تعد مرنة. كأنني فقدت مفاصلي. ما زالت عظامي متصلة بعظامي لكنها الآن تتصل بلا مفاصل. المفاصل ضرورية للحركة. المفاصل والمادة الدهنية بين المفاصل. إذا جفّ زيت المفاصل تغدر بك آلام فظيعة. لا الأسبيرين يشفيك ولا المستشفيات. فاتت عظامي في بعضها وصرت أتقدم مثل شجرة تتحرك. وكل الوقت أشعر بالسيارة وراء ظهري، صامتة، مخيفة، خطرة، باردة... أين الناس؟ لم نبلغ منتصف الليل بعد. ولا أحد

في الطريق! الكل في بيوتهم! ألا يسهر أحد في مونو الليلة؟ أين البشر؟ تركوني وحدي مع هذه السيارة!

حين بلغت البيت (بعد الباب الحديد المطرق وبعد الحوش وبعد باب البيت نفسه) حين أقفلت باب البيت ورائي فكّرت أنني قد أكون نجوت. لم أكن متأكداً تماماً بعد. أولاً ما زلت خائفاً من السيارة المرسيدس القاتمة. ثانية أشعر بألم بين أضلاعي، وبألم في ذراعي، وبألم خفيف تحت الثدي الأيسر. قد أكون نجوت. لكنني غير متأكد.

في المطبخ شربت ماء وغسلت وجهي فوق المجلى. نور الكهرباء على المجلى ملأني فجأة بإحساس غريب: لم أعد خائفاً. فجأة ـ لا أفهم كيف ـ ذهب الخوف من جسمي. بقي الدم ينبض سريعاً في رقبتي، في شريان الرقبة، لكنني لم أعد مملوءاً بالذعر. وعادت إليّ حركة الرجل وهو يخرج من وراء الصناديق، وعاد وجهه ـ رأيت جانب وجهه ـ ثم صوته. لم يكن شريراً. وصوته كان عادياً. لعله نزل وبال على ألواح الحديد كما تفعل كلاب الحيّ جميعاً. نزل وبال عند حافة البورة ثم صعد مع رفيقه على الدراجة. ولعل صاحبه كان يبول هو أيضاً. ما أدراني؟

هذه الخاطرة عبرت دماغي هكذا خطفاً ثم تبددت. رجع الخوف في موجة غادرة وفكّرت أن السيارة الآن ستنفجر. وقف الشعر على رقبتي وتجمد ظهري كأن الجليد يغطيني. ستنفجر الآن. لكنني لم أسمع شيئاً. فقط أصوات التلفزيونات التي تخترق الحيطان في ليل المدينة. وسيارات تعبر بعيداً، هذه سيارة تخترق عبد الوهاب الإنكليزي، وهذه سيارة تكرج في مونو. صار صوت السيارات النازلة في مونو مختلفاً منذ نزعوا الأسفلت وبلطوه بالحجر الأسود. صوت العجلات أقوى، يفرقع متقطعاً على الفراغات بين

البلاط، وفي الليل يقوى ويعلو. المهم أن السيارة لم تنفجر. وأنا بقيت حياً.

اتصلت بالدرك. جربت أكثر من رقم. فتحت «الأوراق الصفر» ووضعت دائرة بالحبر الأزرق على أرقام قوى الأمن الداخلي والإطفاء والطوارئ وجربت ثلاثة أرقام أو أربعة. في المرة الرابعة أو الخامسة أجابني صوت. رنة الهاتف في الأذن. وأنت تنتظر. هذه الرنّة المتقطعة، فظيعة، تنتظر وتنتظر وتنتظر. ثم تجرب رقماً آخر. لعلك هذه المرة تنجح.

طلبوا عنواني وأعطيتهم عنواني. بعد عشر دقائق أو 15 دقيقة، لا أعرف، سمعت الصفارات. لم أنتظر طويلاً. مع أن الواحد يتوقع أن هذه الأشياء تأخذ وقتاً. السمكري تتصل به صباح الاثنين وتقول ضروري ضروري أن يمرّ عليك الآن فيمرّ عليك الخميس أو الجمعة. هذا إذا مرّ يوماً. حتى شركة الغاز تتأخر في إرسال القناني. لكن الصفارات توقفت أمام البيت والدرك قالوا إنهم الآن يفحصون السيارة.

لم تكن مفخخة. ولم يجدوا أي أثر لمحاولة تفخيخ. قالوا إن الناس على أعصابها هذه الأيام، والأعصاب تعبانة.

قلت لست على أعصابي.

ـ قلت لست على أعصابي وصرت متأكداً أكثر أنني لم أكن مخطئاً. الدرك ذهبوا وأنا دخلت وأخذت حماماً وغسلت جسمي بالصابون جيداً ونشفت جسمي وخرجت. بقيت أنشف جسمي وأنا أضع قنينة بيرة في الثلاجة. لا أشرب غير بيرة «ألماسة». هذه أطيب بيرة في العالم. أينما سافرت أشرب بيرة. ولم أجد في الأرض أطيب من هذه البيرة. نشفت جسمي ولبست البيجامة وفتحت التلفزيون. بعد دقائق، بينما أشرب البيرة الباردة وأنظر إلى التلفزيون، أخذت أضحك. كنت أقلب القنالات على الأخبار والفضائيات محدقاً إلى شريط الأخبار الذي يُنقل عن وكالات الأنباء ويظهر أسفل شاشة «العربية» وأسفل شاشة «الجزيرة» وأسفل شاشة NBN، أنظر إلى الشريط وأبحث عن السيارة التي كادت أن تقتلني. أين السيارة لا تمر على الشاشة؟ أقلب القنالات... ثم صرت أضحك. نوبة ضحك غريبة. لم أضحك في حياتي كلّها مثلما ضحكت تلك الساعة. وقت طويل وأنا أضحك وأشرق بالبيرة وأنا أضحك. استقر التلفزيون ـ بعد موجز أخبار على LBC ثم موجز آخر على قناة المستقبل ـ استقر التلفزيون على الديسكوفري شانل. كانوا يعرضون مدينة، مدينة من زجاج، شكلها كالهرم، تُبنى في خليج طوكيو. مدينة من حديد وزجاج، طبقات على طبقات، بلا

سيارات. فتحت فمي مدهوشاً. كنت أضحك وتوقفت لحظة عن الضحك وفتحت فمي. فتحت فمي وأنا مستوعب جيداً أنني أفتح فمي كما يفعل الممثلون في الأفلام حين يصعقهم خبر ما أو يصعقهم منظر. فتحت فمي ونظرت إلى هرم الزجاج والحديد فوق الماء عند ساحل طوكيو.

يتنقلون بين البيوت والمتاجر الموزعة على طبقات الهرم، يتنقلون على سحّابات حديد، وسلالم كهرباء، كما في المطارات. وهناك مصاعد متطورة أيضاً، تشبه السيارة شكلاً، أو الصندوق، وتتحرك بكبسة الزر وتنقلك من طبقة إلى طبقة ومن جهة إلى جهة، أفقياً أو عمودياً، بحسب ما تريد. ولا سيارات.

أخذت أضحك مرة أخرى. موجات الضحك تفور مني وأنا أشعر أنني وحدي في الكون لكنني لست وحدي أبداً. ليس أن هذا التلفزيون يخاطبني. كلا. الكون كلّه يتكلم معي. لم أفهم ماذا يحدث. الليلة كلّها كانت تجربة غريبة. من قمة الخوف والذعر انتقلت إلى قمة أخرى مواجهة. فجأة أحسست بالإيمان. بالضبط: هذا ما أقصده. صرت مؤمناً.

نمت كالدب تلك الليلة. واستيقظت مرتاحاً. في المكتب وأنا أشرب قهوتي شعرت بالنعاس. كان نعاساً قوياً مباغتاً. كان نعاساً لا يقاوم. أبعدت كوب القهوة وألقيت يدي على المكتب ورأسي على يدي وغفوت. نمت نصف ساعة وقمت وخرجت. أردت أن أمشي في الطرقات، أن أتفرج على البنايات والسماء، أن أشعر بجسمي يتحرك في الطرقات، يعبر بين البنايات، تحت السماء الشاسعة.

ابتعت مكسرات بلغارية (صنف اعتدت عليه، يشبه المكسرات اللبنانية، لكنه مغلف بقشرة قاسية، تتكسر بين أسنانك، وطعمها

طيب). صرت أمشي وأنا أكل هذه الحبوب وأنظر إلى السيارات والناس والعمارات والمتاجر كأنني أفتح عينيّ من غيبوبة طويلة. رأيت مرة في التلفزيون برنامجاً وثائقياً عن رجلٍ وقع في الغيبوبة وظلّ في الغيبوبة 11 سنة وحين خرج وجد زوجته قد طلّقته وتزوجت رجلاً آخر ووجد أولاده يعاملون الرجل الآخر كأبٍ لهم، والرجل الآخر يعامل الأولاد ـ الذين كبروا الآن ـ كأنهم أولاده هو لا أولاد زوجته.

مشيت وأنا أتذكر ما جرى لي قبل ليلة. أحسسّت أنه لم يحدث لي قبل ليلة بل قبل 11 سنة. أو لعله لم يحدث لي بل حدث لرجل آخر والرجل الآخر أخبرني عنه وأنا ظننت أنه حدث لي. بقيت هذه الأفكار تأتي إليَّ وتذهب بينما أقطع أمام «بنك عودة ـ مجموعة عودة وسرادار» على باب إدريس، ثم أمام البناية الجديدة لإيلي صعب، ثم أمام مدرسة البيزنسون. وقفت هنا تحت ظلال الشجر الأخضر وأنهيت ما في الكيس ورميت الكيس في سلة الزبالة. كان باص يخرج من الموقف جنب المدرسة ورأيت فتيات يتضاحكن ورأيت رجلاً يصف كراسي عند مدخل أحد الأبنية. في الأعلى غيوم الخريف تسبح بيضاء، قطنية، هادئة. نظرت إلى الغيوم تفور وامتلأت حبّاً للحياة وحبّاً لهذه المدينة. مدينتي. بينما أفكِّر في هذه الأشياء عَبَر رجل أمامي. مَن هذا الرجل؟ كان في الجانب الآخر من الطريق، يغذ الخطى على الرصيف، متجهاً نحو الطلعة... رأيته وعرفته. هذا الرجل الذي رأيته أمس. أليس هو؟ الرجل الذي رأيته على الدراجة! ثم فكَّرت أنه ليس هو. هذا أقصر منه. شعره أسود جعد مثله، صحيح. لكن نصف الرجال في بيروت شعرهم أسود جعد. كذلك وجهه مثله أبيض! وعنده أذنان وأنف وفم! وعنده عينان أيضاً! استغربت الوسواس الذي داخلني. لماذا حسبت أنه

الرجل الذي رأيته أمس، ذلك الشاب وراء صناديق النفاية؟ أين الشبه بين الاثنين؟ غير الشعر الجعد الأسود وغير عبوره السريع الخاطف أمامي، أين الشبه؟ نظرت إليه يطلع صاعداً في الطريق، يلبس بنطلون جينز وقميصاً أسود، وفكَّرت أنني أصلاً لم أرَ وجه الرجل في الليلة الماضية. رأيت جانب وجهه فقط، الخد والأذن وطرف العين، ليس أكثر. لم أرَ وجهاً. رأيت نصف وجه. وهذا ليس وجهاً.

الرجل يكاد يختفي في أعلى الطلعة. الطلعة تنعطف والرجل يختفي وأنا أرى طيوراً تحطّ على السروات الشاهقة العلو هناك، عند أعلى الطلعة. سروات تتراصف أمام بيت قديم بقناطر. شبابيك بأباجور أخضر. وقرميد عالٍ حال لونه. حيطان مقشورة. البيت طبقتان وله شرفة طويلة تلفه، ودرابزين حديد أسود مطرق. أتأمله دائماً حين أعبر في هذه المنطقة. يبدو مهجوراً. ولعله مهجور.

الوقت فارغ بين يدي. أسرعت الخطى. أردت أن أرى الرجل مرة أخرى. لا أدري لماذا. لحقت به ورأيته ينعطف يميناً، باتجاه البحر البعيد، في الأسفل. لحقت به تاركاً الكنيسة خلفي ورأيته ينعطف يميناً ويدخل طريقاً فرعية. ما هذه الطريق؟ لا بدَّ أنها طريق البيت القديم، البيت بالقناطر! هذا غريب وقفت أنظر إلى السيارات متوقفة عند الإشارة الحمراء، على تقاطع الطرق، ولم أعرف ماذا أفعل. إذا أسرعت وراء الرجل في الطريق الفرعية القصيرة سوف يراني. أعرف هذه الطريق. أراها وأنا أعبر الرصيف إذا كنت نازلاً إلى البحر أو إلى أوتيل فينيسيا. طريق قصيرة نصفها تراب. وفي نهايتها الباب الأخضر الحديد للبيت القرميد العالي القناطر. هذا الرجل ببنطلون الجينز والقميص الأسود هو صاحب البيت؟ ماذا لو لحقت به وناديت عليه؟

بقيت واقفاً. السيارات تأتي من شارع كليمنصو وتتوقف على الإشارة. في واجهة البنك الفسيحة في الجانب الآخر من الشارع، لوحة حمراء شاسعة المساحة. هذا المصرف بُني في السنوات الأخيرة. ليس قديماً كهذا البيت بالقناطر. المصرف زجاج وحديد، تزين بهوه لوحات دموية الحمرة. أنظر إلى الزجاج فأراني واقفاً هنا كالأبله وأرى البيت القديم بالقناطر وأرى غيمة تعبر فوق السروات ومرة أخرى أراني. ثم أرى حارس المصرف ينظر إليّ. لماذا ينظر إليّ؟ لأنني أنظر إلى المدينة منعكسة في زجاج المصرف؟ لهذا يراقبني؟

لكنه لا يراقبني. قطع كليمنصو ودخل موقف السيارات المواجه وأخذ يتكلم مع حارس آخر ومع رجال يلعبون الورق. الرجال يقعدون جنب باص صغير مفتوح البوابة. البوابة في مؤخرة الباص، تُرفع إلى أعلى. وداخل الباص الصغير أربعة يلعبون الورق أيضاً. لعبة خارج الباص، ولعبة داخل الباص. يلعبون ويأكلون ترمساً وذرة مسلوقة. على مسافة قصيرة باصات أخرى مشابهة، والمزيد من ألعاب الورق. أمام دكان صغير بدرجات تنزل إلى تحت مستوى الرصيف، رجلان يقعدان على مقعدين قش ويلعبان طاولة. في مدخل الدكان كتب قديمة. هذه مكتبة تبيع كتباً قديمة. في مواجهة المكتبة مدرسة. هذه باصات المدرسة. سائقو الباصات يتسلون بالورق وينتظرون الجرس حتى يُقرع. لا أسمع الزهر العظم يطقّ على خشب الطاولة لكنني أسمع ضحكات. في باص آخر، وراء المقود، يقعد سائق سمين ورأسه ملقى إلى خلف. ذراعه مطروحة عارية خارج نافذة الباص. لا بدَّ أنه نائم. كرشه على المقود.

ماذا أفعل هنا؟ مشيت وعبرت حيث تتفرع طريق البيت. ألقيت نظرة بطرف عيني فلم أرَ الرجل. توقفت عن السير وتأملت الطريق.

الإسفلت. ثم التراب والعشب. مشيت خطوات قليلة. البوابة موصدة بالسلاسل. لا يمكن أن يكون فتح البوابة ثم أقفلها بهذه السرعة! عليه أن يفتح القفل ثم عليه أن يخلص السلاسل من قضبان البوابة ثم عليه ـ بعد الدخول ـ أن يرد السلاسل وأن يقفل القفل. هذا يحتاج إلى وقت. وأنا لم أعطه هذا الوقت كلّه.

هل قفز فوق البوابة ودخل إلى البيت؟ من هنا أرى المدخل المبلط. وأرى بلاطات الشرفة. يبدو البلاط مكنوساً نظيفاً. الأوراق اليابسة تتبعثر في الحديقة. هناك أشواك أيضاً. وقناني زجاج فارغة. وشمع سائل على القناني. لكن البلاط مكنوس. وثمَّة شريط كهرباء يدخل من أباجور نافذة. لعله سلك موصول إلى مولد كهرباء. لا يبدو البيت مهجوراً. لكن إذا لم يكن البيت مقفلاً وأصحابه خارج البلد، فلماذا هذه السلاسل على البوابة؟

البيت موصد على الأرجح. لكن أحداً يسكنه! من يتسلل إلى بيتٍ مقفلٍ كبيرٍ ويسكنه من دون أن يعلم أحد؟

ماري تتصل من بالتيمور. تسأله لماذا لا يحزم ملابسه في حقيبتين ويقفل باب البيت ويأتي إلى أميركا. تقول إنه من سنوات لم يأتِ ويزورها. تقول إن الأولاد يسألون عن خالهم طوال الوقت. تقول إن البيت واسع ويقدر أن يجيء ويستقر هنا. وإذا أراد يدبرون له بيتاً منفصلاً. المطعم مزدهر والفرن لا يكف عن الخبز ليلاً نهاراً. ماذا يعمل في بيروت، كل يوم انفجار، اللّه يستر، لماذا تبقى يا سمعان في بيروت؟ تقول إن توماس صار شاباً صغيراً وإنه يشبه خاله. وتقول إن مرتا بنت بطرس يارد تزوجت من طوني حداد. مطانيوس الذي كان معك في النادي... صوت ماري يأتي من وراء البحر غريباً. ويرنّ في أذنه. ويرنّ في فراغ البيت الفسيح العالي السقف. هذا السقف العالي يُولد صدى. وهو اليوم، وبلا السقف العالي، يحمل على كتفيه رأساً تطنّ كجرة مملوءة حصى وتطرطق. شرب كثيراً أمس. شرب كثيراً ورقص كثيراً ولم يخلد إلى النوم إلا في ساعة متأخرة. غريب أن تأتي على سيرة طوني حداد الآن وهو الذي خطر في باله الليلة الفائتة. كان يرقص وتسارعت أنفاسه والفتاة تغيب عن نظره بين الأجسام المتزاحمة ثم تظهر من جديد. فكّر في مطانيوس لأنه تذكر رفع الحديد وعادت إليه ـ وهو يترك الراقصين

ويمضي إلى طاولته ـ ذكريات «نادي أبناء نبتون الرياضي». والآن تأتي ماري على ذكره.

قالت ماري إنه لم يأتِ منذ سنوات. والأولاد يسألون عنه. سمعان يشرد وهي تحكي ـ طول عمرها عندها هذه الخاصية: إذا دخلت في جولة هذيان لا تخرج منها إلا بعد ساعة ـ وتحكي وتحكي. يذهب بعيداً في فراغ البيت مثل فراشة تلهو بين قطع الأثاث القديمة الضخمة (لم يعد أحد يعمل مثل هذه الكنبات، مثل هذه الخزائن، مثل هذه الطاولات، مثل هذه المرايا المؤطرة العالية). وحين يرجع من شروده يسمعها تذكر أسماء أولادها مرة أخرى أو أسماء أقارب يذكرهم ولا يذكرهم. من هؤلاء؟ لماذا تحكي عنهم الآن! نسيهم مذ غادروا المدينة. نسيهم مذ غادروا الأشرفية. تقول إن انطوان دبانة فتح مطعم شاورما وفلافل على بعد شارع واحد من مطعمهم، في الجهة الأخرى من الكنيسة، لكن المطعم لم يمشِ. لم يرَه أحد يشعل شمعة مرة، تقول، ثم تقول إن جوزف كان يسعل كثيراً هذا الأسبوع وإنه أراد. . .

كلماتها الآتية من بعيد لا تبلغه. تخرج من السماعة، صحيح. تملأ فراغ المكان بصوت امرأة مشتاقة إلى أخيها، صحيح. تضاعف إحساسه بالبُعد أيضاً. هذا صحيح. لكن هل يعني هذا أن كلماتها تدخل إلى رأسه، إلى جسمه؟ يضيع بعيداً وعيناه متعبتان. كأنه ما زال في الليلة الماضية في «مونو»، يرقص في المطعم الذي سمّوه «كريستال»، ويشرب كوكتيلاً تلتهب النار على وجهه. كأنه ما زال بين الأجسام الساخنة المتدافعة تفور منها الروائح، تتدفق طاقة وحرارة. أحسّ بالعجز، كأنه يكبر سنوات دفعة واحدة، كأنه يشيخ في لحظة، برمشة عين ينقلب عجوزاً! لماذا حدث له ما حدث؟ من أين ملأه ذلك الوهن؟ كان يرقص والموسيقى تضج والفتاة تحوم

وتلتصق به ثم تبتعد، وحين جذبها إليه وجدها مطواعة بين يديه، لم تعد جلفة عدائية، باتت لينة، وشعر بأعضائها تتراخى على أعضائه، كأنها تذوب، مثل الشمع التصقت به، وشمّ رائحتها، رائحة السجائر. لا يطيق الوينستون. ولم يفهم كيف أن فتاة تدخن هذه السجائر الثقيلة. وخيّل إليه أنه لا يميل إليها. هذا كان قبل الرقص. لم يحبّ طريقتها في إمساك السيجارة. ولا طريقتها في رفع الكأس. وبالتأكيد لم يحبّ حديثها وعباراتها القصيرة الاستفزازية. يتجنب المراهقات. لكن هل يجوز وصف هذه الفتاة بالمراهقة وهي تلف ذراعيها البيضاوين بياض العاج على عنقه، وتترك رأسها يقع على كتفه؟ الآن لا تضايقه رائحة التبغ القوية. امتزجت برائحتها، رائحة أنثى تطلب ذكراً، فاحت الرائحة الحارة وطوقت رأسه. لكنه امتلأ وهناً. ماذا أوهنه؟

قالت ماري إنه منذ سنوات لم يأتِ ويزورهم وإنهم اشتاقوا إليه. قالت منذ سقوط برجي نيويورك لم تأتِ، والآن الأحوال سيئة في بيروت، كل هذه السيارات المفخخة، ويقولون هناك توتر في المخيمات، هل تعرف ماذا يعني هذا؟ لماذا لا تقفل باب البيت وتأتي إلى أميركا؟

سمعان يارد يضحك لعله يُخرج ماري من هذه السيرة. يضحك ويقول إن أميركا لن تعطيه فيزا إلى أميركا. ثم حتى لو أعطته فيزا فهو لا يقدر أن يسافر لأن بيت رياشي سبقوه إلى الهرب وهو المسؤول عن الحديقة وسقاية الحديقة الآن. وضحك مرة أخرى وقال من حسن حظي أنهم لم يتركوا الكلبة أيضاً.

وماري ضحكت. لكن ضحكة قصيرة. ثم رجعت تقول إن هذه المسألة خطرة وليست مثل كل مرة. وإذا كانوا قتلوا رئيس الوزراء نفسه فمن يمنعهم من قصف المدينة؟

وسمعان يارد طمأن أخته وقال إن الأخبار تكبر على الطريق وإن هذه مبالغات وعلى الواحد ألا يصدق كل ما يسمعه في التلفزيونات، ثم إن عندنا في البلد لجنة تحقيق دولية الآن، وهذا القاضي الألماني ديتليف ميليس ليس هيناً، وما هي إلا أيام ثم يرفع تقريره إلى الأمم المتحدة، ومجلس الأمن الدولي ليس الدرك. . .

أحسّ سمعان بالتعب وهو يتكلم. أراد أن يسكت لكنه خاف إذا سكت أن تنطلق أخته في الحديث مرة أخرى. لو يقفل الخط! لكنه لا يقدر أن يقفل الخط. عليه أن يصبر إذاً.

سكت وترك ماري تبدأ من جديد. من الأول. قالت إنها رأت التفجيرات على التلفزيون. رأتها كلّها. وهي تقرأ صحف لبنان على الإنترنت. كل يوم تقرأ الصحف. وأولادها يطبعون الأخبار من الكومبيوتر. كيف يقول إن بيروت لن تخرب؟ مريم تنجينا. يا ستنا العذرا. أبانا الذي في السموات. كيف تقول يا سمعان ما تقول؟ أنا رأيت على التلفزيون الحريري. رأيت يده. رأيت السيارات المحروقة والأوتيل الذي وقع. لا يا أخي يا سمعان لا. لا يجوز أن تبقى في الأشرفية وهذا كلّه يحصل. الآن يضعون متفجرات في الليل. ماذا تعمل إذا صاروا يضعونها في النهار، في الأسواق والباصات والمولات؟ ماذا تعمل؟ ويا سمعان ورحمة أمي ـ وحياتي، وحياة أختك إميلي ـ لا تخرج في الليل من البيت. قبل أيام رنّ لك حنا بالليل وظلّ يرنّ ويرنّ ولا أحد يرد. لا تخرج من البيت في الليل يا أخي. لماذا تبقى ولا تأتي إلى عندنا؟ أو اذهبْ عند إميلي! لماذا تظل في بيروت؟ ماذا يبقيك في البيت؟ أنا رأيت الجعيتاوي على التلفزيون. عرفت البنايات. وبيت خالتي. أولاد خالتك كلُّهم هنا. في ديترويت وفي كندا. لماذا تبقى في الأشرفية؟ رأيت النوافذ المخلعة. والعجائز على الكراسي. والجرحى. رأيت القتيل

المحروق يرفعونه وسيارة الإسعاف عالقة بين شاحنات الإطفاء. على التلفزيون رأيتها. وكل الوقت أخاف أن أراك على التلفزيون يا سمعان. وحياة أختك لا تخرج بالليل من البيت. أنا أعرفك وأعرف أنك لا تقعد في البيت وكل الوقت تسير في الطرقات. ماذا يبقيك في الأشرفية يا أخي؟ اسمعْ من فمي: احمل أغراضك وأقفل البيت بالمفتاح وتعال إلى بالتيمور. من هنا نحجز لك على الطائرة. ولا تعذب نفسك ولا تتصل بوكالة السفريات ولا تفعل شيئاً. فقط احمل نفسك إلى المطار. من أجلي يا سمعان. والأولاد اشتاقوا إليك.

سمعان يارد لم يضطرب أمام كلمات أخته الحارة. يعلم أنها ستهدأ. عليها أن تُفرغ ما في جوفها من كلام ثم تهدأ. ما عليه إلا الصبر. تركها تحكي والنور يملأ الزجاج الملون المحجر في الكوّة المرتفعة المدوّرة. أين تجد مثل هذه الكوى في بيوت بيروت التي يبنونها اليوم، أين؟ لم تعد تراها إلا في هذه الحارات القديمة. وفي بعض قصور الرميل. وفي قصور وادي أبو جميل التي تُرمم على مهل. هذه الكوى الدائرية العالية. وهذا الزجاج البندقي الفخم. النور يملأ الزجاج الثمين، يملأ المثلثات الزرقاء، يملأ المربعات الخضراء، يملأ المعينات الصفراء، يملأ الدوائر... يشع النور عبر الزجاج المحجر ويدخل البيت. كأن الزجاج يتشبع بالضوء رويداً رويداً. ترى الألوان تقوى وتسطع تدريجياً، ثم ـ عند لحظة ما ـ يخرج الضوء متدفقاً من الزجاج ويملأ السقف بالأشكال العجيبة، يفور النور على السقف كأنه ينبع من قلب الزجاج المحجر.

ماري يسكن روعها في الجانب الآخر. سمعان يسمع أصواتاً أخرى الآن. هذا صوت صهره، صوت حنا، صوت ابن عمه. هناك صوت ثالث أيضاً. لكنه لا يميزه. الاتصال لم يعد صافي الصوت كما كان في البدء.

عبر الحيطان تأتي أصوات الحيّ أيضاً. مع أن هذا الحيّ قليل الأصوات. لا ضجة هنا في النهار. ليلاً، إذا ازدحم مونو، تعلو ضجة. في النهار المكان ساكن. الأصوات قليلة والسيارات قليلة. هو أصلاً نادراً ما يبقى هنا في النهار. وإذا بقي سمع عصافير الدوري في السنديانة. الآن لا يسمعها. العصافير. هذا التلفون أتعبه وأزعجه. عندهم سنديانة عمرها 85 سنة. جده زرع السنديانة بيده. زرع السنديانة سنة شرائه هذه الأرض. حجّة الأرض محفوظة. والتاريخ بالحبر الأسود أسفلها: 1920. جدته أخبرته أن هذه المنطقة كانت غابة من الجميز والتوت والصبير والشوك عندما زرع جده هذه السنديانة. الآباء اليسوعيون قالوا له لن تنبت سنديانة على الساحل، لا تعيش في الحرّ والرطوبة، تحبّ الجفاف والعلو والطقس الباردة، لا ترمِ قمحك على الصخر والشوك يا ابن يارد. لكن جده زرع السنديانة. زرعها هنا، وهنا عاشت. يراها العابرون وهم على الطريق، في الشارع، وراء حائط الحوش العالي. ويسمعون العصافير تزقزق في قلبها. ارتفعت أعلى من السقف. أعلى من هرم القرميد المرتفع ارتفعت، ظلالها تغمر جانب البيت وتغمر شبابيك الصالون وأوضة السفرة. في الحر الشديد، في عزّ تموز (يوليو)، يبقى الصالون بارد الجو بسبب السنديانة. في عهد كميل شمعون خرجت جذورها من بلاط غرفة النوم، جنب أوضة السفرة. قالوا هذه السنديانة ستصدع الحيطان، والبيت قد يقع. أرادوا قطعها. لكن جده لم يقبل. حفر خارج البيت وقطع جزءاً من الجذور وصبّ باطوناً في الحفرة. جدته تقول إن جده رأى مرة في المنام الشجرة قد طالت وكبرت حتى غطت بفروعها الجامعة اليسوعية. كان يحكي منامه لأصحابه وأقاربه في الصيف، حين يبسطون المائدة في الخارج، في الظلال الوارفة، ويشربون العرق

ويأكلون المازات ويشوون المشاوي. جاءت الشيخوخة إلى جده وهو يقوم كل صباح ويقعد في ظل السنديانة. كانت الأشرفية صحراء صبير وجميز حين بنى هذا البيت. لم تكن توجد هنا بناية واحدة. فقط العمارة الحجر الصفراء لكلية مار يوسف، هناك عند الجميزات. وعلى مسافة منها اصطبلات اليسوعيين. ودير اليسوعيين. كانوا كلّهم يعرفون جدك. وجدك يعرفهم. ومكان الخيّاط الآن كان يوجد نبع ماء. كنا نقول النبع، ولم يكن نبعاً، كانت بئراً، الآباء عملوا مضخة على البئر، مضخة نحاس، وكنّا نملأ الجرار من هناك. ثم مدّ جدك الحيّات النحاس من مشروع المياه ولم نعد نملأ الماء من «نبع اليسوعية». كل هذه البيوت والبنايات التي تراها الآن كانت جلول توت. وبعد أن بنى جدك بنى ابن بسترس على الأرض جنب الجامعة. ثم بدأت البيوت تتكاثر. جدك عمَّر «فيلا مكسيكو»، الفيلا الحجر الكبيرة بعد المخفر هو عمَّرها.

بعد ماري يتكلم مع صهره حنا. النور الملون انبسط على السقف الآن وبلغ إحدى الزوايا. يتراقص، يتهادى، ينخفض ويعلو كالماء. كل حياته يتأمل هذا النور الملون يتهادى على هذا السقف العالي. جنبات السقف فيها تخاريم، نقوش في الحجر هي، ليست جفصيناً وقوالب مصبوبة.

حنا يقول إنه رأى في التلفزيون سمير قصير محروقاً في سيارته ويده على المقود ورأسه على يده. يقول إنه رأى مفرق عبد الوهاب على التلفزيون ورأى الجميزات عند الكوع ورأى السوبرماركت ورأى حائط «زهرة الإحسان» ورأى المدرسة. صوته يتحمس وهو يحكي. يقول إنه رأى المحلات محلاً محلاً وعرفها، لم تتغيّر بيروت، كأنه لم يتركها قبل سنوات، كأنه سافر قبل يومين أو ثلاثة!

سمعان يارد يسمع الكلمات تأتي من أميركا ولا تضيع فوق الأطلسي. يسمعها وأصابعه تعبت بشريط التلفون، وأذنه تؤلمه من السماعة. يسمع ويسمع ويسمع. اليوم سيتأخر.

هذا يوم التلفونات. بعد هاتف ماري الماراتوني انحدر على دروب الأشرفية إلى وسط المدينة. كان يقطع الطرقات بحثاً عن بقع الظل. صحيح أن 21 أيلول (سبتمبر) صار وراء ظهرنا وأن الخريف ـ نظرياً ـ قد بدأ لكن الشمس ما زالت، تملأ بيروت ناراً. لا يريد أن يعرق وهو ذاهب إلى المكتب. من بيته إلى المكتب تأخذ الطريق عشرين دقيقة. اليوم يقطعها في نصف ساعة. يتأنى في خطواته. العرق تحت الإبطين معناه فساد المزاج النهار كلّه. ثم إنه يحبّ هذه القمصان. نادراً ما اشترى قميصاً من متجر. كل قمصانه يُخيطها عند الخياط. كان من قبل يُخيط عند «سعد وطاشمان». الآن يُخيط عند «إسكندر» في فرن الشباك. خطر له للحظة أن يركب سيارة أجرة. ثم تذكر أنه لا يفعل هذا. أصعب بقعة على الطريق هي الساحة البيضاء الفارغة أمام سينما سيتي بالاس. هذه مساحة تغمرها الشمس. كأن المياه تفور وتغلي على حصى هذه الساحة. لا أشجار ولا بنايات. يذكرها قبل الحرب متاهة أسواق متشعبة.

يخرج من الظل البارد تحت جسر فؤاد شهاب إلى نار الساحة البيضاء الواسعة. عادة يسير في ظلال بيوت «قرية الصيفي» المرممة. (بين أشجار «جنينة الدباس» يُسمع خرير ماء. لكنها حديقة صغيرة. الواحد يضعها في جيبه ويمشي. ليست حديقة. صورة حديقة.) لكنه اليوم تأخر على المكتب. قطع الساحة ودخل في شارع الأم جيلاس

ثم اخترق مجمع اللعازارية. البنايات الصفراء المتطابقة والباحة المبلطة بالأحمر. هذه البنايات أيضاً يذكرها قبل الحرب تضجّ بالأصوات والوجوه والبضائع. في الباحة بسطات كتب وقماش. وعن الجانبين مطاعم فلافل وباذنجان مقلي وشاورما. وفرن مناقيش في الزاوية ـ حيث صالات فارغة الآن ـ كان أبوه يقول إنه يعمل أطيب مناقيش في بيروت. إذا أكلت عنده فطائر سلق مرة لا تعود تأكلها عند أحد غيره. والوحيد الذي يكتب على الكرتونة «سلق». الكل يكتبون «سبانخ» مع أن الفطائر كلّها تكون بسلق، ونادراً ما تكون بسبانخ. هذه ليست بلاد السبانخ.

يتنفس الصعداء إذا بلغ رأس شارع المعرض. من هنا تكرج الدرب سهلة مغمورة بالظل. لعل الكحول الكثير في بدنه يضاعف إحساسه بالحرّ. منذ أيام يشرب كل ليلة. ومع الطعام ظهراً أو عصراً يشرب أيضاً. وأمس في مونو شرب أكثر من اللزوم. ومع الشرب رقص. وهذا جعل الكحول يسيل في دمه. عليه الانتباه. لم يعد ولداً. ثم إن الكحول مملوء سعرات حرارية. وهو يكره أن يزيد وزنه. ما دام تحت الـ 75 كيلو فهو بخير. لكن إذا زاد تصير قدمه تغوص في الإسفلت كأنه يقطع مستنقعاً. ثم إن الكحول أيضاً يُفسد المزاج. في البدء يفعل العكس. لكن بعد ذلك ـ بعد انتهاء الشرب وبعد الليل الطويل ـ تدخل الشمس في عينيك كالسكاكين ورأسك يضج بموسيقى غامضة. ليست موسيقى. وعيناه تتغطيان بالشرايين، يصير دماغه كصينية معكرونة بالحليب. لا يفهم شيئاً. وإذا رنّ الهاتف قفزت يده كالثعبان وطرق بكوعه المكتب. هذا الويسكي اللعين. وهذا النبيذ اللعين. والعرق. والفودكا. عليه أن ينتبه. ليلة الجعيتاوي ـ ليلة الجمعة 16 أيلول ـ كان القمر بدراً في كبد السماء. مع أن الغيوم والتلوث يمنعان رؤية القمر (إلا في ما ندر) تلك الليلة

رآه. رآه قبل الانفجار. ورآه بعد الانفجار. الانفجار وقع عند منتصف الليل تماماً. قبل أن تدق ساعة الصالون العتيقة دقّاتها. الساعة على أي حال لا يُعتمد عليها. صحيح أن حركة البندول وراء الزجاج الطويل ما زالت منتظمة. وصحيح أنها منذ ستين سنة لم تدخل محل تصليح ساعات ولو مرة واحدة، لكنها مع هذا ليست ثقة، تؤخر دقائق. أو تقدم دقائق. عند وقوع الزلزال في أواخر الخمسينات مالت على جنبها. جدته أخبرته.

مالت واستندت إلى «الدريسوار» الجوز الضارب إلى حمرة النبيذ. استندت إليه ولم تقع ولم تتهشم. ساعة ثقيلة حُملت إلى البيت من مرفأ بيروت في صندوق خشب يشبه التابوت. الحمالون قالوا إنها أثقل من تابوت. كيف لا تكون أثقل من تابوت والساعة أطول من رجل ومملوءة خشباً وفضة وحديداً ونحاساً؟ أمالها الزلزال لكنها لم تقع. بعد الزلزال جلبوا أرمنياً يفهم بالساعات. أعاد ضبطها. أثناء «قصف الأشرفية» سنة 1978 صارت تؤخر. في «حرب السنتين» (1975 ـ 1976) لم تتعطل. مع أن القنابل التي سقطت في الحيّ لم تكن قليلة. أثناء النصف الثاني من الثمانينات صارت تُقدم. ويوماً بعد يوم تفاقمت أخطاؤها. كانت جدته تعتمد عليها لترتيب وقعات طعامها من قبل. وكانت تعتمد عليها ـ وهي هاجعة في السرير ـ لتعرف وقت قيامها. لكن الساعة جُنّت وصارت تدقّ مرة واحدة عند الساعة الخامسة مثلاً، أو خمس مرات عند منتصف الليل. فتقوم جدته على أساس أن الديكة ستصيح بعد قليل والمدينة ستقوم من نومها، وماذا تجد؟ ما زال الوقت منتصف الليل.

سنة 1990 أتى من برج حمود رجل أصلحها. لم يكن أرمنياً. لكنه تعلم المصلحة على يد أرمني. هذا نادر الحدوث في بيروت. الأرمن يورثون حِرفهم داخل العائلة. وفي الحالاتِ القصوى

ـ كانعدام النسل ـ يورثونها داخل الطائفة. لكن أن يُعلِّم أرمني حرفته لغير أرمني فهذا لا يحدث إلاّ في مرات قليلة. الرجل الذي صلَّح الساعة العتيقة في بيت يارد في شارع غندور السعد كان واحداً من تلك الحالات النادرة. أصلحها. لم تعد تؤخر إلا إذا بقيت بلا ربط وقتاً طويلاً. الرجل قال أفضل العناية أن تُربط كل أسبوع. وسمعان يارد وَرِث هذه المهمة عندما لم يعد في البيت من يربط الساعة. ذهب الرجل إلى برج حمود والساعة اشتغلت كما تشتغل ساعة... حتى نهاية التسعينات. الهزّات الأرضية الخفيفة بين 1995 و1997 لم تعطلها. سنة 1999 رجعت تؤخر. ومرات تُقدم. وأحياناً يُسمع صوت البندول يحتك بالمفصل العالي الخفي. وأحياناً يُسمع هسيس نابض. لكن الساعة لم تتعطل. كل سنة تُزيَّت. وزجاجها إذا تغبَّر يُمسح. وحين تدقّ دقاتها وتتكرر الدقّات بصداها المعدني (هذا الرنين الحلو) في ردهات البيت، من ردهة إلى ردهة، تحت السقف الشاهق، بين صور على الحيطان، مؤطرة، قديمة، ساكتة، تنظر ولا تنظر... حين تتكرر الدقّات المعدنية في بيت العائلة الفارغ، يشعر سمعان يارد أن الأشياء لم تتغير، أن شيئاً لا يتبدل أبداً. يسترخي حيث يكون. في الكرسي الإنكليزي الهزّاز. أو على الصوفا. يملأ الهدوء جسمه.

لكن ليلة الجعيتاوي ضايقته دقات الساعة. بعد أن هزّ الانفجار الفضاء وأيقظه من غفوة قصيرة على الكنبة القديمة في الخارج (في الحوش الساكن) جاءت دقات الساعة جوفاء من أعماق البيت وضايقته. ضايقته؟ هذه ليست كلمة مناسبة. الكلمات لا تقول شيئاً. نقول «القمر». لكن هذه الكلمة ليست «القمر». القمر كوكب أبيض يسبح في الأعالي. كلمة واحدة كيف تقبض عليه؟

فتح عينيه مذعوراً. الصوت الهادر المخيف هذا، ماذا يكون؟

بالتأكيد انفجار. بالتأكيد تفجير. هدر الهواء وسمع زجاجاً يتكسر. أراد أن يقوم عن الكنبة ويدور ويدخل إلى البيت ويفتح التلفزيون. لكن قبل أن يتحرك من مكانه باغته القمر على حافة السنديانة. تذكر لماذا يقعد هنا. خرج إلى هنا كي يتأمل هذا القمر. رجع من «ستارباكس» على ساسين عند الساعة التاسعة والنصف. كان يشعر بالتعب وقال أفضل أن أرجع إلى بيتي باكراً هذه الليلة. استأذن من أصدقائه وذهب. أراد روجيه أن يوصله بالسيارة. قال لا، أتمشى. المشي في الليل متعة. ثم إن القمر في السماء. القاعدون على طاولات «ستارباكس» (على الرصيف في الخارج، يشربون قهوة ونسكافيه وحليباً مجمداً) يراقبون السيارات في ساحة ساسين أكثر مما يراقبون السماء العالية. لكن رواد المقهى هذه الليلة يشعرون بالبدر الأبيض. أثر القمر في البشر. الواحد يرفع وجهه بين حين وآخر. وينظر إلى القرص المدور العالي. وحتى من دون أن ترفع وجهك يتسرب النور الأبيض إليك. ألقى تحية المساء ومضى. ساحة ساسين كالتاج على قمة جبل الأشرفية. السيارات تزدحم في الساحة. ها هنا تتقاطع شوارع كثيرة. في الجانب الآخر طاولات أمام مطعم «تشايس» تكتظ بالروّاد أيضاً. أعطى ظهره للأصدقاء وأسرع يقطع الطريق نحو كشك الصحف. عبر أمام البناية حيث كان من قبل Shrimpy وحيث فُتح أخيراً مقهى يواجه «دانكن أند دونتس». انحدر في الطريق أمام مداخل ABC. المدينة تطنّ هذه الليلة. غداً سبت. يوم عطلة. الناس خرجوا إلى الشوارع. بان سرب من الفتيات. صغيرات. يتضاحكن. يتدافعن. دخلن من باب المجمع التجاري وتحلقن حول نافورة الماء. في الجانب المقابل رجال يصطفون أمام مكتب تاكسيات. يأكلون سندويشات ساخنة من «شيخ الشاورما» ومن «فلافل فريحة». المطعمان يتجاوران. صف

الرجال يمتد بينهما. السوائل تسيل من السندويشات وتنقط على حافة الرصيف وبين عجلات الدراجات والسيارات المركونة. أضواء الكهرباء تلمع على الأيدي والأفواه. تنعكس في العيون. يأكلون وأوراق السندويشات تسقط أرضاً. يحدقون إلى البنات والنساء داخلات أو خارجات من الـ ABC. المجمع يطنّ أيضاً. المطاعم ملآنة. والمقاهي ملآنة. في الأعلى صالات سينما ومشارب ومحلات ومزيد من المطاعم. تحت الأرض أيضاً. في البدء تضايق أن يُبنى هذا المجمع هنا. في قلب الأشرفية. تضايق لأنهم اشتروا النادي وهدموه لبناء هذا المجمع. منذ دخل الجامعة، ومن قبل الجامعة، يأتي إلى «نادي أبناء نبتون» كل يوم. عندما عرف أن المكان اشترته شركة ABC وأنه سيُهدم ويُمسح بالأرض أحسّ بغصة في حلقه. لكن ها هو المجمع. أبيض في الليل. بهيّ الرخام يعجّ كهرباء وبشراً. وهذا القمر البهي يملأ الأبدان طاقة. المدينة تفور. كأن الانفجارات لم تهزها قبل أسابيع. كأنها غير مهددة بالانقلاب رأساً على عقب في أي ساعة. في أي لحظة.

قطع الرصيف عند حائط «زهرة الإحسان» الأبيض وهو يشعر بموجة قنوط تهجم عليه. لحظة فوق. ولحظة تحت. ما هذا المزاج الغريب الذي بات مزاجه في الفترة الأخيرة؟ متى بدأ هذا التقلب؟ بدأ مع هذه الحوادث؟ مع 14شباط (فبراير)؟ لا، بدأ قبل ذلك. متى؟ في نهاية السنة الماضية؟ بينما يشاهد في التلفزيون زلزال المحيط الهندي؟

عيده يوم 28 كانون الأول (ديسمبر). في 28 كانون الأول الفائت فكَّر أنه قطع نصف رحلة حياته. لعله قطع أكثر من نصفها. في التلفزيون أمواج وجثث وأخشاب محطمة. جثث عارية منفوخة سوداء كالفحم.

من أين يأتي هذا القنوط؟ كان فرحاً بالزحمة والأصوات والضحكات أمام «فلافل فريحة» وأمام «شوكولا نورا» وأمام «هارديز». كان فرحاً بالأجسام الشابة المتدافعة أمام السيارات تقطع الطريق. الأبواق تهدر. والنور ينهمر أصفر وبرتقالياً من مصابيح الكهرباء. كان فرحاً فماذا أتعبه؟ هل أتعبه مشهد الأجسام الشابة المتدافعة؟ فتيات ضاحكات بتنانير قصيرة وقمصان تكشف البطون وسيقان ممشوقة عارية... أوهنه المنظر؟ أوهنته الرغبة؟ لا، لم تكن فقط الرغبة. ماذا أوهنه إذاً؟ يقطعن الشارع ضاحكات متراقصات ونور السيارات مسلط عليهن. النور قوي كاشف والبوق يقطع الليل كالسكين. رأى خوفاً خفياً في وجوههن. هل رأى خوفاً؟ لا بدَّ أن هذا من مزاجه. من أين يأتي هذا المزاج الأسود؟ من الخارج أم الداخل؟

مرَّ أمام اللوح التذكاري والزيتونة الحزينة. «الزنبقة السوداء». دخل تحت ظلمة الجميزات بعد مفرق «عبد الوهاب الإنكليزي». الرصيف مغطى بثمار الجميز. يكنسونه ثم يتساقط. يكنسونه ثم يتساقط. جدته قالت إن الناس في الزمن الأول كانوا يأكلون هذا الثمر ويجدونه أطيب من التين.

على الحيطان صورة سمير قصير. بعد أيام من تفجير سيارته تأمل سمعان يارد بناية «لاروز». تأملها واقفاً في نقطة عالية: سطح الـ ABC.

من هناك، من الساحة المبلطة أمام مدخل السينما، رأى البناية كأنها تميل. الهواء يُحرك الأشجار القزمة المزروعة في الحوض عند حافة السطح. والبناية تميل. انحنى على حافة الحوض فرأى أشجار برتقال في الأسفل تتوزع ملاعب «زهرة الإحسان». منذ زمنٍ بعيد لم يرَ هذه الملاعب. متى زرعوا هذه الأشجار؟ لا يذكر أنها كانت هنا!

سيارات تقطع عليه الطريق. ضحكات ورائحة بطاطا مقلية وأنوار. على شرفة عالية رجال يضحكون. ثم قهقهة نساء. بيروت تضحك ليلة الجمعة. التلفزيونات توجّ في الشبابيك. أمام «جمهورية الخبز» آخر طريق «فرن الحايك» عبقت رائحة عجين يختمر. في تلك اللحظة رفع رأسه: كان القمر يضحك. ذهب عنه القنوط. الذي يموت يموت. والذي يبقى يبقى. أبانا في السموات ليتقدس اسمك. ليأتِ ملكوتك. لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض.

تحمّم ولبس بيجامته. أخذ بيرته وخرج ليقعد قليلاً قبالة أحواض الورود وينظر إلى القمر. المساء الليلة صافية. التلوث في الجو قليل. هذا نادر الحدوث في بيروت. والبدر كامل.

جلس على الكنبة الأليفة. شمّ رائحة الخشب القديم والإسفنج القديم. هذه الشراشف من طرَّزها؟ جدته؟ رقّت الشراشف. لكن التطريز ما زال كما هو. لم يتغيّر. هذه الزهور الزرقاء الدقيقة على أبيض القماش الهش.

نظر إلى القمر يعلو سقف المدينة. أعلى من أبراج بيروت وخيمة الأسلاك المتقاطعة المتشابكة. نظر إلى القمر وأحسّ أنه يسبح في النور الأبيض، يسبح خفيفاً. فكّر أن هذا لا بدَّ يعني شيئاً. هذا الصفاء. هذه السكينة. الضجة التي تجيء من وراء البيت، من جهة «مونو»، قوية وغير قوية. كأن هذا النور الشفّاف يمنع الضجيج. سمعان يارد لم ينتبه أنه النعاس. النعاس والبيرة وتعب النهار الطويل. كان ينعس والأصوات تبتعد. الهواء يخشخش في السنديانة الكثيفة الورق وهو ينعس. مال رأسه إلى خلف على مسند الكنبة الأملس. نام.

جسمه انتفض عندما دوى الانفجار، أفزعه الدوي والزجاج

الذي يتحطم. فتح عينيه مذعوراً. لم يفهم ماذا جرى. الذعر أرسل الدم هادراً في شريان رقبته. وقف شعر رأسه. ماذا حدث؟ أين أنا؟ ماذا حدث؟

أراد أن يدخل إلى البيت ويفتح التلفزيون. ما هي إلا لحظات ثم يسمع ويرى ويعلم. أراد أن يقوم عن الكنبة. لكن نظرته وقعت على القرص الأبيض عند حافة السنديانة.

السنديانة كوكب أسود معلق فوق رأسه. وعند حافة الكوكب الأسود بان ذلك الوجه الغريب الأصفر: أهذا القمر؟ هذا ليس القمر الذي كان ينظر إليه عندما نام قبل ساعة!

التقى يارا في مطعم صيني يجاور شارع فوش. كانت تلبس بنطلوناً أزرق وقميصاً أبيض بكشكش ناعم عند الياقة والكتفين. عنقها الأسمر يلمع. وسلسلة الفضة تزيده لمعاناً. شعرها الأسود مربوط. وعيناها المشروحتان تشعان. دائماً قبل أن تذهب في رحلة إلى خارج البلاد تتصل به ويلتقيان في مطعم. دائماً يحب هذه المواعيد. تلتقيه وهي مملوءة حياة. ويخيل إليه أنه ـ هو أيضاً ـ يناله رذاذ من هذه الطاقة العارمة. لا يكون مزاجها حسناً أبداً كما يكون وهي تستعد لسفرٍ. تتغيّر نفسيتها، يكثر كلامها، وبؤبؤاها يبرقان. بشرتها ملساء صقيلة. على البحر، وهي تفرك جسمها بالزيت، يتأمل بطنها. مدوّرة، سمراء، مشدودة. تخفق خفقاً تحت أصابعها. لا ينسى أول مرة رآها تفرك بطنها زيتاً.

طلبت لحم عجل معمولاً مع الخس الصيني Bok Choy بالزيت والثوم والحبق وزيت السمسم وصلصة الصويا. مع الطبق طلبت نودلز.

طلب دجاجاً مع براعم الخيزران bamboo shoots مقلياً بالزيت مع بصل أخضر وزنجبيل وفليفلة حمراء وكاجو وصلصة صويا. جنب الطبق طلب رزّاً. على البخار.

ـ ما زلت خائفاً من البقر المجنون؟ سألته.

ـ ما زلتِ تكرهين الشوربة؟ أجابها.

يارا تبغض الحساء. إذا كانت معه لا يطلب حساء. يتضايق إذا شرب حساء وحده. تقول إنها تحب الحساء لأنها تكره الإقامة في التواليت. ثم إن بدنها يقشعر من جبنة التوفو.

ـ لا نريد أن يقشعر بدنك.

يتبادلان الأخبار وتسأله عن أصدقاء مشتركين ويخبرها أن جيرار يفكِّر بالهجرة إلى مونتريال. لم يحسم أمره بعد لكنه على الأرجح سيهاجر.

ـ حرام جيرار، تقول.

لا يفهم سبب قولها لكنه لا يسأل ولا يهتم. لا يدري لماذا ذكره أصلاً. كأنه تعبان اليوم. يقول لها إن أذنه تؤلمه. ويفرك أذنه.

تسأله لماذا تؤلمه أذنه، رشح؟

النادل يقترب موازناً الصينية. الرائحة تفوح. ألوان تملأ العيون. وهسيس يخرج من الخضر الملوحة نصف الناضجة. الرزّ أبيض بياض الثلج كامل الحبّة. تسأله مرة أخرى عن أذنه.

يقول: «التلفونات». يقول إن هذه من عاداته السيئة. يضغط السماعة على أذنه.

تقول وهي تلتقط العيدان:

ـ ليست عندك عادات سيئة.

ضحكتها تبهجه. ضحكة قصيرة. لكن بعد الضحكة يبقى منها أثر في الفضاء. رائحة. تموج خفيف. تموج يُلحظ ولا يُلحظ. ينتبه أن زبائن من طاولات أخرى يلتفتون مرة تلو مرة تلو مرة. يعرف أنها تعرف.

تسأله عن أحوال العمل. يقول إنه كالعادة. وينزع الغطاء الورقي عن عيدانه. ينظر إلى الخارج - إلى ناس يعبرون وراء الزجاج - ثم ينظر إليها ويقول إنه منذ الصباح وهو يتلقى اتصالات طويلة متعبة.

بعد ماري هاتفته إميلي. إميلي نادراً ما تكلمه إلى المكتب. نادراً ما تكلمه أصلاً. علاقتهما الوثيقة واسطتها الـ e-mails. لعل البريد الإلكتروني سبب توثق العلاقة بينهما. لم يتكلما كل هذا الكلام إلا وهي في باريس. إميلي تحب أن تكتب. بعد أن صارت في الخارج قويت علاقتها بأخيها.

قالت يارا إن هذا اللحم شهي، لا يشبه اللحم أبداً. رفعت وجهها ونظرت إلى وجهه، عيناها اتسعتا وهي تلوك على مهل وتبلع. ثم همهمت كطفلة.

سألها هل رحلتها طويلة؟

- لماذا تسأل؟

ضحكت وهي ترفع النودلز بالعيدان إلى فمها. فكَّر أنها ماهرة في تحريك العودين الخشب. سمع صفرة الهواء الخفيف بين شفتيها.

قالت إن العمل يستمر خمسة أيام لكنها ستأخذ خمسة أيام أخرى إجازة، وإذا استطاعت ستأخذ أكثر، ليست مستعجلة على الرجوع في هذه الأوضاع، ولو تستطيع لا ترجع قبل تقرير ميليس لأن حدسها يخبرها أننا لن نفرح كثيراً بعد التقرير.

فكَّر أنها تقول كلاماً سمعته أو قرأته.

- كيف يعملون النودلز؟

ـ يسلقونها. ثم يتركونها تجف على مناشف. ثم يقلونها بسرعة وبزيت قليل.

ـ لا، أقصد كيف يعملون الخيوط أصلاً؟ ما الفرق بينها وبين المعكرونة؟

يقول إنه عموماً لا يطلب إلا الرزّ.

ضُحكتها. مرة أخرى تلك الضحكة. حين تضحك يعلم أنها لو تقبل أن تكون معه، معه وحده دائماً، لو تقبل كان... كان ماذا؟ لا يتابع أفكاره. لا يحب الخطط.

تقول إنها لا تعتقد أن التقرير سيقول كيف حدثت الجريمة. ولن يقول من هم الذين خططوا ونفذوا وتورطوا في إخفاء المعالم واشتركوا في تضليل التحقيق. بلى، قد يقول كيف حدثت الجريمة وهل كانت المتفجرة مزروعة فوق الأرض أم تحت الأرض، لكنه لن يذكر المنفذين، ليس كلّهم، ليس بوضوح، ولن يتهم الرؤوس الكبيرة. كيف يتهم؟ هذه الأشياء تجرّ حروباً عالمية. في الحد الأقصى يقول أين وُضعت الشاحنة المفخخة وكيف فُجرت ومثل هذه الأمور. وإذا قال أكثر لن يقول الأشياء بوضوح.

رائحة زيت السمسم. تلتقط من طبقه حبّة كاجو محمصة. تلتقطها بين طرفي العود ثم تنظر إليه: «هل تسمح؟» وتأخذ الحبّة. خدها الأملس. ينظر إليها ولا يشبع من النظر.

تقول إن العلماء اكتشفوا أن الناس الذين يكذبون كثيراً يفعلون ذلك لسببٍ بيولوجي: في جبهة الإنسان، فوق عينيه، داخل الدماغ، نوعان من المادة: مادة رمادية ومادة بيضاء. هذا كلّه نخاع. وكلّنا عندنا هاتان المادتان في المخ. لكن إذا كانت المادة البيضاء أشد كثافة من المادة الرمادية يكذب الإنسان كثيراً. هذه المادة البيضاء

تساعده على الكذب. هو يكذب وأنت تنظر إليه ولا تتخيل لحظة واحدة أنه يكذب عليك. هذا بسبب المادة البيضاء في جبهته. إذا كانت المادة الرمادية أكثر عنده تعرف كذبه فوراً. تفضحه ملامح وجهه. أو يفضح نفسه بضحكة. أو بزوغان عينيه. العلماء الذين اكتشفوا هذا قد يأخذون نوبل الطب.

ـ إلا إذا كانوا كذّابين.

هذه المرة لا تضحك. لكنها تمنحه ابتسامة لا تُصدق. ابتسامة تُسكت العالم. حتى إنه يشعر أن الزبائن في المطعم قد كفّوا عن التنفس.

عند رجوعه إلى المكتب طلب قهوة. فكّ شريط الحذاء واسترخى في الكرسي الكبير. رؤية يارا أنعشت قلبه. كان في حاجة إلى هذه الجرعة. ضايقه هاتف إميلي أكثر من ماري. فاجأته نبرتها المضطربة. وفاجأته كلماتها.

ـ ماذا يحدث عندكم؟ صحيح المخيمات امتلأت سلاحاً؟ صحيح الجيش يحاصر المخيمات؟ الفلسطينيون يريدون أن يحتلوا المدينة؟ لماذا لم تخبرني؟

بدا له الاتصال جزءاً من كابوس. كابوس غامض لا يعرف أين بدأ. ما إن وصل إلى المكتب ـ آتياً من البيت متأخراً عن عادته ـ حتى باغته الهاتف.

حين استجمع أنفاسه سألها من أخبرها هذه الأشياء، مع من كانت تتكلم؟

قالت إميلي إن صاحبتها أنطوانيت ـ أنت تعرفها، أنطوانيت فياض، كانت معنا ـ صاحبتها أنطوانيت اتصلت بها اليوم، اتصلت بها وأيقظتها من النوم وطلبت منها المساعدة لأن الحرب قد تبدأ في أي دقيقة: تريد أن تترك بيروت الآن، تريد أن تأتي إلى باريس، وسألتها هل تستطيع أن تقيم عندها حتى تدبر عملاً وبيتاً.

ضحك سمعان يارد:

ـ وماذا قلتِ لها؟

إميلي سمعت ضحكته ولم تعلم ماذا تقول.

ـ اسمعي، قال سمعان شاعراً بثقلٍ على صدره.

قال إنه لا يتذكر في هذه اللحظة من هي بالضبط أنطوانيت، لا يقدر أن يربط الاسم بوجهٍ، لكن هذا غير مهم. المهم أن صاحبتها نصف خوتاء نصف انتهازية. الجو متوتر في البلد، فهمنا، لكن لا تصدقي كل ما تسمعين يا إميلي. أنت لبنانية قبل أن تكوني فرنسية. نسيتِ كيف نحكي؟ قبل شهور، في آذار، قلنا ستقع الحرب، شيعة ضد سنّة ودروز ومسيحيين. أول الصيف، بعد الانتخابات، قلنا ستقع الحرب مثل الـ 75: شيعة وسنّة ودروز ضد مسيحيين. قبل أيام جادل جنبلاط السنيورة، قلنا ستقع الحرب: شيعة ودروز ضد سنّة ومسيحيين. والآن صاحبتك أنطوانيت تريد أن تفلت المخيمات على بيروت لتسافر وتسوح في فرنسا... تكون مريضة عصبياً. لا تصدقي كلامها يا أختي. تكون بلا عقل.

قالت إميلي إنها فعلاً بلا عقل.

وسمعان قال إن نصف أهالي بيروت هذه الأيام هكذا، يشترون مهدئات الأعصاب ومضادات الاكتئاب بالكيلو. لا أحد سعيد هذه الفترة غير أصحاب الصيدليات. لكن ماذا نفعل، فترة حرجة وتنقضي.

وإميلي قالت إنها سترسل له e-mail.

حظه حسن أن يارا جاءت. نظر إليها تأكل «الصيني» وأراد أن يخبرها قصة أنطوانيت والمخيمات والتلفون. لم يخبرها. تأملها تأكل وتركها تحكي. وهو ينظر ويسمع.

تناولا حلوى صينية بعد الطعام. في القصعة الخزف لمعت

حبّات الخوخ المجفف الملوح على النار. تحتها طبقة صفراء من عجينة الرزّ. تأمل الإسوارة الرفيعة تلف معصمها. والعود الذي يأتي ويذهب. هواء المكيف ليس قوياً وليس ضعيفاً. المكان هادئ. والتوتر كلّه ذهب عنه. أي توتر؟ إنه ينظر إليها ويشعر براحة لانهائية. نسي تلفونات الصباح.

سألته ماذا يعتقد هو، ماذا سيكتب ميليس في تقريره، هل سيكشف الحقيقة؟

قال إن ميليس أمام طريقين: 1 ـ يكشف الحقيقة. 2 ـ لا يكشف الحقيقة.

ـ لا ، فعلاً ماذا تظن؟ ماذا تسمع؟ صاحبك الذي يشتغل في الجرايد ماذا يقول لك؟

ـ يقول مثل كل الناس. يقول الأشياء وعكسها. لا أحد يعلم ماذا ستقول لجنة التحقيق حتى تقول لجنة التحقيق ما ستقوله. المفروض ألا يختلف كلامها كثيراً عن لجنة التقصي التي جاءت قبلها. فيتزجيرالد من الأمم المتحدة. وميليس من الأمم المتحدة. المشكلة ليست ما سيقوله التقرير. المشكلة ماذا سيحدث لنا بعد ذلك.

ابتسمت يارا وقالت إنها لا تشعر بالخوف. أهلها يشعرون بالخوف. وأصحابها وصاحباتها يشعرون بالخوف. كل من معها في العمل يشعر بالخوف. لحظة يشعرون بالفرح والسعادة. ولحظة يشعرون بالقلق والخوف. حتى إذا لم يقولوا ذلك دائماً. وهم يقولون. لكن حتى إذا لم يقولوا تعرف أنهم خائفون. التوتر يظهر. لا يمكنك أن تخفيه. من حركة أجسامهم تعرف. من ثيابهم وشعرهم. من نبرة الصوت. من أسلوبهم في الحديث وتبادل التحية.

مرات تراهم يُكلمون البنغلادشية في ممر الحمام، ويضحكون معها. متى كانوا يكلمونها من قبل؟

قالت يارا إنها لا تشعر بالخوف. لكنها تشعر بارتباك غريب أحياناً. كأنها نائمة. أو كأنها ممثلة بفيلم. ابتسمت مرة أخرى وأمالت رأسها. قالت إن هذا يشبه الروايات البوليسية.

ـ هناك مجرم. وهناك محقق يدور ويبحث عن أدلة. يوقف مشبوهين ويفحص الأرض وبقايا الضحايا. يغطس في البحر مع الغطّاسين ويُخرج قطعاً من السيارات المتفجرة. يجمع الخيوط والشهادات والإتهامات ويقارن. يكشف الحسابات المصرفية ويحلل ويستنتج. ثم يكتب تقريراً بكل ما عثر عليه. وإذا كان التقرير كاملاً يكتب لنا في نهاية التقرير اسم المجرم.

«أثار ظهور جرذ كبير الحجم في مطبخ منزلٍ ذعراً في حي برج حمود الواقع في الجزء الشرقي من العاصمة اللبنانية بيروت. وقالت ريتا نركيزيان المقيمة في الحيّ إن حالة من الرعب ما زالت تخيم على العائلات. وكانت ربة منزل عائدة من السوق فتحت باب بيتها ودخلت فشعرت بالخوف عندما سمعت حركة في المطبخ. وقالت فيكي شحروري إنها تقدمت فرأت حيواناً رمادياً مثل الكلب يتحرك لصق البراد وعندما انتبهت أنه جرذ رفعت صوتها تطلب النجدة. وقال جارها في الطبقة نفسها من البناية نعوم كوكجيان إنه ركض عند سماع الصوت ودخل البيت المفتوح ورأى الجرذ يتسلق الطاولة ثم يخرج من النافذة. وقال عامل في محل أدوات كهربائية في الشارع نفسه إنه رفع رأسه عند سماع الصرخات ورأى شيئاً كالبقعة السوداء على الحائط وقال إن البقعة الغريبة زحفت نزولاً واختفت وراء أحد البيوت المسقوفة بالتنك. وتجمع عدد كبير من سكان الحي وطاردوا الجرذ لكن الجرذ اختفى في مجرور واسع الفوهة عند حدود مكب مقفل للنفايات. ولما كان المكب المغطى بالأتربة مقفلاً ومسوراً بالأسلاك والحيطان عجز السكان عن الدخول. وقالت شاهدة عيان إن الجرذ كان بحجم حمار صغير وأظافره طويلة. وروت هيلدا مانوكيان الخياطة صاحبة دكان الخياطة في الطابق السفلي من البناية

المذكورة أنها كانت تهمّ بالخروج لتسليم فستان عندما رأت الجرذ يزحف على الطريق ثم يختفي وقالت إنها أرادت أن تصرخ فلم تقدر أن تصرخ كأن في فمها شيئاً. وقالت إحدى زبونات المحل إن الجرذ كان بني اللون وشعره كالقطط وإنه جرذ بعين واحدة. لكن الشهود قالوا إنه كان جرذاً عادياً بعينين، وكل ما في الأمر أنه ضخم الحجم وأسرع بقليل من الجرذان العادية. ويُعتقد أن الجرذ يقيم في بطن جبل الزبالة الذي يفصل هذا الحيّ السكاني الشديد الكثافة عن البحر، ومعروف أن أكوام الزبالة التي تُسمّى «جبل برج حمود» هي مكب للنفايات استُحدث في فترة الحرب اللبنانية الطويلة التي بدأت سنة 1975 واستمرت 15 سنة ووقع ضحيتها نحو مئة وخمسين ألف شخص وانتهت باتفاق الطائف الذي عُقد في مدينة الطائف في السعودية.

ويغلب على حي برج حمود طابع الحيّ الأرمني الصناعي، فغالبية سكانه من الأرمن العاملين في الحِرف اليدوية ومهن الصناعة، وبعض أزقته بالغ الفقر. والأرمن يسكنون بيروت منذ 1915 تاريخ نزوحهم من أرمينيا هرباً من المذبحة التركية والإبادة الجماعية التي طالت نحو مليون أرمني. وهم اندمجوا في المجتمع اللبناني ومع ذلك يحفظون لغتهم ويُعلمون أولادهم في مدارس خاصة كما في البيوت. وقالت الشرطة اللبنانية إن دورية راجلة قامت بدخول المكب وتفحص الأرض ولم تجد أثراً للجرذ العملاق. وقال مديرٌ في شركة سوكلين المسؤولة عن جمع النفايات في المدينة إن الجرذان ظاهرة تكاثرت حول المكب مع إقفاله قبل سنوات لكن تسميم الجرذان إضافة إلى رش المنطقة بالمبيدات قضى على هذه الآفة. وذكر مصدر في الشركة المشرفة على تأهيل المكب ومعالجة نفاياته إن المكب خالٍ من الفئران والجرذان عموماً وإن ما حدث

ليس إلا حادثة منفردة وأكّد أن المكب يُزرع الآن عشباً وجميع غازاته السامة باتت تُعالج بأحدث التقنيات وفيه أجهزة لقياس الحرارة والبرودة وتسارع التحلل إلخ. . . لكن السكان أكدوا أن الغازات والروائح الكريهة تنبعث من المكب كل صيف. وتنقل الصحف المحلية أخباراً عن انتشار الربو والحساسية وأمراض العيون بين الأطفال في الجوار وكذلك بين البالغين ويعاني العجائز من ضيق في التنفس عند النوم. ولكن هذه المرة الأولى التي يظهر فيها جرذ عملاق ويثير الذعر بين البيوت. ويُعتقد أن الجرذ يتغذى من نفايات المكب ولكن أيضاً من بقايا ذبائح المسلخ القريب في منطقة الكرنتينا. ويعاني المسلخ المذكور الذي يُمون متاجر بيروت بالقسم الأعظم من اللحوم من غياب المعالجة المتطورة لجلود الذبائح وأقدامها وبقايا أحشائها. فهي لا تعالج كيماوياً ولا تُدفن. ويُمكن مشاهدة جبال سوداء من الذباب والبرغش وحشرات أخرى تحوم على بقايا المسلخ عند ضفة نهر بيروت. ونقلت صحيفة «النهار» أن النهر يهدد بيوت المنطقة بطوفان من النفايات مع اقتراب موسم الأمطار وارتفاع منسوبه. وأوردت صحيفة «السفير» اللبنانية نقلاً عن مصادر في «وزارة الصحة» رغبة الحكومة في الاستعانة بخبراء أجانب لتطويق هذه المشكلة وحماية سكان المناطق المجاورة للنهر من طوفان الزبالة. يُذكر أن لجنة تحقيق دولية يقودها القاضي الألماني ديتليف ميليس موجودة في بيروت في هذه الأثناء للتحقيق بجريمة اغتيال رئيس الوزراء اللبناني الأسبق رفيق الحريري الذي قضى مع عشرين آخرين في انفجار استهدف موكبه في منطقة الواجهة البحرية في الجزء الغربي من بيروت يوم 14شباط (فبراير) الفائت.»

لم ينتهِ يوم الهواتف بعد. كان يقفل الكومبيوتر ويستعد للخروج عندما رنّ التلفون. التقط السماعة متردداً فسمع صوتاً يعرفه ولا يعرفه.

ـ أنا التي كنت ترقص معها.

بقي ساكتاً لحظة. ثم مرّر إصبعه على حاجبه.

ـ وجهكِ تغيَّر عليّ.

هذا اتصال غير متوقع. لم يتوقع أن تتصل به. لماذا تتصل به؟ كأنه ينتظر جواباً على أفكاره. سمعها تضحك ضحكة عصبية ثم تقطع ضحكتها.

ـ هل ستسهر في المكان ذاته الليلة؟

قال إنه لا يسهر كل ليلة.

ـ معك رقم هاتفي، قالت. ثم أقفلت الخط.

عنده موعد الليلة. مع سيسليا. قال لها أن تنسى أمر العشاء. سيأخذ معه شيئاً عن الطريق. أو يطلبان Delivery. الجو حار. الخريف حلّ يومين ثم تراجع. الصيف يحرق بيروت من جديد. قال نطلب طعاماً ولا حاجة للوقوف أمام الغاز في المطبخ. قالت إنها تريد أن تستشيره بشأن عملها. تفكّر أن تترك عملها. هناك وظيفة قد

تكون مناسبة في المونوبري. سألها «وظيفة ماذا؟» قالت «نتكلم على العشاء». قال «على العشاء».

خرج من البناية إلى دروب مضاءة بمصابيح الكهرباء. بينما يعبر ساحة الإيتوال ناظراً إلى جنود على رصيف مجلس النواب ارتعش الخليوي في جيبه. جهاز فضي ياباني أصغر من راحة يد، أزرق الشاشة، خفيف الوزن. الحضارة الحديثة. قال روجيه:

ـ نلتقي الليلة؟

أخبره أنه مشغول. ولكن إذا انتهى باكراً يكلمه. قال روجيه:

ـ انتبه إلى ظهرك.

ـ Toi aussi

صاعداً في شارع المعرض تأمل طاولات المطاعم المنحسرة. البلدية أجبرت المطاعم والمقاهي على حصر عدد طاولاتها على الطريق. يحق لكل مطعم بعددٍ محدد من الطاولات. الانتشار العشوائي ممنوع. لكلٍ بحسب رخصته. المطعم الذي يدفع ضريبة خمسين كرسياً لا يحق له أن ينشر مئة كرسي على الرصيف. سمعان رأى عمال البلدية يركزون حواجز الحديد والزجاج عند حدود المساحة المسموحة بها أمام كل مطعم. ورأى الغضب في الوجوه. أصحاب المطاعم رفعوا لافتات. انتظموا في صفوف. ثم تبعثروا. لم يهتفوا على صوتٍ عالٍ. متى كان ذلك؟ في بدايات آذار؟ في نيسان؟

صاعداً شارع المعرض يتأمل الروَّاد المبعثرين على الطاولات هنا وهناك فكَّر أن الوسط فارغ مقارنة بالسنة الماضية. 2005 ليست 2004. أثناء صيف 2004 امتلأت بيروت بالسياح العرب والأجانب. بن لادن سدّ باب الغرب بالحجارة أمام الخليجيين،

وأهالي الخليج توافدوا بعشرات الألوف إلى بيروت. بمئات الألوف. امتلأت الفنادق. لم تبقَ شقة فارغة في المدينة. المطاعم تعجّ بالناس ليلاً نهاراً. شط البحر لا يُرى رمله تحت الأقدام. طرقات الجبل تزدحم بالسيارات عند الصباح وعند الأصيل وعند المساء. وكالات تأجير السيارات اشترت السيارات في مرفأ صور وأوصت على سيارات جديدة من وراء البحر. مهرجانات تطوف القرى. رقص وغناء. مال وازدهار. برمانا قفير نحل طنان. ملاهي المعاملتين والكسليك ومونو لا تنام. شارع المعرض عند الثالثة بعد نصف الليل كأنه ساحة الحشر. ميدان قيامة. ساعة البرلمان مدورة كالقمر. الدخان يتعالى من الأراجيل ويغلف الساعة بهالة. كالساهور حول قرص القمر. ضحك وضجيج وروائح. عطور وغمزات وبسمات. شاب يكبس فتاة على الحائط أمام «سياتل كافيه». تغير اسم المكان الآن إلى «مسايا البلد». المطاعم تُغيِّر أسماءها مع المواسم. هذا غير حسن. هكذا تضيع المعالم. عليهم أن يحفروا الاسم القديم على العتبة. لكن من يهتم؟ لا أحد يهتم. لماذا بقي مشهد ذلك الشاب في رأسه؟ مرّت سنة! ثم تذكر سمعان أنه لم يرَ المنظر. أحد الأصدقاء كان يروي ما رآه. لهجة الصديق حفرت الصورة في رأسه. جنب الجامع، كان يقول، على حائط الجامع، هي لبنانية، هو غير لبناني.

لمس سمعان يارد ياقة قميصه ثم شمّ إصبعه. رائحة عطره: «كاشاريل». ورائحة المضاد للعرق. ورائحة القماش. روائح ممزوجة في رائحة واحدة أليفة. لم يجد أثراً لعطر يارا: «جادور». مع أنه ما زال يحسّ عناقها القوي في كامل جذعه.

ركنت سيارتها في جوف الأرض تحت «نوافير البلدية». مشيا جنباً إلى جنب من المطعم الصيني طلوعاً في «فوش» إلى أمام

البلدية. لحظة الخروج من المطعم، وهي تشكره على الغذاء، استندت إليه وتأبطت ذراعه. بدت متعثرة الخطوة. مع أنهما لم يشربا نبيذاً. فكّر أنه الكعب العالي. ثقلها الحلو على ذراعه. الهمسة في أذنه. وعطرها. هذه عادتها كلّما غادرا مطعماً. لكنها بعد خطوات وضعت إصبعاً ـ مسافة إصبع ـ بين جسمها وجسمه. أمام متجر Timberland توقفت لحظة وأشارت إلى أشياء في الواجهة. حركة عابرة. ثم تابعا الطريق. هما وانعكاسهما في زجاج المتجر.

بينما ينتظران عند مدخل الموقف مجيء سيارتها بدت منزعجة. لم يعرف لماذا. بان الرانج الأخضر طالعاً من بطن الأرض. توقف أمامها. نزل موظف الموقف وبقي ممسكاً بالباب المفتوح. عانقته عندئذٍ بغتة. سمعان أحسّ النفس يخرج من صدره. كان عناقاً مفعماً عاطفة. صدرها اقتحم أضلاعه. ثم تراجعت وهي تودعه:

ـ أشعر أنها رحلة طويلة هذه المرة. كأنني مسافرة بلا رجوع. هذا غريب. أشعر أنها رحلة طويلة، طويلة جداً، هذه المرة. سأشتاق إليك سمعان. سأفكِّر فيك.

تسلقت الرانج وهي تمنح العامل ورقة نقدية بلون الليمون الحامض. ثم استقرت وراء المقود. تأخر الشاب اللابس ثياب الموقف أمام باب الرانج. تلكأ وهو يشكرها. ثم انتبه وابتعد من الطريق. بدا وجهها بعيداً فجأة. وهزّت رأسها وهي تنظر إلى تيار السيارات أمام البلدية وتستعد للانطلاق. شارع ويغان غزير التيار.

ـ كوني مهذبة في أمستردام.

الخلوي يرتعش مرة أخرى في جيبه. هذه المرة لم يرد. نظر إلى الرقم ولم يرد.

عَبَرَ أمام «بنك لبنان والمهجر» ثم أمام الرصيف الجديد

المنحدر وراء بنايات المعرض نزولاً إلى الإيتوال. الزبائن في هذا الجانب أيضاً ليسوا كثراً. أنوار كاشفة تضيء أعمدة رومانية تحت الشارع. تيجان رخام منقوشة. عتبات. عشب ينبت بين الحجارة. رأى خرائط هذه الحديقة. والدرب الطويلة المتعرجة بين الآثار. متى تكتمل هذه الحديقة؟ سيتغير المنظر في هذه الناحية عند اكتمالها. هنا كانت «سوق السمك» قبل الحرب. وأمام السوق «بانكا دي روما». السوق كان خلف المصرف. كان يأتي إلى هنا مع أبيه. الآن انتقل المصرف إلى شارع الجامع العمري. بنايته سقطت في الحرب. سقط نصفها. وجرافات سوليدير أزالت النصف الباقي. تحت الركام، بعد أن جُرف الكرام ورُمي في البحر، بانت هذه الأعمدة. كانت الخطة أن ترتفع بنايات هنا. الأعمدة الرومانية غيَّرت الخطة. عنده خرائط التخطيط الأولى. وعنده خرائط التخطيطات اللاحقة المعدلة. ينشرها على مكتبه. تحت النور الأبيض. ويقارن بينها. متاهة الخطوط الزرقاء. وتحتها متاهة أخرى تشبهها ولا تشبهها. يطوي الخرائط ويخرج إلى دروب مضاءة بمصابيح الكهرباء. الرطوبة تشع كالكواكب حول المصابيح العالية. تحت قناطر شارع المعرض. قناطر الانتداب الفرنسي العالية. جده بنى ثلاث بنايات في هذا الشارع. في زمن قديم. جدته قالت إن منافسه الوحيد في بيروت كان يوسف أفتيموس. أفتيموس الذي صمم «بلدية بيروت». فاز بتصميم البلدية لأنه كان صديق المفوض السامي. المفوض السامي كان يأكل عنده كل أحد.

مصابيح السيارات الأمامية توجّ، تبهر عينيه. عابراً الرصيف العريض أمام المطعم أسفل اللعازارية شمّ رائحة خبز مرقوق وشمّ رائحة شيش برك. اللحم والسماق والبصل. العجين يغلي في اللبن. رأى امرأة تلبس الأبيض وتقعد في واجهة المطعم. تعجن وتخبز

على الصاج. ترمي العجينة في الهواء وتتلقاها على ذراعٍ عارية متأملة العابرين خارج الزجاج. تشبه سمكة هذه المرأة، فكّر سمعان يارد.

انعطف عند زاوية الواجهة الزجاج لـ DHL. فتاة سمراء وراء المكتب. على وجهها نمش. سيارات تخرج من الموقف تحت مجمع اللعازارية. انتظر عبورها ثم أكمل طريقه. أنوار الكهرباء ترسم أشكالاً هندسية على القبّة البيضاوية لسينما سيتي بالاس. متى ارتفعت هذه القبّة هنا؟ أواخر الستينات؟ يذكر الحائط تحت القبّة. بعد الحرب هدموا الحائط فبانت الأعمدة وبان الفراغ تحت القبّة. هذا الفراغ يُظهر القبّة معلقة في الفضاء مثل صحنٍ فضائي. أثناء الحرب، في فترة من سكوت القصف بين شطري المدينة، نزل إلى هنا مع أصدقاء فرأى المكان مسكوناً. فقراء ومهجرون من مناطق نائية. لبنانيون وسوريون وفلسطينيون وسودانيون وصوماليون ومصريون. لهجات كثيرة. تحولت السينما مجمعاً سكنياً. رأى سيارات مرسيدس وبيجو مركونة. أكل سندويشة في مطعم تهدم الآن مع بنايته، اندثر، لم يعد موجوداً إلا في رأسه. هل يذكرُ ماذا أكل؟ أكل سندويشة سجق. لعلها أشهى سندويشة سجق في حياته. يذكر الحرارة في السندويشة. البهارات. الثوم. اللحم الفوّاح الرائحة. وورقة الكلينكس تلف السندويشة. «يارد للإستشارات الهندسية والتخطيط» اشتركت أخيراً في مسابقة التصاميم المستقبلية لهذا الجزء من مدينة سوليدير. التصميم البرازيلي كان الأجمل. سمعان يارد سحرته القبّة البيضاوية وقد لبست زجاجاً ومرايا ومعدناً وفضة. برقت الرسوم برقاً. أمام القبّة امتدت الساحة الفارغة البيضاء بين الشارعين المستقيمين وقد تحولت إلى ساحة أخرى: سلالم كهرباء وأشجار غريبة الشكل. متاجر على مستويات مختلفة وممرات رخام ومصابيح

نيون أزرق ونيون بنفسجي ونيون أصفر. المصابيح صُممت خصيصاً لهذه الساحة.

تحت جسر فؤاد شهاب ارتعش الخليوي في جيبه. وقف تحت الجسر واستدار ناظراً إلى قبّة سيتي بالاس ثم إلى اللعازارية والمآذن الأربع لجامع محمد الأمين. النور البرتقالي على القبّة السماوية. الجامع يسيطر على فضاء الساحة. هيكله عملاق ومآذنه متناسقة. في الخلفية تضاءلت بناية «فيرجين». لكن إنارتها واللون الأحمر وحجرها الأبيض، هذه العناصر ما زالت تدفع «فيرجين» إلى الأمام، في الفراغ الكبير أمام المباني، مثل بروز في لوحة.

عبر الفراغ بين المباني يبين جامع السراي (جامع منصور عساف) ويبين مبنى البلدية. المصابيح الكاشفة ترفع مبنى البلدية إلى أعلى، كأنه يغادر سطح الأرض. طرازه العثماني وواجهته العريضة يظهرانه مسطحاً. كأنه صورة. كأنه بناية في شاشة كبيرة. كأنه شاشة. إذا وقفت في شارع «حسين الأحدب» (أمام Second Cup أو أمام Etoile Suites) ونظرت إلى مبنى البلدية تحسّ أنك تنظر إلى صورة. النوافذ. الطبقات الثلاث. السور بمثلثاته ومسنناته عند حافة السطح. هذه الهندسة السيمترية. هذا الحجر الأصفر الصقيل. جده أيضاً اعترف ليوسف أفتيموس بالبراعة. لم يتصادقا. لكن أحدهما احترم الآخر. جدته قالت إن هذا لم يعد شائعاً في هذه الأيام. الاحترام لم يعد شائعاً.

البناية الزجاج ـ بعد البناية الخضراء القبّة، وراء «فيرجين» ـ باتت حافة الساحة. لم تكتمل إلا قبل سنة. عالية. زرقاء. مدخلها مرتفع يضاعف الإحساس بعلوها. من هنا لا يرى البركة.

هذا رقم لا يعرفه. يرد أم لا يرد؟ تأمل أنوار الكهرباء على

القبّة الخضراء. هذه كانت الأوبرا. في هذه السينما شاهد أفلاماً لا تُعد قبل سنوات طويلة. كم حياة يعيش الواحد في حياة واحدة؟ بعد الحرب تسلق تلّاً من التراب والعشب والأخشاب المحطمة والحديد، فرأى ـ في الداخل ـ الصالة محروقة. المقاعد شبه متفحمة. الحيطان اسودّت. لكن ظهور المقاعد لم تتحطم. سوداء، مربعة، متراصفة صفاً وراء صف، عليها خطوط بيضاء مثل شمع سائل. بدت شواهد في مقبرة. رفّ سرب حمام وطار من وراء صف المقاعد الأخير. طارت الحمائم. خفقت في الهواء الراكد خارجة عبر نوافذ محطمة الزجاج. نور الشمس كان أبيض باهراً. الحمائم بدت محروقة، فحمية اللون، فحمية المادة.

سكت رنين الهاتف.

ـ اسمعْ يا سمعان. أطلبك ولا ترد. تنظر إلى رقمي ولا تعرف الرقم ولا ترد. أطلبك من هذا الجانب. من حيث لا يطلب أحد شيئاً. نطلب ولا نطلب. نطلب أقل مما كنا نطلب من قبل. هنا أحسن.

أطلبك ولا ترد. أريد أن أخبرك أشياء. عندي أشياء كثيرة أقولها. ومرات أقولها. ومرات لأنني أعجز عن قولها، مرات لأنني لا أقولها، مرات يا سمعان أقعد وأكتبها على الورق. أكتب وأكتب وأكتب. في البدء كنت أكتب بصعوبة. تعلمت رويداً رويداً. ببطء تعلمت. لكنني تعلمت. على مهل يأتي الفهم. وصرت أعرف ماذا أكتب وماذا لا أكتب. صرت أكتب وأكتب وأكتب. لست وحدي من يفعل هذا. لكن بينما أكتب أكون وحدي. هناك أشياء أريد أن أقولها. أشياء أريد أن أقولها لي. وأشياء أريد أن أقولها لك. لست وحدي. وأنت لست وحدك. لكننا مرات لا نعلم هذا. في معظم الأحيان لا نعلم. في معظم الأحيان الواحد يحسب نفسه وحيداً. ليس وحده. لكنه يظن أنه وحده. ولأنه يظن نفسه وحده، يصير وحده.

أطلبك ولا ترد. تنظر إلى الرقم ولا تعرفه ولا تردّ. ومرات تستغرب الرقم. عليك أن ترى ثمانية أرقام. إذا كان الاتصال داخل

البلد ترى ثمانية أرقام. إذا كان الاتصال دولياً ترى أكثر. لكن ما تستغربه هو أن تنظر إلى الشاشة الزرقاء الدقيقة وترى رقمين أو ثلاثة أرقام أو رقماً واحداً فحسب! ما هذا؟ لا يمكن أن يتعطل هذا الخلوي الياباني الجديد، تفكر. وقبل أن تنتقل بفكرتك إلى عتبة جديدة ينقطع الرنين. تقول الرقم غلط، أو هناك تشابك في الخطوط، وتفكر أنك ستتصل بالشركة وتسأل، لكنك لا تتصل ولا تسأل، لأنك لا تلبث أن تنسى، ثم أنك لا تهتم.

أطلبك ولا تردّ. أريد أن أسألك لماذا لا تهتم. تنظر إلى الرقم. ثمانية أرقام، لكنك لا تعرف الرمز المزدوج في البداية، الخلوي رمزه صفر ثلاثة، بيروت رمزها صفر واحد، صيدا رمزها صفر سبعة، جونيه رمزها صفر تسعة، الجبل رمزه صفر خمسة، وبعد الرمز المزدوج يأتيك رقم التلفون الذي يتصل. لكنك مع هذا الرمز تتحير، من أين يتصل هذا الشخص، من يكون، ولماذا يتصل؟ تتحير لحظة شارداً، تنظر إلى القبّة الخضراء، هناك حيث كانت السينما، هناك حيث الأفلام والبوشار والهمسات وعصير البرتقال وقناني الكراش وألواح الشوكولا المغلفة بالورق الفضة، تنظر إلى القبّة وتعرف أن البناية ليست «سينما أوبرا» الآن، البناية تحوي شركة تأمين، على الحائط لوح رخام يحمل تاريخ ارتفاع المبنى، يحمل تاريخ ترميم أيضاً، لكن البناية ليست سينما، كانت من قبل سينما، وعلى اللوح الرخام كتبوا أسماء المالكين القدامى والجدد، ولم يكتبوا أنها كانت سينما.

أطلبك ولا ترد. تتحير أمام الرقم لحظة ثم يسكت رنين الهاتف. وتنسى أنه رنّ. يرنّ الهاتف كثيراً في حياة الإنسان. فهل يهتم كلّما رنّ مرة؟ ماذا يحدث إذا لم تردّ؟ هل تذكر مرة ردّدت فيها التلفون وتغيّرت أشياء؟ لا تردّ. أطلبك وتنظر ولا تردّ، كأنك لا

تبالي. لماذا لا تبالي؟ لا أحكي عن الهاتف فقط. هذا مفهوم الآن. أحكي عن أشياء كثيرة.

أريد أن أحكي معك. هل تعلم أنني أريد أن أحكي معك؟ لكن كيف تعلم؟ أنا أقول في سرّي أنك تعلم. وأنت تكتب تكتشف عن العالم أشياء لم تعرفها من قبل. حين صرت أكتب كتابة سريعة شعرت بالقوة. ثم تبدّد هذا الشعور. أردت أن أمزق ما كتبت. في البدء كنت بطيئة. بعد ذلك زادت سرعتي. وحين ظننت أنني جيدة الآن، اكتشفت أنني سيئة. فلم أعد أكتب. على مهل يأتي الفهم. ورجعت أكتب. مرّات بطيئاً. مرات سريعاً. لكنني الآن صرت أكتب وأشعر بالفرح. ليس الفرح تماماً. أشعر أن ما أكتبه ضروري أن أكتبه. الأوراق القديمة أردت تمزيقها. قالوا ممنوع. كل الأوراق تُحفظ في الأرشيف. ممنوع تمزيق الأوراق. هذا قانون. لا يهم. لا أفكّر في تلك الأوراق الآن. صرت أكتب ما يجب أن أكتبه ولا أرتاح وأتوازن إلا إذا كتبت. لست وحدي. لكنني وأنا أكتب أكون وحدي.

اسمع يا سمعان. عندي أشياء ضروري أن أقولها لك. لا أطلب رقمك لأنني أنا وحدي أريد ذلك. أطلب رقمك لأنك أنت أيضاً تريدني أن أطلبك. لا تعرف هذا بوضوح. لكن هذا ما تريد. وعندي أشياء أقولها لك. ما هذه الحياة الفارغة التي تعيشها يا سمعان؟ لماذا لا تصنع بأيامك شيئاً؟ حسنٌ أنك تمشي في الشوارع وتحفظ البنايات والسماء وكيف تتغيّر. حسنٌ أنك تعتني بوزنك وتسبح ولا تترك الشحم يترهل على عضلاتك. هذا حسن. لكن غير حسن أنك تفسد وقتك بالجرايد وبمطاردة التنانير بلا خطة. كم واحدة عرفت؟ ماذا نفعك هذا؟ لماذا لا تفتح كتاباً وتقرأ شيئاً يفيدك؟ الإنسان عليه أن يتطور. هذه مهمته. أن يصير أجمل. أن

يصير أفضل. أن يصير أحسن فأحسن. وأنت ماذا تعمل؟ غير إضاعة الوقت على جرايد وعشاء ونساء ماذا تعمل؟ تشرب كالجمل العطشان ولا تهتم بشغلٍ ولا تقرأ. كأنك لا تبالي.

لعل الخطأ ليس منك. لعلك ولدت في ساعة نحس. المدينة تحيا وقتاً ثم تتساقط. البيت يحيا عقوداً ثم يقع. المدينة تقع كذلك. مشكلتك أنك مولود في لحظة سيقع فيها البيت. الحيّ الأرستقراطي يترنح. ضربات الزمن عنيفة. العجائز تنحني. عظام وعكاكيز. جلد تغزوه التجاعيد. «عبد الوهاب» من أوله إلى آخره بيوت تعجّ عجائز. رؤوس يُتوِّجها شعر أبيض. سيارات فخمة مركونة في الكاراجات لا تتحرك. وكلاب صغيرة تنبح مثل القطط. كلاب بشهادات ميلاد. لا تأكل إلا من العلب المختومة. وتأكل قليلاً. تُجلب إلى بيروت من وراء البحر.

وُلدت في لحظة سوء. البيت الأرستقراطي العتيق. والحيّ الأرستقراطي. المدينة غير أرستقراطية. لكنها هي أيضاً تقطع وقتاً أسود. الخطأ ليس فيك، الخطأ في الساعة. كيف تعثر على قصة لحياتك، كيف تكتب قصة لحياتك، وأنت في هذه المدينة في هذه الساعة؟ بيروت معلقة تنتظر ما لا تعرفه، وأنت معلق. «أين قصة حياته؟» نقول. أين قصته؟ إنه نقطة في بحر. بيروت ذات المليون ونصف المليون نسمة، بيروت سفينة. سفينة في بحر. والبحر قد ينقلب في أي لحظة. موقعها هو الخطأ. الخطأ ليس فيها. الخطأ ليس فيك، وليس فيها. الخطأ في الموقع. والخطأ في الساعة. ثم عندك فالق الأناضول واحتمال وقوع الزلزال الموعود في أي لحظة الآن. منذ سنوات وهذا وارد. الطبقات تحت القشرة الأرضية تتحرك. إذا انزلقت شريحة عملاقة على شريحة عملاقة تتحرك الأرض. تنشق الشوارع. تغور مدن. البحر يفور. يرتد ثم يهجم.

كل هذه البيوت، كل هذه البنايات، كل هذه الحدائق، كل هذا ينتهي في ساعة. فالق الأناضول يمتد من اسطنبول إلى بيروت. أكثر؟ هذا يكفي. احتمال وارد. أي لحظة الآن. الزلزال. وبعده الطوفان.

اسمع يا سمعان. أطلبك ولا ترد. أريد أن أتكلم معك. وأريد أن أسمع صوتك. أعلم أنك تريد هذا مثلي. تريده ولا تريده. مقسوم على نفسك. منذ سنوات هكذا، لا تبالي. ولا تهتم. مقسوم نصفين. ولا تعلم. أطلبك ولا ترد. ولو أنك ترد هل كنت أحكي؟ هل أفتح فمي؟ هل أمنع نفسي؟ وإذا تكلمت هل تسمعني؟ أنت لست في هذا الجانب. وأنا لست عندك. أراك ولا ألمسك. إذا كنت نائماً ألمس رأسك.

لا أريد أن أخبرك عن فالق الأناضول. ليس هذا كلامي. هذا من كلامي لكنه ليس كلامي. أنظر إليك وأراك تقرأ الجرايد وتقارن بين الأخبار وتحاول أن تفهم. تحاول أن ترى ما سيحدث. تتذكر أنك رأيت الرجل قاعداً على رصيف الإيتوال أكثر من مرة. تتذكر أنك رأيته في الداخل قاعداً مرة مع ناس تعرف وجوههم. الموكب الذي انفجر أمام فندق فينيسيا، بعد الفندق، أنت رأيته ينطلق من هنا، من هذه الساحة. الساحة جنب المكتب. تقف هنا وتنظر إلى الجنود ورجال الدرك وحرس البرلمان وتنظر إلى الحمائم. تنظر إلى الموكب وتراه يبتعد ولا تعرف بعد أن هذا الموكب سينفجر بعد لحظة، بعد لحظتين، أقل أو أكثر، ماذا يُغير؟ الموكب ينفجر والسيارات تحترق وسيارة يقذفها الانفجار عبر حائط وتغرق في قعر البحر. الموكب ينفجر وهوة سوداء تبيّن في الطريق والمدينة تقع في الهوة. المدينة تقع والبلاد تقع. المدينة لا تقع والبلاد لا تقع. تنظر إلى الجرايد وتنظر إلى التلفزيون وتنظر إلى العمارات وتنظر إلى نوافير البلدية.

ماذا ترى وأنت تنظر؟ هل تنظر أصلاً؟ الكحول في دمك وصباحك مربوط بليلك ولا تصنع طعامك. لماذا لا تشتري اللحم والخضر والألبان والأجبان وتمضي إلى البيت وتطبخ طعامك؟ لماذا لا تأكل غير أكل المطاعم؟ إذا أكلت في البيت أكلت طبخاً طبخته صاحباتك. إذا كنت وحدك طلبت من مطعمٍ أو فرنٍ طعاماً. لا تعمل طعامك ولا تهتم. مشطور نصفين ولا تدري أنك كذلك.

اسمعْ يا سمعان. أطلبك ولا ترد. أراك واقفاً على خط التماس، تحت جسر فؤاد شهاب، تنظر إلى عمارات مرممة. تتذكر أموراً قديمة ولا تتذكر. تقف في الليل. السيارات تعبر، والمدينة تشتعل بالكهرباء. السيارات تركض. أراك وأعرف أنك تطلب أن أطلبك ولا تطلب. تريد ولا تريد. حائر ومعلق. أنظر وأتخيل أنك حائر ومعلق. ولعلني أنا الحائرة. لكن كيف هذا؟ الكلام صعب. الكتابة أصعب. في المرة الأولى لا نفهم. لكن بعد وقت...

سمعان عنده ساعتان قبل الموعد مع سيسليا. يستحم ويلبس ثياباً خفيفة ثم يفتح باب الكاراج وراء البيت ويرفع زرّ الكهرباء. النور الأبيض يشع ويلمع على الدودج الحمراء البارقة. سيارة موديل 1972 تبدو كأنها خرجت من المصنع في أميركا قبل ساعة. كأنهم أتوا بها إلى هنا ملفوفة بالنايلون. لا يُرى خمش على الطلاء. فرشها أبيض. جلد أبيض كالقطن. التابلو خشب ثمين مشبع بالكروم يتلألأ كالجواهر. المقود مفضض. تقعد فيها كأنك قاعد في صالون. لم تعد هذه السيارات تصنع.

يبقى في السيارة ربع ساعة. صوت المحرك صافٍ. مثل خرير جدول. مثل تغريد ساقية. صوت هذا المحرك موسيقى. ربع ساعة لتبقى البطارية صالحة. لا تخرج هذه السيارة من الكاراج كثيراً. تخرج. لكن ليس كثيراً. في نزهات إلى خارج بيروت تخرج. لكن ليس كثيراً. ومرات يُخرجها ليلاً. تكون الزحمة مقبولة ويُخرجها من الكاراج ويسوق إلى خارج المدينة ساعات في بطن الليل ثم يرجع.

أطفأ المحرك. أطفأ زرّ الكهرباء. أقفل الكاراج بالقفل. أخذ من البيت الهاتف الخليوي وخرج. أراد أن يسير على مهل. لا يريد الوصول إلى سيسليا بسرعة. يأخذ معه طعاماً عن الطريق؟ أم يؤجل مسألة الطعام الآن؟ يفعل الأسهل: Delivery.

عاملات «جمهورية الخبز» يقعدن على الحافة أمام الفرن. لباس أبيض ووجوه تتشابه. كأنهن أخوات. يدخنَّ السجائر والدخان يرتفع فوق الرؤوس، فوق القبعات والشعر الظاهر من تحت القبعات، أسود أو أشقر أو أحمر. الدخان على الواجهة. داخل الزجاج المضاء، على الرفوف، أرغفة خبز. أشكال مختلفة وألوان. طحين أبيض منثور على الأرغفة. النور يخرج من الداخل قوياً. ينطرح على الرصيف ووسط الشارع. المصابيح على الأعمدة العالية مطفأة. عطل كهربائي على الأرجح. أو لعله تقنين غير معلن. خطر له أن يدخل ويحمل بعض الأرغفة المدوّرة القاتمة اللون المزينة بأعشاب يابسة وزيتون أسود، هدية إلى سيسليا. ثم فكَّر أنه سيأخذ شيئاً آخر. الطريق في أولها. والخبز حار. لا يريد أن يعرق.

أمام محل الطيور والسمك رأى ببغاء ملونة تصيح في القفص وتنادي. لماذا تنادي؟ من سيخرجها؟ أم هذا أسلوبها في الزقزقة؟ قفص القطط جنبها. قطط بيضاء صغيرة لا تشبه القطط. وتحته قفص مملوء فئران هامستر. شابان يتساعدان على نقل الأقفاص إلى الداخل. أحواض السمك مضاءة في الواجهة. سمكات ملونة تسبح وراء الزجاج. دكان الخضر المتاخم يدخل بضاعته ويقفل أيضاً. تحت الجميزات بانت الوطاويط. ساعة الغسق كساعات الصباح. إذا مرّ من هنا صباحاً يرى الوطاويط تخرج من الجميزات ثم تختفي فيها. هل تحيا في الأشجار؟ المكان مظلم هنا. بعد المنعطف رجع نور الكهرباء. مصابيح لا تعد. وزحمة سيارات. وشباب وشابات يحملن رايات وشموعاً. تجمع أمام بناية «لا روز». غيَّر طريقه. صعد في «مفرق عبد الوهاب» ثم انعطف يساراً في «شارع البارودي» ثم انعطف يساراً مرة أخرى. الصدف أوصلته إلى باتيسري البريستول. دخل واشترى دزينة جاتوه. يعرف ماذا تحبّ سيسليا.

اشترى قطعاً تحبّها. البندق المطحون. الكريما. الشوكولا بلا فاكهة. القهوة. نكهات سيسليا.

هذه الرطوبة في الجو. ألن ينتهي هذا الصيف؟ صيف بيروت طويل بلا نهاية. البرغش يفقس من بيوضه مرة أخرى. رأى دركاً يتفحصون سيارة داتسون زرقاء مركونة أمام «فيلا مكسيكو». رأى سيدة تخرج من «المونوبري» محملة بأكياس ثقيلة. أين خادمتها؟ من ثيابها لا تبدو بلا خادمة هذه السيدة. فلماذا تتبضع وحيدة؟

أمام مجمع ABC، على الطريق العريضة المنحدرة، تجمعت السيارات سلسلة. الأبواق تملأ الفضاء ضجيجاً. السير عالق. وجوه غاضبة. ووجوه ضاحكة. صعد على الرصيف ناظراً إلى أعلى، إلى المقهى العالي على شرفة الـ ABC. قبل أن يرفع نظره أعلى ـ إلى السماء ـ ارتعش الخليوي في جيبه. حمل العلبة باليد الأخرى وأخرج الهاتف. هذا الرقم الغريب مرة أخرى! من هذا؟ انقطع الرنين. ردّ. أراد أن يرد ويتكلم. لكن الخط انقطع. لم يبقَ إلا النغمة الحزينة.

أمام مطعم الشاورما، ثم أمام تاكسي فيفا، ثم أمام مطعم الفلافل، هجمت عليه الروائح الطيبة. داخل مكتب التاكسي تجمع سائقون حول لوح خشب فرشوه على مقعدين. سمعان يارد رأى ـ وهو يعبر ـ علبة حمص بالطحينة، وصحناً قُطعت فيه شرائح بندورة جبلية، وصينية من سمك البزري. سمك في هذا الوقت؟ كانوا يشربون عرقاً ويتصرفون بجدية على غير عادة ـ أين الضحك المفرقع؟ ـ ويأكلون بجدية. أحسّ سمعان بألم في صدره. هذا الألم الذي يعود. عليه أن يذهب ويعمل الفحص السنوي. مرض القلب وراثي. الضغط وراثي. السكري وراثي. تولد والأمراض كامنة فيك. عليك أن تعمل الفحص السنوي.

نظر إلى ساعته. يقدر أن يتمشى قليلاً بعد. ساعته من عند «نعوم مزنر». هؤلاء أقاربه. عندهم محل على باب إدريس جنب الـ MEA. ومحل على تقاطع ويغان ـ عبد الملك أسفل مبنى البلدية. الساعات ليست شغلهم الأساس. جد العائلة نعوم مزنر كان أشهر جوهرجي في بيروت أيام زمان. جدة سمعان يارد لأبيه قالت إن ابن مزنر ألبس نساء الخديوي أطقام الذهب. زوجة الخديوي إسماعيل لبست عقود الألماس من أصابع نعوم مزنر.

خرج من المصعد فوجد سيسليا في انتظاره. كانت تقف في مدخل البيت والباب مفتوح تماماً. وجهها ضاحك غارق في نور الكهرباء الأصفر. شعرها أسود، مستقيم وطويل، جمعته على جهة واحدة. رقبتها ناصعة البياض. فستانها بارق السواد، لم يرَه من قبل. بدت طويلة. الكعب العالي. والفستان الطويل. ولون شعرها. شعرها بنيّ. هذه أول مرة تصبغه أسود. قال إنها تبدو امرأة أخرى. ضحكت وهي تجذبه من يده وتتراجع إلى خلف.

سألها هل تريد أن يخرجا؟

قالت لا، ليس الآن.

كانا يضحكان بلا داعٍ. كانت هي تضحك وصار هو يضحك. هذا الضحك العفوي الغامر لا يأتي كثيراً. إذا جاء يحاول أن يغرق فيه. يحبّ أن يغرق في ضحكات سيسليا. بقيت العلبة على الطاولة الصغيرة في الممر. سحبته سيسليا إلى فراشها. أحسّ قلبه يخفق أسرع بينما يعانقها.

ليس الخفقان ما يشغله. بل الخرير. كأنه يسمع خريراً. وهذا الألم الخفيف. لكن الألم لم يلبث أن تراجع. انقلب فوقها. لكنها أبعدته ضاحكة وقامت.

ـ لم تقلْ مبروك.

نزعت الفستان وطرحته على الكرسي ثم ارتمت جنبه. همس شيئاً لم تسمعه. عرفت أنه لا يريد أن يتكلم الآن. تعرفه سيسليا.

وهو يلمس كتفها ويبوس ظهرها شعر أن دقّات قلبه تنتظم كما لم تنتظم منذ سنين. الرغبة تفور فيه، وهذا الشعر الفاحم السواد يبرق. لكنه يشعر بسكينة طيبة. مرمر البشرة. نمش يحفظه. أصابعها على جنبه. الأعضاء تعانق الأعضاء. تتلاحم وتذوب. هذا السلام المفقود من أين يرجع؟ نسيَ العالم. نسي أين قضى هذا النهار وأين قضى نهارات أخرى. نسي يارا والأكل الصيني ونسي العناق العارم العاطفة أمام موقف السيارات عند نوافير البلدية. نسي الدروب التي قطعها من غندور السعد إلى هذه الغرفة. نسي تلفون ماري ونسي تلفون إميلي (أهذا كلّه جرى في يوم واحد؟) ونسي الرنين الذي ينقطع فجأة. غرق في جسم سيسليا ونزل فيها كالساقية ودار حيث لا يدري، يبحث عن وقتٍ أطول، بعض الوقت أيضاً، بعض الوقت فيها، لا يريد أن يخرج من سيسليا الآن، يريد أن يغوص في هذه المرأة، وأن يغوص أبعد فأبعد فأبعد. كل هذا لأنها صبغت شعرها بالأسود؟ كل هذا لأنها وقفت في باب بيتها تنتظره وتتوهج وتنظر إليه، تنظر وعيناها تتسعان وبياض عنقها العاجي يسطع بين شعرها الأسود وشريط فستانها الأسود؟ ألم يعرفها كل هذه الأيام والأسابيع والشهور؟ ألم يقعدا ساعات طويلة أمام التلفزيون، بعد الفراش وقبل الفراش، مثل رجل وامرأة، مثل رجل وزوجته؟ وقت طويل مرّ عليهما وهما يلتقيان ويفترقان فماذا يحدث له هذه الليلة؟ من أين يأتي هذا الشعور الغريب؟

كانت تهمس شيئاً، تقول كلمات وهي تتأوه في أذنه. لم يسمع كلماتها لكنه أحسّ أصابعها تطول، تطول على كتفيه، تقبضان على

عظامه، تتمسكان بجسمه. لماذا تتمسك به؟ أين تقع؟ أين تسقط؟ لم يعرفها تضحك هذا الضحك الغامر إلا في مرات قليلة. تميل إلى السوداوية، سيسليا. لم تعشْ الحياة التي طلبتها. أحبّت رجلاً. والرجل قتلته الحرب. شظية. شظية أصغر من حبّة عدس. لم تؤذه القنبلة التي انفجرت أمام السيارة. كان يخرج من السيارة وانفجرت القنبلة. لم تؤذِ القنبلة بدنه. لكن قطعة حديد أصغر من حبّة حمص ثقبت قلبه.

ماذا تهمس في أذنه الآن؟ سمعان لا يسمع كلمات سيسليا. وهي تسكت. لا يتكلمان الآن. يتداخلان كتمثالي شمع. كاللبلاب الطري يتشابكان. هذه الغرفة، في هذه الساعة، تقع خارج العالم. هذه ليست بيروت.

*

يتهامسان. الصوت لا يعلو الآن. الستائر لا تتحرك. الهواء يدخل من أباجور النافذة، يشعران به، لكن الستائر لا تتحرك.

سألها عن الوظيفة المعروضة عليها. قالت «لم تعد معروضة». سألها ماذا جرى. قالت «أخذت الوظيفة. أنت تنام الآنَ مع مسؤولة المطبخ الجديدة في المونوبري ـ فرع الأشرفية». ضحكت وهي تجذب الشرشف وتغطي بطنها. الهواء يتسرب من الأباجور. ومع الهواء تتسرب أصوات المدينة. سألها متى ستبدأ عملها الجديد. قالت إنها تستطيع أن تبدأ بعد غد. سألها هل هو أفضل من الطبخ في «سبينس»، وكيف سيكون دوامها؟ ضحكت ثم سكتت. فجأة بدت حزينة. كانت تريد أن تقول «لماذا تسأل؟». لكنها سكتت. شعرت بفراغ في صدرها. سمعان يارد هو أيضاً شعر أنه يتجوف.

في المطبخ، بينما يدخنان، صنعت شاياً. سألها ألا تريد أن يخرجا ويأكلا في مطعم؟ قالت إنها كانت تريد لكنها تشعر ببعض التعب وعندها رغبة بالبقاء في البيت. قالت إذا كنت جائعاً نطلب شيئاً، نطلب من «كعكات» أو من Pizza Hut، وإذا أردت أعمل لك شيئاً سريعاً، في البراد خس أيسبرغ وجبنة فتّة وبندورة، أعمل لك سلطة يونانية، وعندي حبق أخضر، أعمل لك سباغيتي، أنت جائع؟

زاده كلامها تعباً. ليست على طبيعتها. ماذا يحدث؟ لكنه هو أيضاً ليس على عادته. تعبا في الفراش. لماذا تعبا في الفراش؟ يتأمل شعرها الأسود، طويلاً ومستقيماً، ويتأمل رخام ظهرها. لماذا

لبست الفستان مرة أخرى إذا كانت لا تريد الخروج؟

قال أنت تحبين «الياباني»، لماذا لا أطلب من MAJI، أو من Sushi Bar.

قالت إنها ستأكل جاتوه وتحتفل بوظيفتها الجديدة معه، لكنه يقدر أن يأكل ما يشاء، هو يقرر عشاءه وهي تطلب له، دائماً هو يدفع، الليلة تريده ضيفاً على مائدتها، هذا ما تريد.

قال إنه مثلها، ليس جائعاً إلى طعام، يفضل الحلوى، يأكل جاتوه مثلها ويشرب شاياً، وقال تعالي.

اقتربت منه لكنها لم تجلس في حضنه. يدها على رأسه، وبقيت واقفة لصقه. أذنه على بطنها الآن. سمع خفقة الدم في جسمها. وطلبت منه أن يطلب شيئاً، أرجوك لا تقل إنك لست جائعاً، دعني أعمل لك طعاماً، ثم نأكل جاتوه.

قال أنا فعلاً غير جائع، ولو أردت كنت طلبت، أريد أن نأكل معاً جاتوه ونحتفل.

سكبت شاياً في كوبين. ملعقة سكر لها. ملعقتان له. تعرفه سيسليا. وقالت نحتفل مرتين، مرة لأنني انتهيت من «سبينس»، الآن وقد خرجت أقدر أن أقول إنه مكان شنيع، لعله ليس شنيعاً لكن بالنسبة إليّ لم يكن مناسباً، أقدر أن أقول هذا وقد خرجت، كان يوجد رجل فظيع، سميك الجلد كأنه معمول من كاوتشوك دواليب، ويقول أشياء فظيعة، رأينا مرة على التلفزيون امرأة تحترق، انفجرت سيارة والمرأة اشتعلت فيها النار، ركض شاب وجلب شرشفاً ولفّها وأطفأها، قال إنه أطفأها وأنها كانت غير غائبة عن الوعي، قال إنها شكرته، يدها احترقت، الأطباء بعد ذلك بتروا يدها وبتروا ساقها، المرأة لم تفقد الوعي، رأت ذراعها محروقة تماماً، لم يبقَ إلا

العظمة، رأت عظمة يدها وهم يحملونها إلى العناية الفائقة. والرجل عندنا، رجل المطاط كان ينظر إلى التلفزيون ثم ينظر إلينا كأنه يأكلنا بعينيه، ويمزح ويقول أشياء ويضحك!

سمعان يارد قال إن العالم فيه تماسيح كثيرة.

وسيسليا قالت لا، ليس هذا، ليس إنه تمساح، هذا لا يقول ما أقوله، صعب أن تفهم ماذا أقصد، دعنا لا نتكلم عن هذا.

وسمعان قال نحتفل لأنك تركت «سبينس»، ونحتفل لأن ماذا أيضاً؟

ابتسمت وقالت نحتفل لأشياء كثيرة.

هدر بوق في الخارج وردّ عليه بوق آخر. تتقاطع طرقات كثيرة في الجوار، وليلاً تزدحم هذه الشوارع.

جلبت صحنين وشوكتين وسكينين. توقفت أبواق السيارات لحظة ثم هدرت دفعة واحدة من جديد. تعالى صياح رجل ثم زعيق امرأة. بيروت متوترة. الكل على أعصابه. لكن البخار يتعالى من كوبي الشاي. ورائحة الجاتوه سكرية.

قالت سيسليا إنها ترددت قبل أن تأخذ الوظيفة.

سألها لماذا ترددت؟

قالت إن مسؤول المطبخ السابق لم يستقل من وظيفته.

سألها سمعان ماذا حدث، هل طردوه؟

هزّت رأسها أن لا، وهي ترفع قطعة جاتوه من العلبة إلى صحنه. قطعة مغطاة بالشوكولا، مزينة بالمكسرات، وبحلقة من الكريما البيضاء الهشّة.

سألها سمعان ماذا حدث إذاً؟

أراد أن يقول: «هل مات مثلاً؟» لكنه لم يقل.

وسيسليا رفعت من العلبة قطعة جاتوه أخرى، وقالت وهي تنظر إلى وجه صاحبها إن الطبّاخ اختفى، اختفى ولم يُعرف ماذا جرى له، لا عائلته تعرف أين ذهب، ولا زملاء العمل يعرفون، اختفى ولم يستقل من المطبخ ولم يطرده أحد. لكن هذا ليس أغرب ما في الأمر. الغريب الذي حيَّر الدرك والإدارة أن كاميرات المونوبري سجلت دخول الطبّاخ أول الدوام لكنها لم تسجل خروجه! الرجل اختفى وهو داخل المكان!

الرجل الذي أحبّته سيسليا قُتل أثناء الحرب. اسمه منقور على نصب الشهداء على ساحة ساسين. سمعان يارد سمع أجزاء من قصته. كان ابن خالتها. وكان يكبرها بأعوام. تعلقت به منذ الصغر. كأنها خرجت من البيضة وهي تحبّه. بعد المجازر تغيّرت نظرته. أثّر فيه الدم الكثير. لم يعد يظهر لا في بيتها (بيت خالته) ولا في بيت أهله. دام ذلك زمناً. ثم استرد ضحكته وذهبت العتمة من عينيه. كأن بدنه امتلأ نوراً من جديد. كفّ عن النوم في مركز الحزب ورجع ينام في البيت. لم يُقتل في معركة. لم يُقتل على جبهة ولا في اقتحام. قُتل بجولة قصف عشوائي بين شطري المدينة. سيسليا رأته عارياً بعد الغسل. بان جسمه أبيض بين نساء غارقات في أثواب سوداء. جسم أبيض كالقطن، أجرد، بلا شعرة واحدة، كجسم ولد أو امرأة. جسم سليم، كامل، بلا ندبات. وعلى حلمة الثدي الأيسر شريط لاصق.

دُفن جورج عازار في مقبرة مار متر. والدة سيسليا مرضت بعد ذلك بوقتٍ قصير. طال مرضها شهراً أو شهرين ثم شُفيت. سمعان يارد لا يعرف من عائلة سيسليا إلا خالة عندها ثلاثة أولاد تقطن في سنّ الفيل. التقى الخالة هنا، في بيت سيسليا. قال لصاحبته إن فيها شبهاً من خالتها. سيسليا أخبرته أن العائلة تعتبرها شَبه أبيها لا شَبه أمها. عند موت أمها سنة 1989 اضطربت نفسياً وجسمانياً. ساندها

أبوها في تلك الفترة. لكن الأب لم يلبث أن فارقها بدوره في السنة الرابعة من سنوات السلم الأهلي. مات الأب في تلك الأيام المتشابكة غير المفهومة التي أعقبت انفجاراً في «كنيسة سيدة النجاة» وأفضت إلى القبض على قائد القوات اللبنانية سمير جعجع وإيداعه سجن وزارة الدفاع الكائن تحت سطح الأرض في منطقة اليرزة. سيسليا ورثت عن أبيها هذه الشقة وحصة صغيرة في مطعم «وينرز» على ساسين. المطعم لم يلبث أن أفلس. لكن الشقة بقيت.

نحن في مطلع تشرين الأول (أكتوبر) 2005. سيسليا استلمت عملها الجديد في المونوبري وسمعان يارد يراها تقريباً كل ليلة. تتأخر أحياناً في العمل إلى العاشرة مساء. عليها ترتيب المطبخ وإعداد العدة لليوم التالي. لا تطبخ ليلاً. تطبخ في الصباح الباكر. لكنها تتأخر عند المساء لإعداد ما يلزم من أجل صباحٍ باكرٍ، نشيطٍ وسريع وعملي. يساعدها فتاتان وشاب واحد. الشابّ يتبع قسمين معاً: قَسم المطبخ، وقسم براد اللحوم.

سيسليا تقول لسمعان إن العاملات في المونوبري أخبرنها أن الطبّاخ كان شديد التهذيب. الطبّاخ الذي اختفى عُرف بميله إلى السكوت، باللسان الدافئ، بالترفع عن المشاحنات والخلافات بين الموظفين، وبنفسه الطيب في أطباق السمك. يمت بصلة قربى للرجل الطويل النحيل المسؤول عن قسم الأسماك. ومثله يلفت النظر بيديه الكبيرتين. له أهل وأخوة. لكنه ـ مع تجاوزه سنّ الزواج ـ لم يكن متزوجاً.

*

سيسليا سألت سمعان هل يذكر البيت الزهري الذي كان على ساحة ساسين وهُدم قبل سنوات قليلة؟

سمعان قال إنه يذكره. تلكأ قليلاً ثم تذكر. واستغرب أن يكون

نسي البيت كل هذه السنوات. كان بيتاً يستوقف أي عابر. كان في المساحة التي يشغلها الآن برجٌ زجاجٌ لم يُسكن بعد. بين «شوكولا نورا» و«دانكن أند دوناتس». كيف نسيت البيت الزهري يا سمعان؟ كيف نسيت الحديقة المستطيلة بترابها الأحمر وصنوبراتها اليابسة؟

كيف نسيت الحائط الباطون والدرابزين البنّي المغطى بالصدأ؟ كيف نسيت البوابة الحديد المقفلة؟ كنت ولداً وكنت تخرج من «نادي أبناء نبتون» مع صديقك سليم سماحة وتقفان أمام دكان أبو فيليكس وتشربان المرطبات وتنظران إلى أباجور النوافذ الموصد مغطى بسلح الطيور، وتكرران مرة تلو مرة تبادل الحكاية نفسها، ليست حكاية، ليست إلا أخباراً غامضة سمعها أحدكما، ثم عرفها الآخر، وصارت جزءاً من ذاكرة مشتركة بينكما. «هذا البيت مسكون». لهذا لا يقبل أن يستأجره أحد. كانت تملكه عائلة والعائلة ماتت. خُطفوا أو قُتلوا بالقصف أو ماتوا ميتة ربّهم وهم نيام. يُقال إن صاحب البيت جُنَّ وقتل أفراد عائلته ثم قتل نفسه. لا هو يعلم القصة ولا صاحبه يعلم. لكنهما يعلمان أن أحداً لا يقبل أن يستأجر هذا البيت المقفل الغارق في الصمت. الساحة تعجّ بالأنوار والحركة، والبنايات مملوءة بشراً، لكن هذا البيت يقبع ساكتاً مظلماً مستوحداً في ظلال الصنوبرات السوداء. إذا هبّ هواء الخريف تطاير التراب الأحمر على الرصيف خارج البوابة الحديد ذات الشبك المخرم. إذا عصفت ريح الشتاء وقع الورق الإبري اليابس من تيجان الصنوبرات وغطى درجات البيت البرّانية بطبقة نبيذية اللون. لا يعرفان التفاصيل. لكنهما يعرفان أن رجلاً من آل ديب جاء مع زوجته وأولاده واستأجر البيت أثناء الحرب. كان مهجّراً ولم يجد سكناً. البيوت الفارغة في المنطقة امتلأت بمهجّرين ونازحين من الجهة الأخرى، ولم يبقَ إلا هذا البيت المقفل الكثير الأصداء. بيت تُنسج حوله الحكايات وتتوزع

سقفه بيوت العناكب. سكن الرجل فيه ثلاثة أسابيع. لم يُكمل الشهر الذي دفع إيجاره. أخذ عائلته وذهب.

يستطيع القارئ أن يزور محل «أحذية شفيق ديب وأولاده» في جوار «كنيسة السيدة» في الأشرفية ليعرف المزيد من قصة هذا البيت. يستطيع أيضاً أن يتكلم مع بائع اليانصيب الذي يبيع أوراق الحظ والخسارة على ساحة ساسين ويقعد في حرّ الظهيرة تحت حائط «بناية البريد والهاتف». يقعد هناك ويأكل زوادته مع ماسح الأحذية. الماء يشربانه بارداً. يحصلان عليه من بوّاب البناية. ومن حراس Liban Post. يأكلان وينظران إلى رجال أعمال يدخلون البنك اللبناني ـ الفرنسي في الجانب الآخر.

سيسليا قالت لسمعان إن إحدى العاملات على صناديق الدفع في المونوبري سمعت من امرأة ـ امرأة تُفرغ عربتها على مهل وتحسب على آلة حاسبة صغيرة أخرجتها من جزدان أسود بكلة فضة ثمن ما اشترته ـ سمعت أن أخبار البيت الزهري المشؤوم، البيت الذي هُدم قبل خمس سنوات تقريباً، أقل أو أكثر، حتى نحن أهل الحيّ أضعنا الوقت ولم نعد نذكر، قالت المرأة إن أخبار البيت الزهري تطارد البرج الزجاج الجديد. برج يطلّ على ساحة ساسين ويطلّ على ABC لكن طبقاته ما زالت شبه فارغة! كل الأبراج في هذه المنطقة تُشترى طبقاتها وهي ما زالت تصاميم على الخريطة. سمعان يعرف هذا. البرج على الناصرة، عند التقاطع القريب من «زيت وزعتر»، باعوا طبقاته العشرين وهم يحفرون أساساته. الجرايد تحكي 24 ساعة عن أزمة اقتصادية في البلاد وعن فقرٍ مدقع والناس اشتروا طبقات البرج قبل أن يُبنى! 2 في المئة من سكان البلاد يملكون ثمانين في المئة من ثرواته، قالوا على التلفزيون.

المرأة التي تُخرج المعلبات من عربتها على مهل وترصفها أمام

البائعة وتحسب ببطء على آلتها الصغيرة قالت إن أخباراً كهذه طاردت قبل زمنٍ هذا المكان أيضاً. قبل أن يصير المونوبري هنا كان المكان يُسمى «سوبرماركت أبيلا». عائلة أبيلا عائلة قديمة في بيروت. سمعان يارد سمع عن العائلة من جدته. يعقوب أبيلا جد العائلة الكبير فرنسي الأصول أتى إلى بيروت من عكا. يُقال إنه كان طبيباً في جيش بونابرت. يُقال إنه فرّ من جيش المطعونين إلى صيدا. وصل صيدا مريضاً. أنقذته فتاة فقيرة من عائلة زيدان فتزوجها. ثم جاء بها إلى بيروت. جدة سمعان يارد كانت تحكي قصصاً وهي تطرز الشراشف أو تخيط أغطية على الصنارة. أبيلا عائلة قديمة وحين بُني هذا المجمع ـ هذه البنايات التي تُسمى «تلال بيروت» ـ حدثت مشاكل في إحدى البنايات، تصدع الأساس، أو مالت البناية، فنشب خلاف بين الشركاء ثم باع أحدهم حصته إلى البقية.

كل هذه الأرض كانت في الأساس ـ قبل مئة سنة تقريباً ـ ملكاً لشخص واحد. لكن الرجل قسَّمها إلى عقارات لئلا يواجه أولاده مشكلة في استعمالها بعد وفاته. الورثة لم يواجهوا مشاكل. نصفهم أراد أصلاً أن يغادر البلاد إلى الخارج. صارت نصف الأرض في يد عائلة أبيلا ونصفها في يد عائلة الشرتوني. على هذا النصف الثاني ارتفعت «فيلا مكسيكو». سمعان يارد الجد هو الذي بناها. في مدخلها ـ بين عمودين يحملان أسدين ـ تاريخ منقور في الحجر: 1933.

العين المدققة تنظر إلى الفيلا القديمة الطراز ذات الطبقات الثلاث (شبه محتجبة وراء سنديانات طويلة ووراء سورٍ عالٍ) فتلاحظ شبهاً بينها وبين بنايات شارع المعرض. مهندس واحد لمس هذه العمارات بإصبعه. سمعان يارد الحفيد يشعر أنه يتكلم مع جده كلّما مرّ أمام هذه البناية. في الشتاء، والسنديانات مغسولة بالمطر، يبرق

حائط فيلا مكسيكو، كأن نوراً أصفر يتدفق من حجارته القديمة. الواقفون في مدخل الفرن الدافئ جنب باتيسري البريستول لا يزيحون أبصارهم عن السنديانات المغسولة وعن الفيلا الباهرة بينما يلتهمون المناقيش الساخنة ويشربون الشاي الحلو من أكواب بلاستيك.

سمعان يارد قال لسيسليا إن هذه الأرض الممتدة من المخفر إلى صيدلية بيرتي كثيرة الآبار، غزيرة المياه الجوفية، فيها فراغات تحت الأرض، مثل الخزانات والكهوف. هذا يظهر في خرائط الأساسات. ويكتشفه الواحد إذا عبر الشارع في الشتاء: هذه المسافة بردها قارص. الممر من بيرتي إلى المخفر يشبه مضيقاً في أعالي الجبال. ليست الرياح هي السبب فقط. بل المياه تحت الشارع المعبد أيضاً. هذه الأرض هي بطن الجبل. وبطن جبل الأشرفية مملوءة بالماء. كل بناية هنا تكتفي ببئرٍ واحدة. لا تنشف البئر ولو ظلوا يرفعون الماء منها مئة سنة. في أماكن أخرى تنشف الآبار في وقت قليل. ليس هنا. وخزانات المياه الجوفية تُصدر أصواتاً. وهذا سبب الكلام الكثير في البيوت القديمة في هذه الأحياء عن الأشباح. الأصوات تحت البلاط. الأصوات التي تبدو خارجة من الحيطان. في الليل تُسمع همسات. ليست الأشباح. هذه المياه تحت الأرض. وعبور تيارات الهواء. في بيوت غندور السعد أيضاً، البيوت القديمة لا أبراج الحديد والباطون والزجاج، في البيوت القديمة تُسمع ليلاً هذه الهمسات. مثل الأنين. مثل ناس يحكون وراء باب مقفل. والواحد يتخيل أحياناً أنها الصور القديمة على الحيطان. الصور الفوتوغرافية ـ بالأبيض والأسود ـ المبروزة في الصالون. لكنها ليست الصور. هذا هواء وماء تحت البلاط. من تحت الأرض تخرج الهمسات.

قالت سيسليا إن العاملة قالت إن إيبلا أقفل السوبرماركت بسبب

هذه الأخبار. ولأن عاملاً في موقف السيارات اختفى. أقفل المكان بلا أي إنذار. ولم يدفع للموظفين تعويضات.

سمعان قال إنه يذكر الموظفين والموظفات واقفات في مدخل المكان المقفل، أمام البوابة الحديد، وهم يرفعون اللافتات، هذا قبل كم سنة، ليس بعيداً جداً. يرفعون اللافتات ويطلبون تعويضات الصرف. يجلسون على الرصيف. ويأكلون سندويشات. سندويشات مرتديلا وسندويشات لبنة طرية وسندويشات جبنة صفراء. يكون طالعاً إلى ستاربكس على ساسين أو إلى تشايس أو إلى حلويات الدويهي أو حتى إلى واكيم ويرى العاملات قاعدات يدخنّ السجائر تحت مظلات مفتوحة والماء يسيل على المظلات. وحين تصحو السماء يراهن واقفات ينظرن إلى الأبنية المقابلة: أبراج على شرفاتها بنغلادشيات وسيرلنكليات ينظفن الزجاج. يخرجن من النوافذ ويقفن على أحواض التراب العالية المعلقة، ويُنظفن الأحواض. يراهن في الملابس الزهرية فوق، والواحدة تمسح زجاج النافذة العريض وهي تلتصق به التصاقاً خائفة من السقوط إلى وراء. العاملات العاطلات عن العمل ينظرن من تحت ساكتات.

قالت سيسليا إن المونوبري أخذ المكان بسعرٍ زهيد، فالمكان فسيح والكاراج كبير وموقعه ممتاز، كل الأشرفية تشتري من هنا الآن. ضرب المونوبري المتاجر الصغيرة والكبيرة. جميعها تضاءل عملها، أرباحها تراجعت، وبعضها أقفل. «سانت إيلي» شبه فارغ. سوبرماركت عون ما زال فيه زبائن لكن ليس كما من قبل. هل تذكر عندما كان مكانه سوبرماركت أمباسي؟

سمعان قال هل تذكرين عندما كانت السينما موجودة مكان السوبرماركت، قبل أن تتحول إلى سوبرماركت، تذكرين سينما أمباسي؟

سيسليا قالت أذكرها، مقاعدها حمراء.

سمعان قال كنت أحبّ الطعام في «أبيلا»، كان التقسيم عنده مختلفاً، الطعام والمواد الغذائية كانت فوق، على مستوى الطريق، لماذا نقل المونوبري قسم الأطعمة والمواد الغذائية إلى تحت؟ كنا نقعد ونأكل على الطاولات بين برادات الأكل في مدخل أبيلا، لم يكن الطابق مخصصاً للثياب.

سيسليا قالت إن المونوبري عنده زبائن كثر يأتون بالسيارات، والكاراج تحت، أهل مدينتنا لا يحبّون التنقل بلا سيارات.

سمعان سألها هل تذكر كيف كانت المناظر خارج نوافذ بيتها قبل عشر سنين، قبل أن يُهدم «نادي أبناء نبتون» وقبل أن ترتفع كل هذه الأبراج؟

سيسليا قالت إن البيت كان يُغمر بنور الغروب ساعة الغروب. تصير الحيطان حمراء. وشاشة التلفزيون تصير حمراء. لكن بنايات ABC وسقوفه الحديد حجبت المنظر. وضحكت ضحكة قصيرة وقالت لماذا لا تعمل اشتراكاً في النادي، فتحوه من جديد.

قال فتحوه قبل أسابيع في بناية، ليس النادي القديم، مع أنهم وضعوا لافتة باسمه القديم وبتاريخ تأسيسه، لكنه ليس النادي الذي كنا نذهب إليه، أين ملعب كرة السلة، أين المدرجات، أين السقوف العالية.

سيسليا قالت إنها تحبّ مراقبة المجمع التجاري عند المساء، من نافذة الحمام، من بين قضبان الحديد الأربعة ترى الأزواج على الأدراج الكهرباء. رجال ونساء، شباب وشابات، يطلعون وينزلون، تراهم وتحبّ هذا المنظر، خصوصاً في الشتاء، الضجة أخفّ في الشتاء.

الأحد 9 تشرين الأول (أكتوبر) 2005. صعب النوم بلا AC.
من قبل أن ينام كان رأسه يؤلمه. «كان رأسي يؤلمني لأنني لم أنم جيداً قبل ليلة». لكنه هذه الليلة يستيقظ بصداعٍ مخيف. كم الساعة؟ الثانية بعد منتصف الليل. دخلنا يوم الاثنين إذاً. الثانية والربع. «جبهتي تقتلني. كأن ورماً يكبر في قبّة رأسي ويهدد بتكسير الجمجمة». تذكر فيلماً رآه في سينما أمبير عن ناسٍ يأكلون أدمغة القرود. نظر إلى المرأة المستلقية جنبه، على السرير غير العريض، غارقة في نومها. تُكسر جمجمة القرد (سقفها) وهو حيّ ثم يؤكل الدماغ بالملعقة. هذا يُريح من الصداع. «فتحتُ النافذة وقاعداً في السرير تأملت أضواء بيروت فوق خليج الدورة وتأملت الشبح الأسود لجبل نفايات برج حمود. كانت نجمة توجّ وحيدة عالية في السماء.» هذه الليلة. هذا الحرّ الشديد. أول نومه، سمع صوتاً غريباً وراء الحائط، كأنه مطر على بلاط. لكنها لم تمطر. صباح الأربعاء 28 أيلول (سبتمبر) أمطرت 15 دقيقة في بيروت الغربية. ليليان أخبرته. كانت ذاهبة إلى الحمرا. مرّت على متجر وحين خرجت منه رأت الناس فاتحين المظلات ولفح مطر وجهها. لم تمطر في «الشرقية». لكنها أمطرت في الحمرا. وهذه الليلة خيّل إليه أنها تمطر ثم أيقظه صداعٌ شديد.

ماذا يفعل هنا؟ ترك السرير ودخل إلى المطبخ. الشقة ضيقة. لا يدري كيف تسكن ليليان هنا مع صديقتها. المكان لا يتسع لمخلوق واحد. ماذا يفعل هنا؟ هذا الصداع. الكحول ثقيل في جبهته. كأن جبهته حُشيت نشارة حديد.

ردّ باب المطبخ ثم أشعل النور. تحرك ببطء شديد. لا يريدها أن تستيقظ الآن. أعدّ ركوة القهوة ثم جلس إلى الطاولة. مع الرشفة الأولى من القهوة الثقيلة شعر بثقبٍ يتسع في رأسه. «هذا جيد»، فكَّر سمعان يارد.

على الطاولة جرايد. جرايد ومجلات وكيس فيه زبيب ومشمش مجفف. جريدة الأحد الماضي. يوم السبت 1 تشرين الأول (قبل ثمانية أيام) ماذا كان يفعل؟ اليوم الأول من الشهر: الدرك فككوا عبوة تحت سيارة القاضي خوري. القاضي المسؤول عن ملف بنك المدينة. «وقالت مصادر إن هذا الملف مربوط بعمل لجنة التحقيق الدولية وتحاول اللجنة إقامة علاقة بين إفلاسه وبين مبالغ استعملت في تمويل العملية التي راح ضحيتها...». جارة عائدة إلى البيت على ساحل علما (أدما ـ كسروان) في وقتٍ متأخر رأتهم وراء السيارة داخل الكاراج. رأت شخصين ثم فرّا على دراجة نارية. صوت الدراجة النارية. سكوت الليل والدراجة تهدر. ظهر نائب على التلفزيون. قال إن عائلة القاضي رأت من الطابق الثالث رجلاً يقفز عن سور الموقف. مدخل البناية مزود بكاميرات مراقبة.

أمس (السبت 8) زلزال يضرب باكستان. القتلى والجرحى بالآلاف، قالوا على التلفزيون. رأى الصور. «وقال وزير الداخلية الباكستاني أن مدناً وقرى كاملة في كشمير قد دُمرت تماماً». رشفة قهوة ثانية. ساخنة. مرّة. «هذا جيد». الثقب يتسع، ثقب في حائط الرأس، ثقب في نشارة الحديد المضغوطة... وعليه أن يعثر على

علبة أسبيرين في هذه الجوارير. أسبيرين أو بنادول. هذا الصداع. هذا الحرّ. وتذكر سمعان يارد عمه (ليس عمه، كان صغيراً وكان يناديه عمي) تذكر عمه الذي مات بورم في الدماغ. المرحوم باسيل يارد. بيته تركه لجمعية خيرية تتبع الأبرشية. أبرشية بيروت للروم الكاثوليك الملكيين. لا يمرّ في تلك الطريق، أمام مدخل اليسوعية الفوقاني، إلا ويخطر على باله. يقطع أمام البناء الأبيض الذي يضم مطعم Cozmo ثم يقطع أمام بيت عمه. مرات يقف هناك وينظر إلى الشجر والنباتات تحاصر البيت، ويرى القرميد المتصدع. وراء البيت حارة أخرى قديمة، هذه في طريق يوسف صادر، هناك عاشت عائلة سماحة، وفي نهاية الطريق (لأن الطريق مسدودة) حارة اليونانية، امرأة طالما تكلموا عنها في زمن الطفولة. كانت تؤجر غرفاً، وكان يأتي قبطان، قبطان من قبرص، أحمر الوجه، أبيض الشعر، ويستأجر الغرفة على الطبقة الثانية. يذكر وقوفه في نهاية الطريق وهو ما زال فتى ينظر إلى زبائن اليونانية وقد جلسوا في الحديقة أمام البيت المشرع الأبواب يأكلون ويضحكون. يذكر طاولة عليها إناء مستطيل عميق من الزجاج الشفاف. الإناء مملوء سلطة خس وبصل وبندورة. جنب الإناء أكواب كبيرة من العرق. كأنها أكواب حليب. ومن المنقل ـ تحت النخلة ـ تتصاعد الرائحة ويتصاعد الدخان. القبطان يلتقط قطع الدجاج من وعاء ويرصفها على الشبك فوق المنقل. المرأة تضحك. شحم ذراعيها يترجرج. رائحة الشواء واللبن والثوم.

يتحرك بحذر. يسكب فنجاناً آخر. صوت القهوة تنزل من الركوة في الفنجان. هذا الليل الساكن. ووراء الحائط، في الخارج، تنام المدينة وهي تهمهم. من النافذة رأى ـ وهو قاعد في السرير قبل لحظات ـ صف مصابيح صفراء في شارع من شوارع برج حمود.

البيوت متلاصقة، الأضواء تتسلق السفوح، وجمود مطبق يخيم على المدينة. ماذا يفعل هنا؟

إذا دخل هل يعثر على ثيابه ويلبسها ويغادر من دون أن. . . هل يقدر أن ينسحب من هذه الشقة بلا صوت؟ ينسحب كالأشباح ولا تشعر به ليليان ولا تقوم من النوم ولا تسأله ماذا حدث، لماذا يلبس، أين هو ذاهب في هذا الليل؟

غسل وجهه في الحمام. على المغسلة خط نمل يزحف. من النافذة الضيقة رأى نوراً كاشفاً وهّاجاً، بعد البيوت الكثيرة المتساقطة المسقوفة تنكاً. النور أصفر يضرب إلى بياض، شديد السطوع، يتعلق من ذراع عملاقة حديد. هذه ورشة بناء تعمل في الليل أيضاً. لكنه لا يسمع الجلبة إلى هنا. كل هذه البيوت والأكواخ! كل هذه السقوف التنك والباطون! كم عائلة تحيا في هذه الأحياء المتشعبة المتداخلة؟ كيف ينامون في هذا الحرّ؟ ومن يبني برجاً ها هنا؟

أبوه أخبره أن هذه البقعة كلّها كانت جلول توت وزيتون. وفي الأسفل كان السهل مزروعاً بالبرتقال. هذه المنطقة كلّها كانت بساتين خضراء. وفي زمن جده كانت تُرى الغزلان هنا. وهناك، حيث يصب نهر بيروت في البحر الكبير، هناك حيث يرتفع الآن مكب الزبالة الذي يشبه جبلاً مستطيلاً بنيّ اللون يتلون بالعشب الأخضر في فصل الربيع، هناك عند مصب النهر كانت تُرى أسماك بيضاء اللون، ممشوقة، لحمها زهري. الفرنسيون كانوا يربّونها، هذه الأسماك. في هذا السهل، بين البساتين، أقاموا مطاراً وعنابر. جدته أخبرته أنها كانت تجيء مع أهلها يوم الأحد، بعد القدّاس، يأتون إلى حديقة داوود باشا للنزهة. يسمعون فرقة الجيش الفرنساوي تعزف، وينظرون إلى الطائرات تطير من المطار وتدور فوق الجبل ثم تعود.

بيوت الباطون وسقوف التنك تتكاثر أمام عينيه. تزحف من الجهات الأربع وتطبق على هذه النافذة الضيقة، تطبق على عينيه، تطبق على صدره. كأن الحيطان تتساقط على هذه الشقة الضيقة. هذا الصداع الفظيع. ظنَّ أن القهوة تشفيه. تراجع الألم لحظة ثم عاد أقوى. عليه أن يفرّ. أن يخرج. أن يبتعد. عليه أن يخرج الآن. لكنه عاجز عن الحركة. عاجز. مقيد بالحيطان. وبرأسه المضغوط. عاجز ومحجوز.

«كابوس»، فكّر سمعان يارد. ورأى نفسه يلبس ويخرج ويمشي على الطريق. الطريق طويلة. صف أعمدة ومصابيح برتقالية. وهو يسير.

لن ينزل إلى المكتب اليوم. يريد أن يرتاح. سيأخذ عطلة اليوم. عطلة من المكتب. لن ينظر إلى خرائط. لن يتلقى اتصالات. ولن يشرب قهوة المكتب. استحم طويلاً. هذا الماء الحلو. سال الماء على رأسه، على كتفيه، على ظهره. بعد الحمام تنشف على مهل. البيرة تنتظره باردة في الثلاجة. لكنه لن يشربها. أنزلها إلى البراد مرة أخرى. وأعد كوباً من الحليب الساخن. يشرب حليباً ثم يستلقي على فراشه. يحاول أن ينام ولو ساعة. لعله ينسى الليلة الماضية. كأنه وصل إلى بيته آتياً من جهنم. ذكر خط النمل يرتجف على المغسلة، والنملة تكبر أمام عينيه، تتضخم، تركض وتلتقي نملة أخرى راكضة. حركة النمل الغامضة. تلتقيان فتتجمدان. رأس النملة يلمس رأس النملة. ثم تُكمل الواحدة طريقها بسرعة. لماذا تتجمدان لحظة والرأسان تتلامسان؟ ثم لماذا تبتعدان كل واحدة في اتجاهٍ مرة أخرى؟ والسؤال الأهم يا سمعان، السؤال الأهم: لماذا تفكّر في النمل؟

ضحك وهو يشرب الحليب قاعداً تحت السقف العالي. لا ضرورة لتشغيل الـ AC. الجو بارد هنا. الجو عليل ولا حاجة لتشغيل المكيف وسماع صوته. يشرب الحليب وينعس. يريد أن ينام. أن ينسى ما جرى أمس. أخطأ. لم يكن عليه أن يخرج ويسهر

مع ليليان. كان عليه أن يقعد هنا وينظر إلى التلفزيون أو يذهب ويتعشى مع روجيه في Al dente. لكنه لم يكن في مزاج يلائم القعود مع روجيه. هل كان في مزاج يلائم ليليان؟ غباء. ليس أكثر. ضعف في التركيبة النفسية. «ضعف داخلي غير مفهوم»، يفكّر سمعان يارد. اتصلتْ به وسألته ماذا يفعل؟ قال إنه قاعد. قالت أجيء إلى عندك؟ تردد لحظة ثم قال لا، أنا أمرّ عليك ونذهب إلى الكسليك، منذ فترة لم أذهب إلى هناك، نسهر هناك.

قالت إن الكسليك فارغة هذه الأيام، الكلّ خائف من التفجيرات والناس تسهر في هذه الجهة، لماذا لا ننزل إلى «البلد»، أقصر وأحسن....

قال إنه ضجران من «البلد» وعنده رغبة أن يسوق مسافة طويلة.

سهرا في الكسليك. كل كأس يقول لن أشرب كأساً أخرى. لكنه يعرف نفسه. الكأس الأولى فاتحة الكؤوس. شرب كثيراً. مع أنه طوال الوقت يفكِّر: لا أريد أن أشرب، سأسهر مع ليليان ساعة، ساعتين، ثم أذهب إلى البيت، سيسليا تعمل الآن، لكن بعد ساعة تنتهي. الليلة تنتهي عند الحادية عشرة والنصف، قالت، ستبقى بعد إقفال المكان. هناك بعض الأشياء تريد أن تتأكد من ترتيبها، هناك خزائن معجوقة بالأغراض، وعندها أيضاً طلبيات، دائماً توجد طلبيات كبيرة لصباح الاثنين، وطلبيات كبيرة في عطلة الأسبوع، لكن الطلبيات هذه الأيام أكبر من أي وقتٍ مضى، هذا «رمضان»، في «رمضان» الشغل لا ينتهي في المونوبري، السيارات تتوافد فارغة من جهات بيروت ثم تخرج من الكاراج محملة طعاماً، هذا دليل آخر أن الحرب الأهلية قد انتهت، 15 سنة من السلم لا تكفي دليلاً، لكن الوقوف في مطبخ المونوبري وتلقي الطلبات أثناء «رمضان»، هذا دليل قاطع.

قال سمعان إنه لم يكن يعلم أن أهل «الغربية» يأتون إلى المونوبري للتسوق.

سيسليا قالت لا تُصدق عدد الطناجر التي تغلي على النار في مطبخنا. وقالت إنها طلبت من الإدارة توظيف ثلاث مساعدات، وإلا لن تلحق على الطلبيات.

سهر مع ليليان في ملهى ليلي يجاور سينما أسباس. أين زحمة الأحد التي يعرفها؟ تكون المنطقة مكتظة، والسير لا يتحرك. أين الروسيات والبلغاريات الواقفات صفّاً على جانب الطريق؟ أين الأجانب وأبناء البلد وأهل الخليج؟ المكان ليس مقفراً. لكنه يبدو مقفراً. وفكّر سمعان يارد إنها نفسيته. هذه الأيام الأخيرة يصعد ويهبط. ليس على طبيعته. يكتشف في أعماقه مناطق غامضة لا يعرفها. سيسليا السبب. يعرف هذا. يعرف ولا يعرف. هل يعرف؟ يكون معها وينتابه إحساسٌ غريب أنه لم يعرف في حياته شيئاً! ظنّ أنه يعرف لكنه لم يكن يعرف. ينظر إليها تخبره عن عملها، عن هندسة المكان، عن الموظفات، عن رجل في الإدارة اسمه ألبير نقاش، عن رجال الأمن، عن أجهزة المراقبة والكاميرات، عن الخضر البلدية الطازجة التي تصل فجراً من سوق الخضر جنب «المدينة الرياضية»، عن الخضر المستوردة التي تُجلب من المرفأ ساعة المساء، تحكي وتحكي ولا يملّ من السماع. ضحكها زاد. لكنها مرّات تحزن وتسكت. يصيبها شرود في نصف الجملة وتذهب نظرتها إلى مكان بعيد غير مرئي، مكان مظلم، تذهب نظرتها إلى نقطة نائية وتضيع منه. كأنها كانت بين أصابعه، والآن فرَّت. في لحظة خُطفت إلى مكان لا يعرفه، ولا يعرف كيف يستردها منه.

متى بدأ يتعلق بها هكذا؟ في الفراش أخبرته أنها ترى كوابيس، كوابيس كثيرة. ترى أنها في الطريق ثم يبدأ القصف، القنابل تتساقط

وهي تريد أن تهرب من القنابل، لكنها لا تستطيع. أينما نظرت رأت القنابل تتساقط. قنابل بيضاء، تشبه كرات الكريستال، تشبه الطابات المعدن التي تُعلق على شجرة الميلاد، لكنها تعرف أن هذه قنابل، قنابل والقنبلة تهدم بيتاً، تحطم شاحنة، وبشظية منها تموت.

قال لها إن هذا سببه حال البلد، حال الترقب والتوتر في انتظار تقرير ميليس.

قالت إنها كل حياتها ترى هذه الكوابيس. لا تذكر أسبوعاً واحداً مرّ عليها في عمرها كلّه بلا كوابيس. ترى أنها بلا بيت. تأتي إلى هنا ولا تجد البناية. تبحث عن البناية على ساحة ساسين، ثم تبحث عنها على أوتيل ألكسندر، ثم تبحث عنها على السوديكو. تدور في الأشرفية وهي تبحث عن بيتها ولا تجده، ثم تفكّر لعله قطع خط التماس، قطع بشارة الخوري وذهب إلى «الغربية». تقول إنها تقطع في الكابوس خط التماس. تقول إنها ترى نفسها ما زالت في زمن الحرب وطريق بشارة الخوري محفورة وكلّها متاريس وبراميل. ترى سيارات محروقة وترى جنوداً ورجالاً في اللباس المدني يأكلون بطيخاً أحمر ويُقوصون على قطط وكلاب. تراهم وترى البناية. ترى البيت. ترى الأباجور الأخضر. ترى البيت هناك، يطلّ بشرفته عند جسر البسطة، في «الغربية»! كيف انتقل البيت إلى هناك، لا تعلم. وهذا لا يكون غريباً في الكابوس. كأنه من الطبيعي أن تتحرك البنايات من مكان إلى آخر. كأن البناية سيارة أو حيوان. تريد أن تذهب إلى بيتها ـ هذا بيتها، تعرفه، كل حياتها فيه، وأغراضها ـ لكنها تخاف من الجنود والرجال. بين الرجال ولد أبيض اللون، شديد البياض، كأنه مصاب بالبرص. ويحمل أرنباً. الأرنب أسود والولد يقترب منها ويقول لها تعالي، أنا آخذك إلى بيتك، لا تخافي.

سمعان ينظر إلى الدخان يتصاعد من السيجارة على حافة المنفضة. يشعر بانقباض في القلب. إنقباض في المعدة. كأنه يُعصر. يريد أن يساعد سيسليا. كيف يساعدها؟ بينما تروي له الكابوس لا يشعر أنها استيقظت منه. يشعر أنها هناك. ما زالت في قلب الكابوس. ما زالت على خط التماس تنظر إلى بيتها الذي هرب إلى الجهة الأخرى وتنظر إلى ولدٍ أبرص يدنو ويقول تعالي، لا تخافي، أنا أخذكِ إلى بيتك.

سمعان لا يثق بهذا الولد الأبرص.

تقول سيسليا أن الولد وضع الأرنب الأسود تحت إبطه وصار يصفق. لا تدري لماذا صار يصفق. ثم تسكت.

سمعان يسألها ماذا حدث بعد ذلك.

سيسليا تقول إنها استيقظت من الكابوس والولد يصفق. هذا هو الكابوس. لم ترَ شيئاً آخر.

سمعان يقول إن الكوابيس هكذا، صعب أن نفهمها. مرة رأى نفسه في المنام يركض على طريق أمام بيت جده لأمه، بيت صيفي في الجبل، يركض والكلاب تطارده. كان الوقت ليلاً، ولكنه يسمع الكلاب تنبح، وحين يصل إلى مكان فيه مصابيح ويلتفت لحظة يرى قطيع الكلاب يخرج من الظلام، كلاب تشبه الذئاب، يرى وجوهها، لا يرى الأسنان، لكنه يرى الوجوه، رمادية وبيضاء، نباحها مرعب، سريعة.

سيسليا تقول إن امرأة تعمل معها في المونوبري أخبرتها أن الطبّاخ الذي اختفى كان مريضاً.

سمعان سألها «مريض كيف، مريض في جسمه؟»

سيسليا قالت إنها سألت المرأة السؤال نفسه. لكن المرأة هزّت رأسها ولم تقل شيئاً.

ليليان تتحدث وهو لا يسمعها. تقول أشياء غامضة عن سفينة أبقار. لا يفهم. عقله في مكان آخر. لماذا خرج من البيت؟ كان عليه ألا يخرج. لكنه خشي أن تصرّ على رؤيته الليلة، خشي أن تأتي إليه في البيت، لا يريدها أن تأتي، لهذا خرج. «قلت أخرج قليلاً ثم أرجع»، فكّر سمعان يارد.

لكنه لم يستطع أن يرجع. الكحول أتعبه. أضعف عزيمته. هل الكحول ما أضعفه؟ لا. ليس الكحول. لو أن الكحول السبب كيف كان يسوق بيسرٍ من الكسليك إلى بيتها؟ أراد أن يوصلها ويمضي. لكنها التصقت به. مثل قنديل البحر ليليان. أحرقت وجهه هذه الليلة، قام في الليل لا يتنفس، ورأسه مصدع. تتعلق به بينما يتسلقان الدرج. الدرج مظلم. لمبته محروقة. ماذا أخذه إلى هناك؟ كأنه قضى الليل في جهنم.

لكن ذكرى الليلة تتراجع الآن. يعلم أنها كانت مرة أخيرة. يشعر بذلك في بطنه. إحساس جسماني. كأنه ابتلع للتو نواة خوخة.

علاقته بليليان انتهت. بزرة خوخ علقت في الزلعوم. مرة أخيرة. لن يتكرر ذلك. لا علاقة لهذا بالضعف الداخلي. لا علاقة لهذا بالدرج. لا علاقة... ينعس في هذا المكان الأليف، على هذه الكنبة الأليفة، تحت هذه النوافذ الأليفة. ينعس في بيتٍ ورثه عن أبيه عن جده ولا يريد أن يفكّر. يريد أن ينام.

لكن الخليوي يرنّ. هذا أحد أرقام المونوبري. بات في الأيام الأخيرة ينتظر هذه الأرقام.

ـ أين أنت؟ تسأله سيسليا.

يقول إنه في البيت.

تقول إنها جربت أن تتصل به أمس لكن هاتفه كان مقفلاً. وجربت تلفون البيت لكنه لم يردّ.

يقول كنت مع أصدقاء خارج المدينة، مرّوا عليّ وأخذوني ولم أرجع إلا متأخراً.

يقول ذلك وهو لا يشعر بالخفة. عنده خفة في هذه الأحاديث على التلفون. لكن ليس هذا الصباح.

تقول إنها تريد أن تخبره شيئاً.

يقول ماذا؟

تقول ليس على التلفون.

يقول تعالي عندي إذاً، تقدرين أن تخرجي؟

تقول إنها مشغولة الآن، لكن هذا المساء، بعد أن تنتهي، الليلة لن تتأخر كثيراً، تنتهي قبل التاسعة، نلتقي هذه الليلة.

وتقول أكون في البيت بعد التاسعة، تعال أنت.

شعوره غير حسن وهي تتكلم. يعرف أنها شعرت بوجود خطأ. يعرف من نبرة صوتها. ويعرف لأنها لا تريد أن تأتي إليه. يعرف لأنه يعرف. أشياء غريبة تحدث في أعماقه هذه الأيام. كأن دهاليز لا يدري بوجودها تتفتح داخل جسمه. هذه الأحاسيس غير المفهومة. هذا الارتباك. هذا الصعود ثم الهبوط ثم الصعود.

تقول إنها مشغولة الآن لكنها أرادت أن تسمع صوته، ثم إنها اكتشفت شيئاً غريباً.

تقول إنها اكتشفت شيئاً غريباً في مخزن المطبخ، ليس المخزن المتصل بالمطبخ، هناك مخزن آخر، مخزن يتصل بالكاراج، بابه جنب المصعد، مصعد الزبائن العادي. مخزن صغير فيه أدوات

للمطبخ قديمة وأغراض، لم تدخل إليه من قبل، كانت بحاجة إلى طناجر وإلى مزيد من الصواني ودلّها الذي يساعدها على المكان، جاء معها ووجدت طناجر. حمّلته الطناجر وحملت طناجر أخرى لتلحق به، ثم أرادت أن تجلب شيئاً آخر، صينية رأتها جنب براد عتيق هناك، في زاوية المخزن المملوء برائحة أدوية الغسيل. وضعت الطناجر لتجلب الصينية، وبينما ترفع الصينية عن الأرض أحسّت بالهواء البارد على رقبتها. هواء فظيع البرودة كأنه يخرج من ثلاّجة. لكن البراد العتيق غير موصول بالكهرباء! بابه مفتوح وعلى رفوفه أكياس Yes، مسحوق التنظيف. البراد يستخدمونه خِزانة، ليس براداً، فمن أين يأتي هذا الهواء؟ قالت سيسليا إنها دفعت البرّاد قليلاً، استطاعت أن تدفعه، زحزحته من مكانه، فرأت وراء البرّاد فراغاً، ما يشبه الباب، لكن بلا باب. رأت مدخل ممر. أزاحت البرّاد بما يكفي كي تدخل ودخلت الممر. مشت فيه حتى تبدّد ضوء الكهرباء الذي يأتي من خلفها. وقفت في الظلام وكانت تعلم أن الممر لم ينتهِ بعد.

سمعان الساكت يسمع كلماتها شعر بقلبه يتجاوز خفقة. معدته انكمشت وهو يترقب تتمة الكلام. لكن سيسليا سكتت.

سألها سمعان ماذا فعلت؟

قالت إنها لم تفعل شيئاً. رجعت إلى المخزن وأعادت جرّ البرّاد كما كان. لم تعرف ماذا تفعل. لكنها، وهي واقفة في الظلام، فكّرت فيه.

يسألها متى حدث هذا؟

تقول البارحة، قبل أن نُقفل.

يسألها هل سألت الذين يعملون معها عن هذا الممر؟

تقول إنها لم تسأل أحداً.

يقول لماذا؟

تقول لا أعرف، لم أسأل أحداً.

يشعر أنها قطعت جملتها. يشعر أنها أرادت أن تقول «أردت أن أتكلم معك قبل.» لكنها سكتت. لماذا سكتت؟ لأنه قال إنه كان مع أصدقاء خارج بيروت؟

يقول إن الممر قد يكون مخزناً آخر، مخزناً قديماً غير مستخدم، أو ممراً إلى مخزن آخر، لماذا لا تسأل في المونوبري، الإدارة أكيد تعرف.

لكنه بينما يلفظ هذه الكلمات يشعر بالتعب. يتعب كأنه يركض في مكان خالٍ من الهواء. كأنه غطس تحت البحر.

تقول كيف يكون مخزناً، إنه طويل وضيق.

سألها ماذا تريده أن يفعل، يستطيع أن يلبس ويذهب عندها الآن، نصف ساعة، أقل، ربع ساعة ويكون عندها، ويتكلمان.

يقول إن صوتها يكاد لا يُسمع على الهاتف، وأفضل أن يتكلما بلا تلفون، عشر دقائق ويكون عندها.

تقول إنها لا تريد أن ترفع صوتها لأن المكان بدأ يزدحم، وتقول لا، لا تأتي الآن، نتكلم عند المساء.

يقول لماذا لا نلتقي ظهراً، أمرّ عليك ظهراً ونأكل معاً ونتكلم، أمرّ على المونوبري على الواحدة والنصف، اتفقنا؟

تقول لا، اليوم الشغل كثير، خصوصاً ظهراً، نلتقي في بيتي، الساعة التاسعة، بعد الدوام.

استلقى سمعان يارد على سريره. «هل أقدر أن أنام؟». لا الحليب ولا الليكزوتانيل ولا المكيف ينفع. يتقلب على سرير عريض. لا ينام. ثم يقوم من بين الشراشف المدعوكة.

أشعل الغاز وعمل ركوة قهوة أخرى. رأسه مملوء بالمسامير. ويشعر بضغط في صدره. حين فاحت رائحة القهوة قرر أنه لا يريد أن يشرب قهوة. دلق القهوة في المجلى وأخذ كوب ماء من البراد ومضى إلى أمام التلفزيون.

النور يندلق من الكوى العالية المدوّرة ويتموج على السقف. الهواء يدخل من النافذة. يحمل معه ضجة الطرقات القريبة (تزدحم الطرقات الآن بسيارات تنحدر إلى الجامعة اليسوعية، كل واحد يأتي بسيارته، والدروب تسدّها السيارات). يحمل أيضاً رائحة غير مألوفة. هذه ليست رائحة الحديقة والسنديانة خارج النافذة. ما هذه الرائحة الكريهة؟ مجارير؟ في الجهة الأخرى من جبل الأشرفية، هناك حيث قضى الليلة الفائتة، تهجم رائحة فظيعة على البيوت أواخر الصيف. مكب برج حمود تتخمر نفاياته بسبب الحرّ المتراكم. والمسلخ يُرسل غازات. تتحلل بقايا الذبائح. لكن تلك الروائح لا تبلغ هذه الجهة من الجبل إلا إذا هبّ الهواء قوياً. لا يسمع هواء في السنديانة، فلماذا تقوى هذه الرائحة الآن؟ يفتحون مجارير في أحد الشوارع المجاورة؟

سمعان يارد أقفل النوافذ وشغّل المكيف. مستلقياً على الصوفا العريضة الوثيرة أمام التلفزيون جرب أن يغمض عينيه لعله ينام. هذه الصوفا الأليفة. رائحة قماشها. خشبها المحفور القديم. المساند التي حفظ نقوشها. غرق في الصوفا وحاول أن ينام. من الخارج تأتي ضجة صباح الاثنين. لا تدعه ينام. هدير المكيف لا يطغى عليها. أبواق وأزيز ومدينة تركض. على الأقل تبددت تلك الرائحة. رويداً رويداً لم تعد تدخل أنفه. أين يركضون في الخارج؟ ولماذا يطلقون هذه الأبواق؟ الزمامير لن تفتح طريقاً في زحمة الحديد والتنك والزجاج.

على التلفزيون تعبر صور قرى مدمرة. أين هذه؟ كشمير؟ رفع صوت التلفزيون بينما صور أخرى تظهر: مدينة سقطت بناياتها. رأى بناية تركع مثل عجوز مكسورة المفاصل. سنة 1993 اعتاد أن ينزل إلى ساحة الشهداء ويتأمل أعمال التفجير. متى كان ذلك؟ سنة 1993 أم 1992؟ الوقت يمتزج بالوقت إذا مرّت الأعوام. يذكر البنايات المزنرة بالديناميت تهتز داخل سحابة فظيعة من الدوي والغبار ثم تتهاوى. ينظر ولا يفهم. بأي سهولة تقع هذه العمارات مع أنها مملوءة حديداً؟ كيف تقع هكذا؟ على التلفزيون يتحدث ضابط أمام ميكروفونات كثيرة. ضابط عالي الرتبة. هذا واضح من النجوم والنياشين. سمعان يسمع ولا يسمع. رأسه يطنّ. وصدره مضغوط. عليه أن يتصل بالمستشفى ويأخذ موعداً. هذا الضغط تحت أضلاعه يرهق الأنفاس. شارع مغطى بالركام ورجل يحمل طفلته ويسير بين عربات مقلوبة ودكاكين محطمة الأبواب. البضائع مطروحة على الدرب وأولاد يتقافزون فوق البضائع. كيف نجوا من الموت؟ شريط الأخبار أسفل الشاشة يقول إن جيلاً كاملاً قد دُفن تحت أنقاض مدارس باكستان. والمساعدات الدولية لم تصل بعد.

سيارات إسعاف وعمال إنقاذ بخوذ على الرؤوس وكمامات على الأفواه. يتسلقون حدائد بناية سقطت. ليست بناية واحدة. مجمع كامل من الأبنية تحول جبلاً من الباطون والحديد. يوجد أحياء تحت الأنقاض. أحياء في بطن هذا الجبل من الدمار. يسمعون أصواتهم تحت الركام. عمال يحملون آلات ثاقبة. يتسلقون الباطون المحطم. لم يكن في بيروت عندما نسفوا سينما ريفولي. كان مسافراً. عند رجوعه نزل إلى الساحة وللمرة الأولى رأى زرقة البحر الفسيح واقفاً عند تمثال الشهداء. كان المبنى العريض يسدّ البحر. تهاوى المبنى وجُرف الركام. أين يؤخذ هذا الركام؟ إلى مكب النورماندي؟ اليابسة تمدّ لساناً في البحر... رأى بعض التصاميم الأولية. هناك، قبالة اللسان الداخل في مكب النفايات، سترتفع أبراج من زجاج. لن يقدروا أن يفعلوا هذا مع مكب برج حمود. مكب النورماندي متصل بالوسط التجاري، بمركز المدينة الجديد. مكب برج حمود بماذا يتصل؟ بالضاحية الأرمنية. بمتاهة البيوت المكتظة وبأحياء اللاجئين القديمة الباقية على حالها منذ الحرب العالمية الأولى. إحدى صديقاته وصفت له بيت الطفولة: لا ماء فيه ولا كهرباء. لم يصدق. كيف هذا؟ بيت في بيروت بلا ماء وبلا كهرباء. هذا غير ممكن، قال لها. وصفت له بيوتاً من تراب وخشب وتنك. هذا يشبه ما يراه في التلفزيون عن المخيمات الفلسطينية. الأفضل ألا يفكّر في هذه الأشياء. العالم مملوء بالبؤس. «لكنه ليس عالمي»، فكّر سمعان يارد.

النوم القليل يجعله ضعيفاً. قلب التلفزيون إلى قنال أخرى. على «ناشيونال جيوغرافيك» رأى أفيالاً تقطع سهلاً أخضر، الأفيال مهددة بالانقراض في سيريلانكا. لم يبقَ إلا 2500 فيل. تراجعت الغابات أمام سهول الأرز والشاي. الإنكليز قطعوا الغابات. وألغام

الحرب الأهلية تقطع أطراف الفيلة. رأى فيلاً صغيراً ظهرت عظامه. شديد النحول. العظم يبرز من جلده. لا يتحرك على أربعة. إحدى قوائمه مقطوعة. حركته غريبة. يكاد بطنه يلمس الأرض وهو يتقدم. يحاول أن يلحق بالقطيع. شكله كالهرم. مدبب الظهر. لماذا يتفرج على هذا الفيل؟

كبس الريموت كونترول. نشرة أخبار روتانا. سافر الفنان. . . كبس الآلة مرة أخرى. الأحوال الجوية في أميركا الشمالية. كم درجة الحرارة في بالتيمور؟ كبس الآلة وهو ينعس. فيلم شاهده من قبل. من دون انتباه بدأ ينام. الآلة بقيت في يده، على حافة الكنبة، وسمعان يارد نام.

أيقظه الخليوي. فتح عينيه والتقط التلفون. هذا رقم روجيه. الساعة جاوزت الواحدة ظهراً. كم ساعة نام؟ أربع ساعات؟ يشعر بالعطش. عطشان. ترك التلفون يرنّ وذهب إلى المطبخ. شرب ثلاثة أكواب ملآنة واقفاً أمام براد الماء. ابتلت قميصه وهو يجرع الماء. كأنه قطع الصحراء الكبرى. ما هذا العطش؟ يشرب ويشرب ويشعر أنه ما زال فارغاً. ثم انتبه سمعان يارد أنه جوعان أيضاً. جوعان جوعاً مخيفاً.

اتصل بـ «زيت وزعتر» وطلب ثلاث مناقيش: زعتر وجبنة وكشك. يقدر أن يأكل خروفاً الآن.

هذا خروج على النظام الغذائي. لا يُفرط في تناول المعجنات. لكنه الآن جائع جوعاً لم يعرفه منذ زمن. ما هذا الجوع؟ لولا جنون البقر كان طلب لحمة بعجين أيضاً.

لم يتأخر الطعام. هو أنهى إعداد الشاي من هنا، والطعام وصل من هنا. بينما يُعد الشاي فتح البراد ونظر إلى قناني الحليب (دايري داي، بلا دسم) وإلى علب اللبن واللبنة (مزارع تعنايل) وإلى

قالب اسطواني من جبنة القشوان (هنغاريا). الخبز في الثلاجة. جامد كالجليد. بينما يفكّر في إخراج الخبز رنّ جرس الباب. الشاب الذي حمل الطعام إليه قال إنه تأخر بسبب الزحمة. الطرقات مسدودة. كلّها أمتار من الناصرة إلى غندور السعد لكن الطرقات مسدودة. سيارات على سيارات. عجقة فظيعة. الفاتورة 6 آلاف ليرة. أعطاه ورقة من فئة العشرة وقال له أن يأخذ البقية. الشاب شكره فرحاً وهو يتراجع عبر الحديقة ثم يخرج من البوابة الحديد ويردها خلفه ثم يتسلق الدراجة النارية الصغيرة.

بينما يأكل منقوشة الزعتر ويشرب شاياً (الآن الجوع بدأ يتراجع، التهم للتو «الجبنة» الساخنة) رنّ الخليوي. نظر سمعان إلى الرقم فرأى أنه 22. ما هذه الأرقام الغامضة التي تطلبه؟ أصابعه زيت. لكنه مسح أصابعه بالكلينكس سريعاً والتقط الخليوي. انقطع الخط في هذه الثانية. لا ينفع أن يطلب الرقم. جرَّب هذا من قبل. هذه الأرقام الغامضة غير موجودة. يطلبها فيقول الصوت بالفرنسية أن الرقم خطأ. هذا الرقم غير موجود. لكن إذا الرقم غير موجود فكيف يطلبه؟ وكيف يظهر على الشاشة؟ بينما يرشف الشاي رنّ الهاتف. لن ينهض الآن. لا يريد أن يردّ على الهاتف. إذا كان الأمر مهماً يتصلون به على الخليوي. من يتصل الآن؟ على التلفزيون تقرير عن أهرام الجيزة. قلب القنال على الرياضة. مباراة من الدوري الإنكليزي. مباراة قديمة بالأبيض والأسود. الملابس قديمة. شورت طويل إلى تحت الركبة. قصّات الشعر غريبة. طابة تكرج وبشر يركضون. الحركة سريعة. كانوا أسرع؟ رنّ الخليوي. هذا رقم روجيه.

قال روجيه إنه اتصل به على المكتب وأن رانيا (هذه إحدى الموظفتين) قالت إنه اتصل صباحاً وقال سيأخذ اليوم عطلة.

ـ هل أنت مريض؟

قال سمعان إنه لم ينم كفاية الليلة الماضية.

سأله روجيه أين هو؟

قال في البيت.

سأله لماذا لم يرد على تلفون البيت إذاً؟ وضحك ثم سأله ماذا يفعل؟

قال إنه يأكل.

ـ في البيت؟

سمعان قال إن الجميع يفعلون هذا، ليس وحده.

روجيه سأله ماذا يأكل؟

ـ مناقيش، قال سمعان، وأشرب شاياً.

ـ مناقيش الآن؟

قال سمعان إنه الآن استيقظ من النوم.

ـ طيب. نتعشى معاً؟

قال سمعان أنه على موعد مع سيسليا. لكن الموعد على التاسعة ويستطيع أن يراه قبل ذلك.

ـ سأتلفن لك ونتفق، قال روجيه. وأغلق الخط.

على التلفزيون تحقيق عن وكالة الاستخبارات الأميركية. أوجعه إصبعه وهو يكبس الزرّ وروجيه يتكلم. رمى الريموت كونترول على الصوفا وأنهى المنقوشة. بيتر غوس مدير CIA عنده مزرعة وسط فرجينيا مساحتها 230 هكتاراً. يُربي فيها أبقاراً وأغناماً ودواجن مع زوجته ماريل. يزرع خضراً وفواكه أيضاً. كلّها مزروعات عضوية بلا مبيدات ولا أسمدة كيماوية. الآن منقوشة الكشك. لونها الحلو الزهري. رائحة البصل الممزوج بالكشك.

سكان المنطقة يأتون إلى مزرعة غوس لشراء البندورة والتوت والإجاص. إذا كانوا محظوظين باعتهم السيدة غوس مربى من التوت العضوي الطبيعي تطبخه على نار الحطب. غوس خريج جامعة يل. منذ 1999 يريد أن يتقاعد. اشترى هذه الزرعة بمليون و300 ألف دولار. لكن الرئيس الأميركي جورج بوش طلب منه في أيلول (سبتمبر) 2004 أن يدير الـ «سي. أي. إيه». الحرب على الإرهاب في قبضته. لكنه في العطلة يرتاح في المزرعة. المكان هنا هادئ. ليس مثل واشنطن. غوش بقي في الكونغرس 16 عاماً. والآن ينتظر نهاية الحرب على الإرهاب ليترك إدارة الـ CIA ويقضي وقتاً أطول في المزرعة. سهول خضراء. سلسلة جبال بعيدة. وتظهر خلفها سلسلة أخرى. صناديق البندورة. انتبه سمعان يارد أنها تشبه البندورة الجبلية اللبنانية. هو أيضاً عليه أن يرتاح. أن يأخذ عطلة من هذه المدينة المتشنجة. مدينة مريضة ومثل مريضة لا تدري أنها مريضة. أعصابه تعبانة. عليه أن يتصل بأوتيل إهدن ويحجز غرفة. يرتاح قليلاً من هذه الضجة. هناك ـ في الشمال ـ الهواء بارد.

رنّ الخليوي. هذه سيسليا. كأنها خرجت من رأسه. كان يفكّر فيها وهو يفكّر في إهدن.

سألته أين هو.

قال إنه في البيت. قال إنه تعبان وأخذ اليوم عطلة.

ـ مريض؟

ـ عليّ أن أعمل الفحص السنوي.

ـ أخذت موعداً؟

قال إنه سيتصل الآن ويأخذ موعداً.

قالت إنها أرادت أن تسمع صوته.

قال إنه مسرور وإنه كان يفكّر فيها الآن.

ـ ماذا كنت تفكر؟

أخبرها عن خطة الأوتيل.

قالت إنها لا تقدر أن تأخذ عطلة الآن، لكن ربما بعد أسبوع أو أسبوعين.

سألها هل ما زالت متضايقة بسبب...

سكت ولم يكمل الجملة.

هي ساكتة. وهو ساكت. على التلفزيون إعلان لعطر فرنسي. انتهى البرنامج عن الاستخبارات الأميركية؟ دام السكوت ثواني طويلة. ماذا يربط بينهما؟ سلك التلفون؟ لكن تلفونه بلا سلك. تطلبه من هاتف بسلك، ويتلقى الاتصال على الخليوي. صديقه غابي أخبره أن الاتصال من الهاتف العادي يذهب أولاً إلى سنترال الدولة. ومن سنترال الدولة يذهب إلى شركة الخليوي. هنا يُحوّل ـ على آلة تُسمى «روترز» Routers ـ من اتصالٍ عادي (Analog) إلى اتصال خليوي (Digital). ثم تُبث الإشارة. كانا يتكلمان عن تحقيقات ميليس بخصوص الشركات الخليوية. القاضي الألماني اكتشف اتصالات مشبوهة سبقت عملية الاغتيال في 14 شباط (فبراير). على التلفزيون امرأة تركض على شط البحر. ودلفين يقفز من الماء.

قالت سيسليا إنها كانت تتكلم مع جهاد مسؤول قسم الأسماك وأنه أخبرها أن هذا المكان استُخدم ملجأ في الحرب وأنه أثناء «حرب الإلغاء» بين عون وجعجع تحول مخزناً للسلاح أيضاً. الممر الموجود في الغرفة جنب المصعد يتصل بمخزن. المخزن فارغ غير مستخدم. عندما اختفى الطبّاخ (اسمه إسكندر) فتش الدرك المكان.

سمعان قال إنها حين حدّثته في الصباح شعر كأنها تخبره كابوساً.

وقال إنه نام قليلاً لأنه أخذ دواء فرأى في المنام أنه يقف في الظلام ولا يعرف أين هو.

سيسليا ضحكت. وسمعان ضحك أيضاً.

*

دخل إلى الحمام ثم رجع إلى التلفزيون. وثائقي عن هونغ كونغ. سوق تبيع سمكاً مجففاً. أجنحة القرش، صفراء، يابسة، تؤكل مقلية. لماذا لا يطلب من سيسليا تعليمه الطبخ؟ ليس الطبخ صعباً. يراقبها دائماً. لم يطبخ شيئاً في حياته. حتى البيض ـ إذا أراد أن يأكل بيضاً ـ لا يأكله إلا مسلوقاً. لا يعرف أن يقلي بيضاً. إذا أراد أن يأكل بيضاً مقلياً ذهب إلى مطعم وأكله. «في الأربعين من عمري ولا أعرف كيف أفقس بيضة على السمنة أو الزيت!»، فكّر سمعان يارد.

رنّ الخليوي. ثم سكت.

ساعة سباحة تحرق هذه المناقيش. لبس ثياب الرياضة وأخذ حقيبة (فيها محفظته والتلفون ومناشف وشورت وتي - شيرت ومفاتيح) ثم خرج من البيت. انحدر من غندور السعد إلى هوفلين. الساعة جاوزت الثلاثة بعد الظهر، والطلاب يخرجون ويدخلون من المطاعم والمقاهي في جوار اليسوعية. لم يمر أمام مدخل الجامعة المزدحم بالأجسام وبالسيارات الخارجة من الكاراج تحت الأرض. انعطف يميناً ومضى في شارع أيوب ثابت الساكن الطويل. عن يساره تمتد أطلال اصطبلات اليسوعيين. كم مرة أخبرته جدته عن الآباء اليسوعيين في جبّاتهم الطويلة راكبين على الأحصنة يعبرون هذه الطرقات التراب؟ الإسفلت غطى التراب. الاصطبلات الحجر العتيقة لم يبقَ منها إلا هذا الحائط بنوافذه المشبكة بالحديد يعلوها الصدأ. تحولت المساحة مواقف سيارات. صعد إلى الرصيف ثم هبط عنه. سيارة هوندا حمراء أمام حضانة «السيترونيه»: طفلة في فستان أبيض تبكي وتقفز على أمها. جاوز الحضانة وعبر تحت أغصان الخروبة اليابسة (في فصل الربيع يراها تخضر، وفي أول الصيف يرى ظروفها الملآنة تتدلى كظروف اللوبياء).

بعد الخروبة ملهى ليلي لا يدخل إليه إلا في مرات نادرة. وبعد الملهى منشرة قديمة تفوح برائحة الخشب. المنشرة قبو عقد يحتفظ

ببوابة خشب من أزمنة منقضية. في الداخل يشتغل أخوان عجوزان أحدهما يلبس فانلة. ينعطف عند صناديق النفايات (يرشون الكلس حولها لكن الكلس يصير أسود ويلتصق بالإسفلت كالعجين) ويذهب إلى الرصيف الآخر. شارع كلية مار يوسف يمتد أمامه، لكنه يقطعه بخطى سريعة. الطريق ليست طويلة إذا أراد أن يخطو سريعاً. كان يركض مسافات طويلة من قبل. ويلعب كرة قدم. بعد المرض في الثمانينات كفّ عن ذلك. فقد صلته بالفريق. تعالج عند ثلاثة أطباء. الأول من عائلة نقّاع، يمت بصلة قربى إلى صاحب أبيه جورج نقّاع. الثاني إلياس كرم. الثالث فيليب غاشيه، الوحيد الذي نفعه، لم يعالجه في بيروت. عالجه في ليون (فرنسا). مكتبة الشدياق مقفلة. منذ سنوات والدكان معروض للبيع ولا أحد يأخذه. كل علب الكهرباء في هذا الشارع مكتوب عليها بالحبر «مطانيوس». اسم الجابي أم ماذا؟ لعلها اشتراكات في مولد كهرباء. تذكر الخيّاط الشدياق. أبوه كان يقصده. يذكر رجلاً في الحيّ مات وخاط له الخيّاط بدلة أخيرة. ألبسوه البدلة لكن البنطلون كان طويلاً. أبناؤه وبناته أصرّوا أن يأتي الخيّاط ويصلح البنطلون (يطويه ويُقصره بالخيط والإبرة) بينما المرحوم يستلقي في تابوته.

قطع الساحة البيضاء الفارغة ودخل الطريق جنب سينما سيتي بالاس. مضى وراء اللعازارية ثم وراء «التياترو» الذي لم يكتمل ترميمه بعد. تجنب عمداً المرور في شارع الأمير بشير ومنطقة البرلمان. المنطقة تزدحم الآن بالمعارف والأصدقاء وهو لا يريد أن يقطع رياضته. عَبَرَ وراء موقف سيارات ثم دخل الطريق المسدودة بحواجز الحديد أمام مبنى الأسكوا. تذكر أنه يحمل حقيبة فبقي بعيداً من رجال الأمن وجاوز الحواجز وقطع التقاطع الذي يواجه مطعم بلادور للفول والحمص والفتّة. لم يدخل شارع المصارف. ذهب

يساراً باتجاه تمثال عمر الأنسي القصير الواقف يرسم لوحة تحت أشجار السنط والجميز بينما العصافير تتطاير. عملوا على الأشجار بيوتاً من خشب للطيور. الأنسي يواجه الطريق. حوله تماثيل غزلان أيضاً. مرَّ سمعان يارد أمام نوافير الماء تحت السراي العثماني الكبير وسرّع خطوته أكثر. الإندورفين يُضخ في الدم الآن. هورمون السعادة. كأنه يرتفع عن الأرض. معنوياته ترتفع. وذكرى الليلة الفائتة تتلاشى تماماً. سيسليا أيضاً بدت أحسن حالاً في التلفون الأخير. تحته حدائق. رائحة ياسمين. فتيات وفتيان في ظلال الخمائل. حمامات رومانية وآثار. مقاعد يتوزعها موظفون يأكلون سندويشات. انحدر جنب كنيسة الكبوشية. الكوى المدوّرة التي يتأملها. في الكنيسة. وفي السراي. أطلّ وادي أبو جميل. يذكره بعد الحرب. يأتي إلى هنا ويسير بين الأبنية المدمرة. إميلي جاءت معه أكثر من مرة. تحمل الكاميرا وتقفز بين الركام. لم تأتِ في المرات الأولى. كانوا ما زالوا يخافون الألغام. ذهب في خطٍ مستقيم وراء «بنك عودة مجموعة عودة ـ سرادار». لا يريد أن يسير على الرصيف جنب الطريق العام. لا يريد أن يلتقي أحداً يقطع عليه هذا المشي السريع. فوقه الفيلات مصفوفة في ظل السراي. مرّ بين ورشتين وفكّر أنها مدينة غريبة هذه المدينة. كل هذه الاغتيالات والتفجيرات والتوتر والخوف من تجدد الحرب الأهلية ومع هذا ترتفع هذه العمارات. مدينة كاملة تظهر الآن بين باب إدريس وأطلال سان جورج. غابة بنايات ملفوفة بالستائر! شبك أخضر وداخل الشبك عمال بخوذ ملونة يتراكضون مثل النمل ويرفعون ألواح الزجاج ويلحمون الحديد على الحديد. آلات تجبل الباطون وأوناش ترفع الحجارة وغبار يغطي السماء. الإندورفين يملأ بدنه ومنظر الورش يرفع معنوياته. «هذه العمارات التي ترتفع نذير خير»، يفكّر سمعان

يارد. ليس بعيداً من بيته يرتفع برجان جديدان. «يارد للاستشارات» عملت التصميم الأولي (www.ashrafiehtower.com). هو وابن عمته انطوان خوري أعدا الخريطة الأولى. كل شقة مساحتها 560 متراً مربعاً. البرجان على تقاطع عبد الوهاب الإنكليزي مع طريق الدوماني النازلة صوب غندور السعد. ابن عمته كان يفكّر في شراء شقة في هذا المشروع. بعد اغتيال الحريري غيَّر رأيه.

سبح ساعة كاملة في المسبح الشتوي لأوتيل فينيسيا. استحم وتنشف، وبينما يتنشق اكتشف أنه نسي مزيل الرائحة في البيت. عضلاته تنتفض. إحساس حلو. يقدر أن يسبح أكثر بعد. أبوه كان يسبح كسمكة. جده كان ينزل إلى البحر في الشتاء إذا هدأت الأمواج. يسبح في البرد ويخرج وأسنانه تصطك وهو يضحك. ماري سبّاحة. وإميلي سبّاحة. جوزفين كانت تسبقه في سباق المئة متر. ما زالت تسبح معه في المنامات. الناس كانوا يظنون أنهما توأم. وجهها يشبه وجهه شبهاً غريباً. تكبره بسنة. لو لم تخرج من البيت في ذلك النهار البعيد، لو بقيت على قيد الحياة، كم يكون عمرها الآن؟ 41 سنة. في ألبومات العائلة صور فوتوغرافية لا تحصى لجوزفين. كانت تحبّ أن تتصور. خُطفت على معبر المتحف. لم يعرفوا عنها بعد ذلك شيئاً.

سار على كورنيش المنارة ينظر إلى البحر. المكان لم تشتد زحمته بعد. المساء لم يحل بعد. عند الحافة رجال يُدلون خيوطاً إلى البحر. صنانير الصيد مسنودة إلى الدرابزين الأزرق. صبي على دراجة. بائع كعك بسماق وزعتر. رجل يدفع عربة عليها علب فستق. على عربة أخرى قدر تفوح منها رائحة الفول. أمام القدر حبّات ليمون حامض مصفوفة، صفراء، تبرق. نساء يعبرون بخطى واسعة. إيشاربات على الرؤوس تخفي الشعر. عربة محملة بأكواز

الذرة المسلوقة. البخار يتصاعد فوق رجال يتناقشون. نقاش حاد. يتكلمون في السياسة. ما يجري في البلاد. ميليس في جنيف للقاء كوفي آنان لكنه عائد إلى بيروت الليلة. كتب التقرير؟ لا. لم يكتبه بعد. هبّ نسيم البحر. رائحة غريبة في الجو. كفّ عن التنفس من أنفه وسرَّع خطوته. عليه أن يدور ويرجع. إذا مشى أكثر تعرق من جديد. ثم أنه مشى وسبح كفاية. لا يريد أن يتعب. انتبه أن الناس يبدون متوترين. لأنه رمضان. هذه «الغربية». هنا الناس يصومون. بلا طعام أو شراب من الصباح حتى اللحظة. هذا ليس هيّناً.

دخل إلى «ماكدونالدز» واشترى قنينة ماء نصف ليتر وشربها واقفاً ينظر من الزجاج إلى الكورنيش والسيارات والبحر. وقت الإفطار يدنو. هذا يظهر في الوجوه. في حركة الأجسام. نظر إلى ساعة المطعم ثم خرج. الماء أنعشه. جسمه كان في حاجة إلى الماء. شعر بذلك حين أحسّ وجوماً في عينيه. كأن العضلات عند المحجرين تتقلص. قطع الطريق أمام أوتيل فينيسيا راكضاً. السيارات تخرج مسرعة من النفق. عَبَرَ جنب الفندق الزهري الدائري (مونرو) وذهب في طريق أحمد شوقي ناظراً إلى أعلى، إلى الفندق الجديد الذي يرتفع وراء صف نخلات. فندق دائري أيضاً، لكن بإسلوب مختلف، وقمته تشبه شراع السفينة. نام ليلتين في «برج العرب» أثناء زيارة عمل إلى دبي. كان يستيقظ في وقت باكر ـ لأنه لا يألف النوم إلا على سريره في بيت غندور السعد، ورأسه على مخدته ـ فيفتح الستائر ويراقب من النافذة الفسيحة البحر الأبيض يترامى أمام عينيه. كأنك تنام في برج مرفوع في قلب البحر. في فندق في مرسيليا (الفندق الأزرق) عرف الشعور نفسه. ماذا يبقيه في بيروت؟ لماذا لا يسافر إلى فرنسا، أو بالتيمور؟ ماذا يبقيه في هذه المدينة؟ لكنه يألف هذه الطرقات. كل حياته عاش هنا. لم يسافر

بعيداً من بيروت مرةً إلا وأحسّ كأنه ترك نصفه وراء ظهره. كأنه مقسوم نصفين. نصف يتحرك في شوارع نيويورك أو لندن أو طوكيو أو ليون، ونصف قاعد في انتظاره ببيروت. النصف الذي يتحرك في شوارع مدن أجنبية مسرور وغير مسرور. والنصف الذي ينتظر في المدينة الأولى ـ في البيت في غندور السعد ـ ليس مسروراً ولا هو غير مسرور. إنه فقط ينتظر. لا يتحرك. يمكث جامداً كأنه يتأمل التلفزيون المطفأ. يمكث جامداً والليل يمرّ عليه والنهار يمرّ عليه وهو كالبطاطا، مثل شتلة تنتظر من يسقيها ماء.

شركاؤه هاجروا. أقاربه هاجروا. ماري هاجرت. إميلي هاجرت. أضدقاؤه يخططون للهجرة ويارا تتمنى لو تقدر أن تجد بلداً ولا تعود. لماذا يتمسك بهذه الشوارع، لماذا يتمسك بهذه المدينة؟ ماذا يبقيه؟ هواء رطب مالح يخشخش في النخلات. صديقة إميلي (كلوديت سعادة) عملت رسالة دكتوراه في السوربون عن الهجرة من جبل لبنان في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر. تقول إن الكتب المدرسية والمؤرخين المحليين يقدمون نظرية واحدة: الجبل كان فقيراً والناس بحاجة إلى المال بعد تراجع صناعة الحرير الطبيعي. الحاجة إلى المال ـ إلى الذهب ـ أخذت اللبنانيين إلى وراء البحار. صديقة إميلي قالت إن هذه النظرية تتناسى شيئاً مهماً: حروب جبل لبنان الأهلية عند منتصف القرن التاسع عشر. الحروب الطائفية أحرقت قرى الجبل وأفضت إلى تدخل الدول الأجنبية وإقامة نظام المتصرفية. في زمن المتصرفية سيطر السلام على جبل لبنان. أثناء زمن السلم هذا بدأت الهجرة الواسعة إلى أميركا وأفريقيا. هذا لا تتطرق إليه الكتب المدرسية. لكنه مهم. البشر لا يتركون بلادهم في زمن الحرب. أولاً ليس سهلاً أن تجمع أغراضك وتنتقل إلى بلدٍ بعيد في زمن الحرب. ثانياً الحرب تنزل

كالصاعقة ولا تسمح لك بالتفكير. ثالثاً الإنسان ـ وهذا غريب ـ يمتلك القدرة على التأقلم مع الحرب. في لحظة الخطر الشديد تتحرك غدد في الدماغ وتفرز مواداً تساعدك على مواجهة الخطر. الإندورفين مادة من هذه المواد. هناك علماء في أميركا صمّموا أدوية للاستخدام العسكري. أدوية تجعل الجنود لا يخشون الموت أثناء المعارك. إميلي قالت إن صديقتها عملت بحثاً طويلاً عن هذه المواد والأدوية. إذا أكلت شوكولا تشعر بطاقة في جسمك. إذا أكلت الفليفلة الحارة أيضاً. هذا كلّه من الإندورفين. سمعان تذكر طبيبه الفرنساوي. كان ينصحه بالرياضة. ويقول المشي السريع أحسن من الركض. أهالي جبل لبنان لم يهاجروا أثناء الحروب الأهلية. هاجروا في وقت السلم الأهلي الذي أعقب الحرب. لماذا هاجروا؟ صديقة إميلي قالت إنهم هاجروا بسبب الخوف. الخوف من المستقبل يأتي أقوى بعد الكارثة. بعد الزلازل أيضاً يحدث ما يشبه هذا. الناس يخافون عودة الوقت الأسود. الخوف سبب أساس. فقدان الثقة بالمكان أيضاً. إذا كانت الأماكن تحترق بهذه السرعة، بين ليلة وضحاها، فكيف لا نخاف؟ بعد الحروب تتكاثر الوساوس والكوابيس. لبنان أكبر سوق للأدوية المضادة للاكتئاب في الشرق الأوسط. صديقة إميلي تقيم الآن في مونتريال (كندا). تكتب كتاباً عن الهجرة من بيروت بعد الحرب الأهلية في الربع الأخير من القرن العشرين. الأرقام التي تجمعها تقول إن ما يقرب من ربع سكان لبنان غادروا البلاد إلى أميركا وأوروبا وأستراليا بعد انتهاء الحرب سنة 1990. غسل سمعان يارد وجهه في مياه البركة تحت السراي العثماني الكبير.

أمام الأسكوا زحمة. في «حديقة جبران» المجاورة ما زالت الخيمة منصوبة. أهالي المفقودين يعتصمون هنا. عجائز يحملن

صور المفقودين. أبناء وأخوة وأزواج وأحفاد فُقدوا آخر الحرب. 15 سنة مضت ولم يرجعوا. العجائز قاعدات على مقعد تحت شجرة صغيرة لم تتسع ظلالها بعد. إحداهن تفتح ربطة خبز. أخرى تفتح علبة مارتديلا «زوان». الصور الفوتوغرافية معلقة على لوح خشب، معلقة على أعمدة، معلقة في مداخل الخيمة، معلقة داخل الخيمة. صور كثيرة. شاب طويل السالفين طويل الشعر، بقميص أبيض عالي الياقة. رجل يضحك. فتى يبدو في السابعة عشرة يرفع علامة النصر. صور حال لونها. باتت صفراء شاحبة.

سمعان يارد يعبر وراء البنايات المرممة. عليه أن يمرّ على البيت وأن يستحم ويُغيِّر ثيابه ثم يذهب إلى سيسليا. العجائز حاملات الصور أمام «تمثال جبران» يُذكرنه ببيتٍ في الحيّ، بيت قريب من «أفران الحايك». أُقفل البيت سنة 1976: أثناء «حرب السنتين» تركه أهله وسافروا خارج البلاد. منذ ذلك الحين لم يدخله أحد. الباب موصد بسلاسل الحديد. والنوافذ موصدة. الأشواك غطّت المدخل. تسلقت الدرج. العشب البرّي أكل الحديقة. طيور لا تُعد تطير من أشجار سوداء يابسة. تحوم حول بناية جديدة (L'Hermitage) سطحها مزروع بشربينات خضراء قزمة. تدور الطيور في الفضاء، ترسم أقواساً غامضة، ثم ترجع إلى الحديقة المهجورة.

أراك من هنا يا سمعان. أراك تحت الكؤوس الرومانية الحجر المعلقة إلى الحائط الحجر فوق البركة ذات النوافير. لا تراني وأنت تغسل وجهك وتشعر بألم خفيف في عضلاتك. لكنني أراك. أراك واقفاً أمام البيت القديم المقفل، بالقناطر والأباجور الأخضر، تنظر إليه وتستدير وتنظر إلى طبقات برج المرّ. هذا مهجور. وذاك مهجور. المدينة تعجّ ببيوت مقفلة منذ 30 سنة. بيوت غير مسكونة منذ ثلاثين سنة، لا يراها أحد، مخفية وراء بيوت مسكونة، مخفية في طرق فرعية، وحتى البيوت الظاهرة على الطريق العام تبدو غير مرئية. العين اعتادت منظر هذه الأشجار، منظر هذا الأباجور المقفل. العين تنزلق على سطوح البيوت ولا تفكر. بيوت فارغة. مرئية وغير مرئية. وعلى أشجارها يعمل الدوري الأعشاش.

على الطريق من برج المرّ إلى «مصرف لبنان» (الحمرا) بيوت موصدة كثيرة تحتجب وراء حائطٍ عالٍ. الحائط يبعد عنها العيون. لكن الأبواب الحديد في الحائط ملأها الوقت بالثقوب. إذا نظرت من الثقوب رأيت قصوراً تتساقط. وأدراجاً تطلع إلى ثقوب مظلمة. وشوكاً ينبت على الأدراج. يعربش على أشجار يابسة. لماذا تبقى هذه البيوت موصدة؟ هنا وهناك تتباعد ورش بناء. ضجة وغبار وحركة.

هل تذكر حارة سليم سرور وراء السراي؟ حارة قرميد بثلاث

طبقات، تذكرها؟ هُدِمت ولم يبقَ منها حجر. لكن بقيت صورتها في بطاقة بريدية. الآن يبنون الحارة على صورة البطاقة. البطاقة البريدية على الطاولة. والخريطة على الطاولة. يبنون الحارة كما كانت قبل أن تهدمها الحرب. لولا تلك الصورة، لولا تلك البطاقة، من كان سيتذكر الحارة، وهل كانت تُبنى من جديد؟ غداً حين تكتمل الحارة يقعد أهلها الجدد على شرفة الطبقة العالية وينظرون إلى نوافذ السراي وإلى قرميد السراي. إذا زاحوا نظراتهم قليلاً رأوا البناء الحديث الأخضر الزجاج الذي يحوي «السفارة اليابانية».

أراك وحيداً يا سمعان. تريد أن تعرف ماذا يشدّك إلى هذه المدينة، ولا تعرف. كأن مصرانك مربوط بمصارين بيروت. ولا تدري لماذا. تقطع الدروب وعيناك تشربان البنايات والشوارع والزوايا. أبواب حديد مطرقة. حيطان مصقولة. كم مدينة تختفي في بطن هذه المدينة؟ ساعات قليلة ترى فيها هذه المدن كلّها. ليلاً، عندما دفعت النافذة إلى الخارج، وسمعت الأباجور الخشب يطرق الحائط ثم يرتد في الظلام، قفز قلبك. لم يقفز بسبب الخبطة. لم تخف من الصوت. لم تخف أن يوقظ الصوت المرأة العارية تحت الشراشف. المرأة مثلك شربت كثيراً قبل النوم. من أنفاسها تدري أنها غارقة في نومٍ عميق. إذا قصفت المدافع الآن لن تفتح عينيها. «وأنا لولا الصداع ما استيقظت».

قفز قلبك عندما دفعت الأباجور إلى الخارج. انكشفت أمامك أنوار المدينة. وانكشف أمامك البحر، قطعة من البحر، تتلامع عليها مصابيح الكهرباء. بدا البحر مرآة سوداء تتلألأ بالأضواء تحت الجبل الأسود. نظرت إلى الجبل الأسود، نظرت إلى مكب النفايات المقفل، وتذكرت ما قرأته في الجريدة عن الجرذ المقيم في بطن المكب.

إذا مات الواحد قبل أن تأتي ساعته تبقى في جسمه حياة. ماذا يصنع بهذه الحياة الباقية وهو ميت؟ هذه الحياة الباقية لا تدعه يرتاح.

أقعد في هذه الغرفة الطويلة كممر، أقعد في نهاية الممر وأكتب إليك. على الرفوف حولي كتب. هذا المكان كلّه كتب. هذا المكان مكتبة. الحيطان من الحجر الأبيض. ورفوف المكتبة من الخشب الأحمر. يأتي عجوز بين حين وآخر ويضع أمامي كوب ماء. لا يلهيني عن عملي. لا يقول لي شيئاً. مرات يأتي ويحطّ الكوب ويبتعد من دون أن أنتبه إليه. التركيز على الكتابة يشغلني عن الأشياء. وأنت تكتب تكون في مكانٍ بعيد. مكان لا أحد غيرك يقدر أن يدخل إليه. وإذا كان ما تكتبه جيداً يأتي يوم ويذهب آخرون إلى ذلك المكان. لكن الآن ـ بينما تكتب ـ لا تفكر في هؤلاء. تفكر في كلمات. رأسك يفور ثم يسكن. لحظة تتوالى الصور والذكريات ولحظة تتلاشى. الظلمة ثم الضوء. وعليك البقاء على استعداد. وعليك أن تبذل جهداً أكبر. هذا الألم في المحجرين، هذا الصداع الذي يُزنر الدماغ، هذا كلّه ثمن صغير. لا نفعل هنا غير هذا. القراءة. والكتابة. القراءة أهم من الكتابة. كلّنا هنا نقرأ. وكلّنا يأتي يوم ونكتب. على صفحة واحدة يكتب الواحد سيرة حياته من البداية إلى النهاية.

جئت إلى هنا وأنا صغيرة. كنت أفكر أنني «امرأة شابة». كيف لا أكون «امرأة شابة» وأنا أدرس الهندسة في الجامعة وعندي صاحب يحبني ويقاتل من أجل ابقائي في فراشه ليلة تلو ليلة تلو ليلة. كان يأخذني إلى المطاعم، إلى السينما، إلى البحر، إلى ثلوج فاريا، وكان يأخذني إلى شقته. يطبخ لي طعاماً طيباً ويغمرني بالهدايا. لا أنسى الأشياء التي كان يعملها لي. ويعملها معي. كيف

أنسى؟ أغمض عينيّ الآن فأتذكر أصابعه، أتذكر كتفيه، أتذكر ظهره. كيف أنسى؟ حتى قدميه أذكر.

الضربات على رأسي. لماذا أُضرب على رأسي؟ كنت خائفة من تمزيق ثيابي. خائفة أن يمزقوا ثيابي التي أحبها، وخائفة من عيونهم وأسنانهم وأصابعهم. لم أظن أنهم سيضربون رأسي على الحائط. أذكر الألم في أنفي. الألم بين العينين. ذكرى بعيدة. لكنها ما زالت محفوظة. لم تتبدد. أسقط على الأرض. أطرافي تسيل كالماء وأتساقط. أظن أنني سأُترك الآن. أو لعلهم الآن يمزقون ثيابي ويفعلون ما يفعلون. لكن أحداً لم يمزق ثيابي. البلوزة الخضراء. التنورة الرمادية. تنورة من الصوف الرمادي منقطة بالأزرق. هدية. لم أشترِ أنا هذه التنورة. البلوزة ليست هدية. أنا اشتريتها. في بروكسل اشتريتها. أذكر المطر في ذلك النهار. وأذكر ـ والأكياس المملوءة معنا ـ وقوفنا أمام مطاعم، مطاعم في ساحة مبلطة واسعة، فوقنا سقوف منحدرة، والمطر يسيل عن السقوف ويقطر على برك ماء متجمعة: المطاعم مفتوحة على الممرات أمامها، ورجال يطبخون في قدور ضخمة. مهرجان من الطعام والشراب. رجل يدلق قنينة نبيذ في القدر الواسعة، وبيد أخرى يمسك ملعقة خشب طويلة ويقلب البطاطا المهروسة الممزوجة بالحليب والفطر. خلفه رجل آخر يقطع خنزيراً يُشوى على مهل. زحمة وأنفاس وبخار وموسيقى. البلوزة الخضراء في الكيس الأحمر عليه علامة المتجر. نشرب نبيذاً أحمر ونتضاحك ونأكل شرائح اللحم المحمرة من علبة كرتون بغطاء سوليفان. نأكل بالشّوك البلاستيك البيضاء وبالسكاكين البلاستيك. اللحم وصل أولاً. ثم وصلت صحون البطاطا العميقة. بطاطا بيريه بالنبيذ. نأكل واقفين. الطاولات مدوّرة عالية تشبه براميل النبيذ. الموسيقى تمتزج بوشيش

المطر، بالضحكات، بالوجوه المحمرة الفرحة، بالماء يقطر من السقوف المائلة. . . ماذا كنت ألبس؟ بنطلوني المخمل بقّعه الرذاذ. أذكر البقع تنتشر على بنطلوني المخمل. أذكر دفء الطعام. أذكر التعب في ساقيّ من المشي الطويل في الأسواق. منذ الصباح نسير. أذكر النبيذ. طعمه على لساني إلى الآن. وأنا أكتب هذه الكلمات أشعر بالحاجة إلى البكاء. لكنني لا أبكي. أنظر إلى تنورتي الصوف، تنورتي الرمادية المنقطة بالأزرق، أنظر إلى تنورتي الصوف ولا أبكي. جئت إلى هنا وأنا ألبسها. ما زلت ألبسها. كل هذه الأعوام ولم يبلَ صوفها. هنا لا تبلى الثياب.

ضربات على الرأس. لطمة فظيعة على أذني اليمنى. ثم وجهي على البلاط. لعله لم يكن بلاطاً. لعل أرضية الغرفة كانت باطوناً. لا أدري. لكنني أذكر الجليد يطلع من الأرض ويغزو وجهي. هذا آخر ما أذكره من عالم الأحياء. الدم يسيل من أنفي، يسيل من أذني، يسيل من عينيّ، والجليد يطلع من الأرض ويدخل في رأسي، يدخل في أصابعي، يدخل في بطني، يدخل في فمي. لساني تجمد. أردت أن أقول شيئاً. أسكتني البرد. كنت أرتجف والجليد يغزو وجهي والظلمة تملأ عينيّ. ثم تلاشيت.

البرد. هذا آخر ما أذكره من عالم الأحياء.

أفتح عينيّ فأرى القمر أبيض مدوّراً في السماء الكحلية وأعرف أنني لم أمت. فتحت عينيّ ورأيت القمر أبيض مدوّراً في السماء الكحلية وعرفت أنني لم أمت. لم أمت. وهذه سماء الليل. وهذا البدر يضيء المدينة النائمة. لم أمت لكن أين أنا؟ وما هذا الألم الفظيع في رأسي؟ ألم؟ كلا، ليس ألماً. ذكرى الألم. لا ألم الآن. فقط ما يشبه طنيناً في طبلة أذني، حيث تلقيت اللطمة الأخيرة. أريد أن أمسح الدم عن أنفي لكن الدم جفّ، تيبس. شعري أيضاً جفّ الدم عليه. تشابكت الخصل، باتت قاسية كالعجين. أفرك الدم اليابس عن شعري لكنه لا يتساقط. صار كالصمغ ملتصقاً برأسي.

لم أمت لكن أين أنا؟ أغمض عينيّ فأشعر بحركة في الظلام وتقع عليّ بطانية. أعرف أنها بطانية صوف، أعرف أنها غطاء من قبل أن أفتح عينيّ. من رمى هذا الغطاء عليّ وأنا ملقاة في العراء، لا أعلم.

أريد أن أتحرك، أن أنهض، لكن جسمي ثقيل. ضربوني طويلاً. بأعقاب البنادق. بالجزم الضخمة. وبعصا خشب كأنها رجل طاولة. لماذا ضربوني؟ قلت لهم قولوا لي ماذا تريدون، لا تضربوني. وأهلي معهم مال. لا تضربوني. اتصلوا على هذا الرقم وقولوا اسمي وقولوا أنكم... لكمني رجل على فمي. كسّر

أسناني. كسر سنّاً واحدة. لكنني شعرت بأسناني كلّها تتخلخل، توشك أن تقع من فمي. لكمني من جديد ولم أكن أريد إلا أن أبصق. خفت أن أبلع سنّي المكسورة.

الآن انتهى كل ذلك. فتحت عينيّ ولمست البطانية وشعرت أنني دافئة. أين بلوزتي الخضراء؟ لماذا أخذوا بلوزتي الخضراء؟ على الأقل تركوا لي الفانلة الرمادية القصيرة. والتنورة؟ التنورة أيضاً بقيت. أشعر بها مدعوكة تحتي. عليّ أن أنهض. الأرض موحلة. وأرى ـ بعيداً ـ عيوناً بلون الخردل تحدق إليّ. ماذا تكون؟ أرانب؟ فئران؟ كلاب؟ ماذا؟ أين أنا؟

أنهض مع أن جسمي شبه محطم. أشعر بعطش شديد فجأة. متى شربت آخر مرة؟ متى خطفوني؟ قبل ليلة، ليلتين، ثلاث ليال، أكثر، أقل؟ أريد أن أتذكر لكن ما أذكره ليس قريباً. كل ما أذكره يبدو بعيداً. تعود إليّ مثلاً طرقات بروكسل. عطلة نهاية الصيف. وكم امتلأت سروراً وأنا أجول حرّة في أسواقٍ لا تنتهي. متاجر تتبعها متاجر. والحقائب لن تسع هذه الثياب. أشتري لي. وأشتري للجميع هدايا. على التلفزيون مساء لا أتابع نشرة الأخبار. أيام ثم نرجع إلى بيروت ونغرق في أخبارها. الآن أتمتع بوقتي. الطعام والصحبة والتبضع. زيارة الأماكن التي تستحق الزيارة. وتأمل الحمائم في الساحات. فيليب يقول: انظري، كلّها أقدامها حمراء، الحمائم البيضاء والحمائم الرمادية والحمائم السوداء، كلّها أقدامها حمراء، انظري!

الآن لا أرى إلا القمر، أبيض كالقطن، كامل الاستدارة، يشبه عيناً عملاقة ترقبني من فوق. المدينة تمتد عن هذا الجانب، عن ذاك الجانب، صامتة، ميتة، بلا صوت. لا التلفزيونات توجّ في النوافذ، ولا الرصاص يشرقط في السماء. أين أنا؟ أعرف فجأة أين أنا: أرى

الأعمدة الرومانية والسروات وأرى درجات المتحف. أنا على المتحف! أنا على المعبر! أنا على خط التماس بين الشرقية والغربية. كنت هنا عندما صرخ صوت خلفي. كنت هنا عندما رأيت رجالاً على وجوههم أقنعة يركضون نحوي. لم أرَ في أيديهم الرشاشات. ثم رأيتها. كانوا يضعون أقنعة أم يلبسون في رؤوسهم أكياساً؟ ماذا جرى بعد ذلك؟

أشعر بعطش شديد. كم ليلة بقيت عندهم؟ ماذا صنعوا بي بعد أن غبت عن الوعي؟ لا أذكر شيئاً. أتلمس جسمي وأشعر بالبرد. البرد؟ لا ، ليس البرد، بل ذكرى الشعور بالبرد. الآن، لا أشعر بالبرد، انتهى البرد. أين أذهب؟

هل أدور حول هذه المتاريس والبراميل وأتسلق هذه الدروب إلى «أوتيل ديو»، إلى الأشرفية؟ هذه الدروب يقع عليها رصاص القناصة. من هنا أرى القمر ينعكس على نوافذ الأشرفية، نوافذ البنايات العالية. لكن لماذا تبدو المدينة مهجورة هكذا؟ مهجورة وسوداء.

أريد أن أدور حول المتاريس لكنني أرى عيوناً بلون الفوسفور تطلّ من فوق الأكياس. أكياس رمل وأكياس باطون. أخاف وأبتعد. عليّ أن أحاذر. أن أتحرك في خطٍ مستقيم. ألا أدخل خطأ إلى الجهة الأخرى. القمر أبيض ينير الطرقات والمتاريس والعمارات والأشجار المغبرة. لا أسمع صوتاً. أغصان تتمايل وورق أصفر يرتعش. لكن بلا صوت. كأنني أصبت بالطرش.

أسير على خط التماس من المتحف إلى السوديكو. المسافة أقطعها في ساعة، في ساعتين، في ثلاث ساعات، لا أدري. لعلني قطعتها في رمشة عين. لعلني قطعتها في دهر. أين الوقت؟ القمر

جامد لا يتحرك. تعبر وجهه غيمة، تحلّ الظلمة على رأسي، لا أعود أرى أين أضع قدمي، ثم تقطع الغيمة وجه القمر، تعبر وتتلاشى، والنور الأبيض يندلق على الشارع المملوء بالأخاديد والحفر. أرى عظاماً بيضاء آدمية. أرى حماراً نافقاً يتجمع على بطنه الذبان. لكن الذبان صامت. لا يطنّ. أخضر وبلا صوت. وطاويط تعبر الفضاء الفضّي وتختفي بين الصنوبرات عند ميدان الخيل. المدينة صامتة، ميتة. الغربية ميتة. والشرقية ميتة. أين ذهبوا جميعاً؟ حتى في الليل تُسمع الأصوات، تُرى النيران والأنوار، تسمع التلفزيونات والراديوهات، تزعق عجلات السيارات، تزأر سلاسل المجنزرات على الإسفلت، تقصف المدافع، تلعلع المضادات، أين أهالي المدينة؟ أين أصواتهم؟

أريد أن أدخل «الشرقية». من هنا ـ على معبر السوديكو ـ أرى برج الناصرة. نور القمر ينير شبح المبنى العملاق المثقوب بالقذائف. أرى شجرة الجميز أمام المبنى. أرى عصافير الليل تتقافز على الاسفلت. ما هذه العصافير؟ لا أعرف أسماءها. من هنا أرى فرن الناصرة. أرى المتاريس. أرى براميل وحواجز. لكنني لا أرى الحراس. لا أرى جنوداً ولا مدنيين. فقط أرى العيون الصفر ملتصقة بالأرض. العيون بعيدة. هل هي جرذان؟ نور القمر لا يبلغها. كأن أجسامها مغروزة بالأرض. أخشى أن أقترب. تراقبني وتطاردني. من هذه الجهة ومن الجهة الأخرى. في البدء لم أنتبه. ثم انتبهت. حتى هناك ـ جهة «الغربية» ـ تزحف الثقوب الصفراء وتتبعني. . . أين أهرب!

اكتشف أنني لا أهرب. أكتشف أن هذه العيون الغامضة تقودني إلى حيث تقودني. الدرب تنحدر فأنحدر على الدرب، بين صفين من البنايات المتساقطة. أنحدر بين متاجر مدمرة، بين سيارات محروقة،

فأبلغ مستنقعاً من الوحول يمتد من تحت «جسر فؤاد شهاب» إلى أمام «سينما سيتي بالاس». نور القمر ينعكس على المستنقع. المستنقع يبرق كالمرآة. لكنه موحل. على وجهه يتطاير بعوض. لا أسمع صوت البعوض. أشدّ البطانية حول جسمي ولا أتحرك. ما يعذبني ليس ألماً في أطرافي. ما يعذبني عطش في فمي. كأن لساني حطبة.

الغريب أن الخوف لا يملأ روحي. المدينة تبدو ميتة. وأنا وحدي في الليل تحت هذا القمر الغريب الأبيض. عيون غامضة تطاردني. وبلوزتي ضاعت. رأسي عليه دم. ولا أحد معي. مع هذا لا يملأ الخوف روحي. كيف؟ لا أفكر في أبي ولا أفكر في أمي ولا أفكر في أخوتي. أقف تحت «جسر فؤاد شهاب» جنب درج نصف محطم وأنظر إلى البرغش على وجه المستنقع ولا أخاف. القمر يلمع على الوحول. الوحل متجمد كالجليد. الضوء يبرق عليه كالزجاج. لا أفكر في صاحبي ولا أفكر في عطلتي الأخيرة في بروكسيل ولا أفكر في بلوزتي الخضراء الضائعة. بعيداً تظهر قبّة سينما أوبرا، شبه سوداء. ماذا جرى؟ احترقت بالقصف؟ أين لونها الأخضر؟ لا يزعجني غير العطش. العطش والحيرة. أحتار لأنني لا أدري أين المقاتلون وأين ناس المدينة. هل اشتد القصف ـ وأنا مخطوفة ـ فابتعدوا أبعد فأبعد فأبعد عن خط التماس؟ هل تحولت الأحياء المتاخمة لخط التماس أرضاً محروقة لا يسكنها البشر؟ وإلى أين تمتد هذه الأرض؟ كم ساعة عليّ أن أمشي حتى أبلغ الناس؟ وكيف أمشي إذا ظلّت هذه العيون الصفر تسدّ في وجهي الدرب؟ لكن لماذا أخاف هذه العيون؟

انتبهت أنني لا أخاف هذه العيون. ما أعاقني لم يكن خوفاً. كان ذكرى الخوف. الآن انتهى الخوف. لست خائفة. أشدّ البطانية

على كتفي وأستدير نصف استدارة وأمشي صوب «الشرقية»، صوب «مونو». العيون الصفر تبدو كأنها تتراجع. أنا أتقدم وهي تتراجع. هذا حقيقي أم أنا أتوهم؟

أتحرك صوب «الشرقية» لكنني لا أصل. كيف هذا؟ أمشي وأمشي لكنني ما زلت جنب الدرج تحت الجسر. كيف هذا؟

قبل أن أفهم شيئاً أرى شبحاً. أرى ظلاً وراء عمود. ثم ينفصل الظل عن العمود ويقترب مني. ليس شبحاً. أعرف هذا الرجل. رأيته من قبل. لا أذكر أين. ربما في الجامعة. ربما في المدرسة. ربما في السينما. ربما على الطريق. لا أذكر أين رأيت وجهه. لكن وجهه أليف. لا أخاف منه. وأفكر أنه قد يساعدني في الرجوع إلى البيت. البيت ليس بعيداً من هنا. أطلع في «مونو» ثم انعطف يساراً في شارع كلية مار يوسف ثم انعطف يميناً ثم يساراً وأبلغ غندور السعد. كلّها دقائق. لكنني عالقة تحت هذا الجسر بين الشرقية والغربية. عالقة كأنني مربوطة بالأرض.

يقترب الرجل فأنتبه أنه شبه عجوز. ليس عجوزاً لكن كأنه عجوز. وفيه شبه من أبي. شَبَه بعيد. لكنه موجود. أقول له إنني كنت مخطوفة وأنهم رموني مع هذه البطانية على المتحف.

أقول إنني مشيت من المتحف إلى هنا وأقول إن بيتي قريب.

يسألني عن اسمي.

أقول جوزفين، اسمي جوزفين يارد.

يقول انظري إلى وجهي، ألا تعرفين من أكون؟

أقول إنني رأيته من قبل، رأيته أكثر من مرة، ولكنني لا أقدر أن أتذكر أين.

يقول انظري إلى وجهي، وتخيلي أن شعري أبيض، ليس أسود هكذا، بل أبيض.

أقول إنني تعبانة، أقول إنني أشعر بالعطش، ولأنني تعبانة وأشعر بالعطش لا أقدر أن أفكر، ولا أقدر أن أتخيله أبيض الشعر.

ـ لكنني رأيتك من قبل وأعرفك، أقول.

أريده أن يساعدني. أن يحملني ويأخذني إلى البيت. أريده أن يرفعني من هنا ويحملني بين ذراعيه كما تُحمل طفلة وأن يأخذني إلى أهلي. لماذا لا يحملني إلى أهلي؟ أريد أن أفتح عينيّ وأرى نفسي على الصوفا التي أعرفها في الغرفة التي أعرفها في البيت الذي أعرفه. أفتح عينيّ وأرى الوجوه التي أعرفها تنظر إليّ. أريدهم أن ينظروا إليّ ويقولوا لي إنني رجعت، إنني نجوت. لماذا لا يحملني إلى أهلي الآن؟

أنظر إليه وأنتبه أنه يشبه أخي أيضاً. لا يشبه أبي فقط. يشبه سمعان أيضاً. لكنه ليس سمعان. هذا أكبر من أخي. «سأحاول أن أتخيله بشعر أبيض»، أفكر.

يقول لي:

ـ أنا جدك يا جوزفين.

عندئذٍ أعلم أنني ميتة.

ـ هل أنا ميتة يا جدي؟

ـ صحيح يا جوزفين.

ـ أنا ميتة؟

ـ هذا عالم الموتى.

صحيح. تذكرت صوته. هذا صوت جدي. وهذا وجهه. لكن الشعر الأسود خدعني. اعتدت عليه أبيض الشعر. تغيّر عليّ بهذا الشعر الأسود.

يحملني فأتلاشى بين ذراعيه. جسمي ضعيف. ونعسٌ يُثقل جفني. يقول لي إنني تعبانة من المشي. وتعبانة لأنني استيقظت باكراً، عليّ أن أنام أطول. يقول الدم ما زال في جسمي، لم أنمْ كفاية. يقول نامي يا جوزفين، نامي الآن، ولا تفكري في الأشياء. يقول إن الدم ما زال كثيراً في جسمي ولهذا أمشي وأمشي وأمشي وأشعر بالتعب.

ـ نامي الآن.

صوته يهدهدني. لكن الارتباك يمنعني من النوم. ما الذي يضايقني إلى هذا الحد؟ شعر رأسي اليابس؟ الوسخ على جسمي؟ ما الذي يمنعني أن أنام بين ذراعيه؟ هذا جدي. بلى. ولو صبغ شعره بالأسود. هذا جدي. أعرفه. ماذا يضايقني إذاً؟ أفتح عينيّ فأرى أن

المكان يُظلم. القمر يغيب. لكن حفنة نجوم تظهر في السماء. نجوم وغيوم وضباب. ضباب يفور مثل الحليب على النار، أرى الضباب يفور ويبتلع النجوم نجمة بعد نجمة بعد نجمة. لست ثابتة. جدي يسير وأنا بين ذراعيه. أين يأخذني؟ أشعر أننا نطلع على درج. أشعر أننا ننزل على درج. أين يأخذني؟ وأرى عينين تقتربان. في البدء أفكر أنني أرى شمعتين. شخص يخرج من الليل السميك الظلمة، شخص قصير يقترب حاملاً شمعتين. ثم أنتبه أنني لا أنظر إلى شمعتين. أنتبه أنني أنظر إلى عينيّ حيوان. حيوان غير مرئي؟ لا، ها هو يبين. حيوان أسود اللون. أسود كهذه الظلمات.

ـ هذا عالم الموتى.

الحيوان يدنو، هذا جرذ. جرذ ضخم الحجم. أُبلعط كالسمكة على الرمل. أبلعط بين ذراعي جدي الذي يقترب بلا خوف من الجرذ المخيف.

ـ لا تخافي يا جوزفين.

أريد أن أقول شيئاً. لكن الذعر يقبض على حلقي.

أنظر إلى عينيّ جدي. أرجوه. أقول «لا، لا يا جدي، لا». جدي ينظر إليّ. لا صوت يخرج من حنجرتي لكنه ينظر إلى عينيّ ويسمع ماذا أقول له.

أتكلم في قلبي.

وجدي، لأنه جدي، يسمعني.

يتوقف عن السير. الجرذ الضخم يتجمد مكانه أيضاً. يقول جدي أشياء لا أفهمها. يقول لا تخافي من الجرذ، عليك ألا تخافي منه. يقول الحياة الباقية في جسمك كثيرة. أنت ميتة الآن لكن الحياة

ما زالت في جسمك. لن ترتاحي وكل هذه الحياة باقية في جسمك. هذا الجرذ موجود من أجلنا يا جوزفين. لا تخافي.

ـ لا، أقول.

الجرذ يتراجع إلى وراء. لكنه لا يلبث أن يظهر من جديد. يقترب ويفتح فكيّه. أرى الأسنان. أرى بياض الأسنان. بياض يضرب إلى الصفرة. بياض العاج. جدي يقول عليّ أن أنام، لماذا لا أنام؟

ـ لا، أقول، لا يا جدي.

ما زال فيّ روح. نزفتُ دمي. لم يبقَ في أعضائي دمٌ، فمن أين يأتي هذا الروح؟ يقول جدي «طيب»، ويبتعد بي عن الجرذ. نتجه نحو منازل مضاءة.

صف من البيوت الحجر المضاءة. وأشجار شربين خضراء تتمايل في الليل. أسمع الريح وصوت الريح حين ترتطم بالأغصان. أسمع جدي يلهث. مسافة طويلة وهو يرتفع على منحدر وأنا بين ذراعيه.

عجوز تنتظرنا أمام باب مضاء. شديدة النحول. كأن جلدها شُدَّ على عظم. تحمل ابريقاً من الليموناضة. وصينية عليها أكواب. أقول إنني عطشانة.

ـ اشربي يا ابنتي. الطريق طويلة. اشربي.

أشرب كوباً. وأمدّه خجلى. وتسكب لي من جديد. جدي أيضاً يشرب. هو يشرب كوباً واحداً. أنا اشرب كوبين وأريد أن أطلب كوباً ثالثاً لكنني لا أطلب. ما هذا العطش؟ الطعم البارد في فمي. والرائحة في أنفي. الحامض والسكر والماء. رائحة ماء الزهر أيضاً. لكنها رائحة ضعيفة. لا. ليست رائحة. ذكرى رائحة الليموناضة. وأفكر أن طعمها لا يشبه الطعم الذي أعرفه. لكنه يُذكر به.

من داخل البيت تخرج إمرأة شابة. المرأة تلبس بيجامة مخططة. كأنها بيجامة رجل. رقبتها ناصعة البياض. لكن ندبة سوداء كالفحم ـ سوداء كالدم اليابس ـ تقطع رقبتها من الوريد إلى الوريد.

المرأة تنتبه أنني أحدق إلى ندبتها. ترفع أصابع مرتبكة عندئذ وتُبكل زرّ البيجامة العلوي.

جدي يغيب عن نظري. المرأة تقول إن في الحمام مياهاً ساخنة. أشعر أن جدي لم يذهب. لا بد أنه دخل بيتاً مجاوراً. البيوت مضاءة بالكهرباء. اللون الأصفر يخرج من النوافذ وينسكب في مستطيلات صفراء على العشب. أسمع أصواتاً من البيوت. لكنها كالهمسات. ليست عالية. العجوز تبتسم وأنا أدخل البيت. أول ما يلفت نظري الكتب. كتب كثيرة على الرفوف.

ممر طويل بين الغرف. المرأة تمشي أمامي. تدلّني إلى الحمام. أدخل وأردّ الباب خلفي. المكان ليس فسيحاً لكنه مريح. أفتح المرشة، هذه الحنفية ثم تلك الحنفية، هذه زرقاء وتلك حمراء، إلى أن تنزل المياه فاترة حلوة. أخلع ثيابي. في الزاوية طاولة عالية. على هذه الطاولة أطرح تنورتي. جنب الطاولة سل غسيل من الخيزران. السل فارغ. أطرح على حافة السل ما بقي من ثيابي. البطانية أطويها وأتركها لصق الباب. هكذا إذا أخطأ أحدهم وحاول الدخول تمنعه البطانية. أو على الأقل تؤخر دخوله. لا أخاف أن يدخل عليّ أحد. فعلت هذا بلا انتباه. بلا خطة. طويت البطانية ووضعتها لصق الباب. الماء المتدفق من المرشة العالية ينزل على رأسي، ينزل على جبهتي ووجهي، ينزل على رقبتي، على صدري، على بطني، على ساقيّ. يسيل الماء عليّ وأنا أغمض عينيّ. لا أريد رؤية اللون الأسود ينحدر مع الماء في البالوعة. أريد أن يغسلني هذا الماء وأنا نائمة. أبقى تحت المرشة وقتاً طويلاً. أفرك نفسي بالصابون وأشمّ رغوة الصابون (رائحة زيت الزيتون، ورائحة مطيبات) ولا أشمّها. كأنني أتذكر رائحة الصابون البلدي. لكنني أرجع نظيفة. الدم اليابس على وجهي يتفتت ويذهب مع

الماء. شعري ينظف. أجد مشطاً فأُسرح شعري. وأنا أمشطه أشعر بألم في جانب رأسي، عند الأذن الملطومة. أشعر بألم أيضاً في بطن فخذي اليمنى. أنحني وأتفقدها فأرى رضّة زرقاء. الماء تبرد. أقفل الحنفية الزرقاء، ترجع المياه فاترة. أغسل رأسي مرة أخيرة بينما المياه تبرد تماماً.

أخرج من تحت الماء وأتنشف بمنشفة بيضاء، كبيرة، جافة، معلقة من مسمار جنب المغسلة. لا مرآة فوق المغسلة. أريد أن أرى وجهي. لكن لا مرآة في هذا الحمام. المنشفة وضعت هنا من أجلي؟ أتنشف جيداً. لكن ماذا ألبس؟ ثيابي متسخة. أملأ المغسلة ماء وأغسل ثيابي بالماء والصابون ثم أعصرها عصراً شديداً وألبسها. البطانية أنفضها فيتساقط تراب على الأرض. اجمع ما تساقط من تراب. أحاول تنظيف المكان مقدار ما أستطيع. بينما أفعل ذلك يُقرع الباب. الصوت ليس صوت العجوز. هذه المرأة الشابة. امرأة جميلة. شعرها بنّي قصير إلى الكتف. وجهها أبيض يميل إلى الطول. تشبه ممثلة فرنسية أحبها لكنني أظل أنسى اسمها. اميلي تسخر دائماً من نسياني أسماء الممثلات. تقول أذكر أسماء الممثلين لكنني أنسى الممثلات. اميلي.

المرأة تكلمني من وراء الباب. تقول إنها لم تضع مكنسة أو ممسحة في الحمام لئلا أعذب نفسي بتنظيفه. تقول أيضاً إنها تحمل لي بعض الملابس. أقدر أن ألبسها الآن. وهي ستغسل ثيابي. أشق الباب ثم أفتحه. أقول أنني غسلت الثياب وعصرتها ولبستها. تضحك لي وتبدو محتارة. بين يديها أرى قميصاً أزرق وتنورة صفراء. أقول إنني بخير لكن تراباً وقع من بطانيتي على الأرض.

ـ ليست بطانيتي. لفوني بهذه البطانية وتركوني.

تقول حاولي أن تنسي هذا، لا تفكري فيه.

من طرف الممر تأتي رائحة طيبة حارة ثم تنادي العجوز. صوتها لا يرتفع كثيراً لكنني أسمع النداء. أتجه إلى حيث الصوت فأرى مطبخاً. مجلى أبيض وخزائن بيضاء وطاولة من الخشب عليها غطاء أبيض. الغطاء مطرز بزهور صغيرة زرقاء. العجوز تقول عملت لك عجّة، عملت لك بيضاً مع بصل وبقدونس وشمار. أرى على المجلى صينية مدوّرة وعلى الصينية باقة من الشمّار الأخضر المغسول. العجوز تقترب حاملة مقلى الفخار ثم تقلب العجّة على صحن زجاج. أسمع الزيت يغلي في قلب العجّة المنتفخة الفوّاحة الرائحة. أنتبه عندئذٍ أن صدري مشقوق من الجوع. كل الوقت ـ بينما أسير على خط التماس ـ كنت عطشانة. كنت أفكر في الماء، في حاجتي إلى شربة ماء. لكنني كنت جوعانة أيضاً. منذ خطفوني وأنا بلا أكل. ماذا قالت لي المرأة ذات الندبة على الرقبة؟ «حاولي أن تنسي هذا. لا تفكري فيه.»

أجد على طاولة صغيرة جنب الطاولة الكبيرة سلاً مملوءاً بأرغفة الخبز. على الأرغفة غطاء من القماش الأبيض طُوي طية واحدة. طُوي هكذا لأرى الخبز الأسمر وآكل منه؟

العجوز تقترب وتقول كُلي وتخرج رغيفاً وتضعه أمامي. تقول إنها لم تُكثر من الملح في العجّة لكن هذا ملح. وتُقرب ليّ صحناً صغيراً فيه ملح وبهار. نصفه ملح ونصفه بهار. أشمّ رائحة القرفة. كأنني أشمّ رائحة قرفة. أرى لون البهار فيخيل إليّ أنني أشمّ الرائحة.

أسألها هل تأكل معي؟

تقول إنها أكلت قبل قليل ولكن. . .

تقطع كلامها وتنهض وتجلب ابريق ماء وكوبين نظيفين عن المجلى. تملأ كوبي وتملأ كوبها.

ـ أشرب معك. وأنتِ اشربي وكُلي قبل أن تبرد العجّة. هذا خبز قمح. قمح بقشره. طيب جداً. كُلي يا ابنتي.

آكل العجّة وأشرب كوب ماء تلو كوب ماء. بينما آكل تأتي المرأة الشابة وتجلس معنا. تجلب كوب ماء هي أيضاً. نقعد على الكراسي حول الطاولة ونشرب الماء ولا نتكلم. اللقمة الأخيرة في صحني تُشبعني. أعلم أن بطني انتفخت الآن. أشعر بانتفاخها على قماش الفانلة الرطبة. الفانلة تلتصق ببطني. لكنني لا أشعر بالبرد. المكان دافئ. المرأة تنظر إلى الكرسي الفارغة، لصقها. أكتشف بعد ذلك أنها تقرأ كتاباً مفتوحاً على الكرسي. من مكاني، وأنا قاعدة، لا أرى الكتاب المفتوح على المقعد.

أشكر العجوز على العجّة. أريد أن أغسل صحني لكنها تقول أن هذا غير ضروري الآن، الآن أفضل أن أرتاح، الطريق كانت طويلة، وأفضل ألا أتعب نفسي أكثر الآن.

تأخذني المرأة إلى غرفة فيها سرير واحد. جنب السرير كومودينة عليها كتاب ومرآة صغيرة. تخرج المرأة بعد أن تلقي تحية المساء. وترد الباب. أبقى وحدي تحت اللمبة الصفراء المضاءة. أسير كالنائمة إلى المرآة الصغيرة وأرفعها. قبل أن أرفع المرآة أنتبه أن ثيابي قد جفت عليّ. لعلها لم تجف تماماً لكنني ما عدت أشعر برطوبتها كثيراً. والأهم من هذا: بعد الحمام والطعام والماء، وبعد رؤيتي وجه المرأة الساكن وهي تقرأ في الكتاب، بعد هذا كلّه بات شعوري أحسن. زال عني بعض تعبي، صرتُ ـ إلى حدٍ ـ مرتاحة.

أنظر إلى المرآة فأرى وجهي الذي أعرفه. صحيح أنه تعبان

قليلاً، هذا الوجه الذي أعرفه، وجهي، صحيح أنه تعبان، خصوصاً تحت العينين، لكنني بخير. اللون الأزرق تحت العينين من النوم القليل. لم أنم وأنا مخطوفة. كنت خائفة طوال الوقت. مذعورة ذعراً لا يصدق. «عليك أن تنسي هذا. لا تفكري فيه». صحيح. هذا ما قالته المرأة. أتفحص وجهي في المرآة فأكتشف رضّة قاتمة على أذني وخدي، حيث تلقيت اللطمة الأخيرة. الرضّة ليست زرقاء بل سوداء. تحت الجلد. عليّ أن أمسحها بمرهم. ولكن حتى مع المراهم لن تزول إلا قبل أيام. «ربما أسابيع»، فكرت.

لم أكن أعلم أن سنوات ستعبر والرضّة لن تزول.

سيسليا وسمعان يلتقيان كل ليلة. الإثنين التقيا. الثلثاء التقيا. الأربعاء التقيا. الخميس التقيا. الجمعة التقيا. السبت التقيا. نحن الآن في صباح الأحد 16 تشرين الأول (اكتوبر) 2005. ومفروض أن يلتقيا هذه الليلة. سيسليا تخرج من عملها قبل التاسعة. المونوبري يفتح هذه الأيام حتى الحادية عشرة. تخرج قبل أن يُقفل المتجر أبوابه لأن أحداً لا يأتي ويطلب طعاماً من المطبخ بعد وقت الإفطار. ما يُطلب بعد السادسة يكون مجهزاً من قبل. لا تبقى سيسليا في المطبخ. تكون منهكة تماماً. منذ الصباح وهي تركض. تبلغ المساء لاهثة. أصابعها توجعها. أطرافها خدرة. تسير متمهلة كأن مسامير تنبت في قدميها. تتعب من الوقوف والركض والطبخ. رأسها يؤلمها أيضاً. لكنها مع هذا تشعر بالراحة إذا بلغت البيت. تأخذ حبتي بنادول وتقعد مع سمعان. يأكلان ويتكلمان. ينظران إلى التلفزيون ويتبادلان الأخبار.

سمعان يتعلم الطبخ هذه الأيام. يقول آن الأوان، ويضحك. سيسليا تقول إن الرجل في الأربعين ينضج. سمعان يقول الناس تقول في الأربعين الرجل يجهل. سيسليا تقول يجهل إذا كان متزوجاً، لكن إذا كان بلا زواج تحلّ عليه النعمة ويتعلم الطبخ.

سمعان لا ينام في بيتها. يبقى هنا إلى نصف الليل، إلى

الواحدة بعد انتصاف الليل. مرات يبقى إلى الثانية. يسمعان الديك يصيح صياح الفجر ويعجبان من وجود ديك في هذه المدينة. لا تنام سيسليا عند سمعان إذا تناولا العشاء في بيته. تبقى عنده إلى نصف الليل، إلى الواحدة بعد انتصاف الليل. مرات تبقى إلى الثانية. يسمعان الساعة العتيقة تدق دقتين في الصالون الكبير فيقول سمعان هذا ديكنا. لا ترجع وحدها. يوصلها سمعان بالدودج. لا يذهبان سيراً على الأقدام مع أن المسافة قصيرة. في عشر دقائق يقطع المسافة من بيتها إلى بيته إذا كان ماشياً وحده. إذا كان معها يقطعها في 15 دقيقة. لكن بعد انتصاف الليل لا يأخذها إلى بيتها سيراً على الأقدام. يأخذها بالسيارة. عند تقاطعات الطرق جنود ورجال أمن. بيروت مستنفرة هذه الأيام. تقرير ميليس بعد أقل من أسبوع. التوتر يسيطر على الناس. الترقب سيد المدينة. أصحاب المتاجر الصغيرة لا يشترون بضاعة جديدة. الرفوف تفرغ من المعلبات والأكياس وتبقى فارغة. يخافون أن يشتروا بضاعة. سمعان سأل صاحب الدكان عند الزاوية لماذا رفوفه فارغة؟ صاحب الدكان قال إن الناس تقول ستقوم القيامة.

قبل ليالٍ، مساء يوم الثلثاء الفائت، كانا يأكلان دجاجاً بالصينية مع بطاطا، وفتوشاً، ويشربان عرقاً. الفتوش عملته سيسليا. لكن صينية الدجاج عملها سمعان. هو غسل الدجاج. هو مسح قعر الصينية بالزيت. هو قطع البطاطا شرائح مستديرة. هو قشّر الثوم. هو أشعل الفرن. كانا يضحكان وهي تقول انتبه إلى هذا، انتبه إلى ذاك... تعطيه تعليمات وهو يقول أعرف، أعرف، أتظنين أنني لا أعرف؟ ومع العرق الممزوج بالماء، المبرد بمكعبات الجليد، زاد ضحكهما.

سألته عن يومه فقال إن روجيه مرّ عليه وأنهما شربا قهوة في

الإيتوال وأن نواباً وصحافيين كانوا يتكلمون عن ميليس على طاولة مجاورة.

قالت إن المونوبري لا يتكلم إلا عن ميليس. ميليس والسفينة في المرفأ. وقالت إن الرجل المسؤول عن قسم الفواكه والخضر يقول إن الأمم المتحدة تقول إنها ستمدد مهلة لجنة التحقيق لتخدع الناس الذين يفجرون هذه السيارات. هكذا لا يفجرون سيارات كثيرة الآن. هكذا لا يشعرون أنهم مضغوطون قبل موعد التقرير.

سمعان ضحك وقال إن القاعدين في الإيتوال يقولون أشياء مشابهة.

ليلة الأربعاء قال الليلة أتعلم الطبخ الياباني. سيسليا ظلّت تضحك حتى أحسَّت خاصرتها تتمزق. سمعان سألها هل تتهرب من واجباتها؟

علّمته كيف يعمل سلطة بطاطا. قال هذه مثل الفتوش لكن بدل الخبز المحمص نضع بطاطا مسلوقة. كان فرحاً وهو يذوق السلطة التي صنعاها سوياً ويجدها طيبة. قال وهو يسكب صحناً ثانياً:

ـ ليس أسهل من طبخ السلطة.

ضحكا ونسيا كل ما جرى في ذلك النهار. بعد الطعام فتحا التلفزيون ربع ساعة. الأخبار ذاتها منذ الظهيرة. انتحار وزير الداخلية السوري اللواء غازي كنعان. باكستان تخشى هزّات ارتدادية. السفينة البرازيلية المحملة سبعة آلاف بقرة تغادر مرفأ بيروت هذه الليلة بعد انذار من «بلدية بيروت». بايرن ميونيخ يتأهب لخوض مباراة على ملاعب...

ليلة الخميس علَّمته السباغيتي بالبندورة والحبق وزيت الزيتون.

ليلة الجمعة علَّمته يخنة الفاصوليا. يكفي أن تتعلم يخنة واحدة لتطبخ اليخاني كلّها، قالت.

ليلة السبت لم تعلمه الطبخ. قالت إنها تعبانة هذه الليلة. طبخت كثيراً أثناء النهار. لا تقدر الآن أن تدعس في المطبخ. قال أدخل وحدي وأطبخ لك باذنجاناً محشياً.

لم يسهرا في البيت. خرجا إلى المدينة. مجمع A B C التجاري يعجّ بالناس. «عما قليل يذهبون»، فكر سمعان. الناس تخاف أن تتجمع في هذه الأماكن ليلاً. على الراديو يسمع ـ وهو يُشغل الدودج في الكاراج لئلا تفرغ البطارية ـ إعلاناً من وزارة الداخلية يطلب ممن لديه معلومات بخصوص التفجيرات أن يتصل على الرقم كذا وسوف يحصل على مكافأة مالية.

جلس مع سيسليا في الطابق السفلي من A B C. جنب بركة الماء. خرير المياه. سندويشات الجامبون مع الخس والبندورة والكبيس والخردل مصفوفة في البراد. امرأة تحمل سلّاً من الخبز تقف وراء البراد. تتكلم مع فتاة ترتدي لباس المطعم. طلب سمعان سندويشة حبش بخبز شوفان. سيسليا طلبت بوظة. قالت إنها شبعت أكلاً هذا الأسبوع. وقالت إنها لاحظت أن المذيعات على التلفزيون يسمن هذه الأيام. كلّهن. على الـ L B C و «تلفزيون لبنان» و «المستقبل» والنيو .تي .في، كل مذيعات لبنان اكتسبن وزناً زائداً في الفترة الأخيرة، هل لاحظت ذلك؟ وقالت إنهن هذا الصباح بالذات كنّ سمينات ومسرورات معاً. خصوصاً مذيعات الأخبار الجوية. المرصد يقول ستمطر هذه الليلة، وستمطر غداً. هذا الأسبوع يبدأ الخريف في بيروت.

سمعان سألها ما علاقة الخريف بسمنة المذيعات؟ سيسليا قالت

لا علاقة. وقالت إن الوزن الزائد سببه القلق. عندما أقلق أفتح البراد، قالت. وقالت إن المذيعات مسرورات بسبب المطر الآتي. «إذا سقط المطر سقطت الحرارة ونقدر أن نلبس ثياب الشتاء».

بعد الجلسة صعدا على سلالم الكهرباء إلى الطابق العلوي. سيسليا قالت أشبعتني هذه البوظة. سمعان دلّها إلى الحديد الكثير المستخدم في السقوف الخارجية المعلقة كصحون الفضاء. قال إن كمية الحديد في هذا المجمع تكفي لبناء ناطحة سحاب. ناطحة سحاب بحديد وبلا زجاج، انظري كل هذه العوارض؟

تفرجا على ملصقات الأفلام. قال سمعان نشاهد هذا الفيلم. قالت سيسليا إنها تشعر بالتعب. قال سمعان إنه أصلاً يبدو فيلماً لا يُشاهد.

لم يتأخرا. غداً يبدأ نهارها باكراً. عند رجوعه إلى البيت، بينما يفتح الباب، سمع الهاتف يرن. لم يردّ. بعد قليل رنّ الخليوي. هذا رقم غابي. ردّ عليه. دعاه غابي إلى «بار شكسبير» في «مونو». سمعان قال إنه ليس وحده الآن. كان يشعر بالنعس. تمدّد على جنبه على الصوفا يتفرج على التلفزيون. وثائقي عن برلين وإعادة اعمارها بعد الحرب العالمية الثانية. رأى هذا الوثائقي من قبل. ألم يخطر في باله هذا الوثائقي قبل ليلتين؟ والليلة ـ بينما ينظر إلى سقوف المجمع البيضاء المعدنية ـ خطر في باله أيضاً. غيّر القنال. فيلم صيني. ثلج يتساقط على رجال يحملون سيوفاً. غابة من الأشجار الحمراء. شاهد الفيلم من قبل. غيّر القنال. على الطاولة جرايد. التقط احداها. يقرأ قليلاً لينعس أكثر. «أنعس وأنام»، فكر.

«. . . وتبين بعد اتصالنا بالجهات المعنية أن الروائح التي تُخيم على الأشرفية وعين المريسة ومناطق أخرى من العاصمة بيروت

تنبعث من باخرة اسمها «كنوز» تتبع شركة «رابونيون شيبينغ ايدجانسي» للشحن البحري. والباخرة المذكورة تحمل نحو 7 آلاف بقرة شحنتها من البرازيل إلى بيروت بطلبٍ من شركة «راسم لتجارة المواشي». ووصلت «كنوز» إلى مرفأ بيروت يوم السبت الماضي بعد رحلة طويلة قطعتها عبر المحيط الأطلسي ثم البحر الأبيض المتوسط واستغرقت ما يزيد عن 15 يوماً، وخلال هذه المدة لم تُغسل الباخرة وتنظف الأبقار. وقال رئيس مصلحة الحجر الصحي البيطري في وزارة الزراعة الدكتور فضل الله منير إن «حالة الأبقار الصحية جيدة ولا أبقار نافقة كما يشاع». وقد أجريت فحوصات دم لعينة من خمسين بقرة ووُجِد أنها لا تحمل أمراضاً. ورأى أن مشكلة الرائحة ناتجة عن عدم «تنظيف الباخرة خارج المياه الإقليمية، وقبل دخولها مرفأ المدينة». واتصلنا بوزارة البيئة وقالت إنها تتابع الموضوع ورفعت شكوى خطية. وقال مصدر مسؤول في وزارة الصحة أن «هذه الروائح غير مضرة بصحة المواطنين». وفي اتصال مع الشركة صاحبة الباخرة قال موظف أن «الشركة تأسف للإزعاج» وأفادنا أن هذه الأبقار تأتي مباشرة من حقول البرازيل وتحدث عن شحن كمية مماثلة الشهر القادم. لكن موظفة في «بلدية بيروت» أكدت لنا أن رئيس البلدية «أُبلغ بما يحصل أول من أمس وهو يتابع الموضوع بجدية ومهتم به إلى أقصى الحدود».

أبعد سمعان يارد الجريدة. على إحدى الفضائيات برنامج عن التطورات الأخيرة في لبنان: ماذا تكون خطوة ميليس المقبلة بعد توقيف الجنرالات الأربعة رؤساء الأجهزة الأمنية اللبنانية السابقين وإيداعهم السجن؟ هل يتهم ميليس أشخاصاً غير لبنانيين بالتخطيط لجريمة اغتيال الرئيس اللبناني الأسبق رفيق الحريري؟ لماذا مدّدت الأمم المتحدة للجنة التحقيق الدولية؟ ماذا تكون الصفقة التي

تعرضها واشنطن على سورية؟ هل تتجدد سلسلة الاغتيالات في بيروت؟ من هو الهدف المقبل؟ ما سرّ موقف البطرك صفير الرافض للحملة على رئيس الجمهورية؟ ما العلاقة بين العراق ولبنان عند هذا المفرق من تاريخ المنطقة؟ أي دور تلعبه المخيمات الفلسطينية؟ ماذا قال الرئيس السنيورة لكوندوليزا رايس في نيويورك؟ ما صلة انتحار اللواء غازي كنعان بشهادته أمام لجنة التحقيق؟ هل يقول ميليس في 21 اكتوبر الحقيقة كل الحقيقة أم يختار منها ما يقتضيه التوازن الدولي...

عندنا هنا تلفزيونات. في كل بيت، في كل غرفة، قد تجد تلفزيوناً. إذا اشتد بنا الحنين إلى عالم الأحياء نفتح التلفزيون وننظر. أعجز أحياناً عن النوم. تطاردني صور الحياة والرؤى، تطاردني فأتقلب في السرير الكبير وأعجز عن النوم. لو أن سريري ضيق هل أنام أسهل؟ لو أن جسمي محشور في سريرٍ ضيق كتابوت، هل أنام أعمق؟ لم أقبل أن يقربني الحيوان الأصفر النظرة ويلحس جراحي. لا حاجة حتى أن يلحسها. يكفي أن يتشممني. بأنفه يسرق الرائحة العالقة بي. هذا الجرذ يأكل بقايا الروح. يرتشف ما بقي من دم في العروق. من دونه، بلا لمسته المباركة الأخيرة، لا يرتاح ميتٌ في موته. خطفوني وقتلوني ولم أبلغ الثانية والعشرين بعد. ضربوني فغبت عن الوعي. وأنا راقدة خنقوني. كيف اختنقت وأنا نائمة؟ كيف لم أستيقظ عندما مُنع الهواء عن رئتيّ؟ هذا ما حدث. مُتُ قبل ساعتي. الإنسان يحيا سبعين سنة. يحيا 80 سنة. يحيا تسعين سنة. متوسط عمر النساء في بيروت 75 سنة. أكثر من الرجل بست سنوات. متُ وجسمي ما زال مملوءاً حياة. قبل وقتي قضيتُ، فكيف لا يظلّ بدني مملوءاً حياةً زائدة؟ وكيف أهجع في هذا الظلام والمدينة هاجعة؟

تهاجمني منامات أو أشعر بحاجة لدخول الحمام فأقوم من

سريري. وحين أرجع إلى السرير أجدني عاجزة عن النوم مرة أخرى. كل ليلة أُضطر للقيام إلى الحمام. أشرب في النهار كثيراً. كل الوقت أشرب. مرّ عليّ هنا عددٌ لا أعرفه من الفصول (كم سنة عبرت؟ 22 سنة؟ 23 سنة؟ جئت إلى هنا سنة 1983. كيف توالت الأعوام ولم أنتبه! لكنني انتبهت. في الليل أنتبه. وفي النهار أنتبه.) عددٌ لا أعرفه من الشتاءات تعاقب عليَّ ولم أشعر يوماً أنني شبعت ماء. وكلما شربت زاد عطشي. غير هذا لا عذاب هنا. لا ألم. لا خوف. الواحد يذكر من حياته الخوف. مع الفرح ومع لحظات سعيدة يذكر خوفاً. الخوف يدفعك في عالم الأحياء من ساعة إلى ساعة. يدفعك من التخت إلى الصوفا إلى الطريق إلى المطعم إلى الأصحاب إلى الأهل إلى الجامعة إلى المكتبة إلى التخت مرة أخرى. كنت أخاف ألا يُحبني صاحبي كما أحبّه. ثم صرت أخاف أنني أنا لا أحبّه. كنت أحبّه وأنام معه وصديقاتي يستغربن أنني أنام معه في شقته وأنا بعد ما زلت صغيرة. لستُ صغيرة، أقول لهن، وحين أكون معه أغرق فيه كما يغرق حجر في بركة ماء. أخاف ألا يحبّني مقدار ما أحبّه. ثم صرت أخاف أنني أنا لا أحبّه. التقيت رجلاً آخر. الرجل لمسني بأصبعه وهو يتكلم. لمسة واحدة من أصبعه ولم أعد أنا. قطرة عرق كرجت على جنبي. أعرق من لمسة؟ ليست قطرة عرق. نقطة خرجت من جسمي، تدحرجت على جلدي بلمسة أصبعه. ماذا تكون هذه النقطة؟ استلقيت في الظلام وصاحبي بين ساقيّ وأنا أشدّه إليّ ولمسة الأصبع ما زالت على جلدي. تركني الأصبع ولم يتركني. سكن الرجل ليلي. سكن الرجل جسمي. أحبّ صاحبي أنا أم لا أحبّه؟ أرغب لمسته الآن أم لا أرغبها؟ ها أنا أشدّه إليّ وأفكر أنني لا أحبّه. أتعلق به، أجذبه إلى أعماقي بأطرافي كلّها، أدعوه إليّ بالكلمات، بالأصابع، برؤوس الأصابع، بالأظافر

أستقبله، وبلحمي المفتوح، أقول إنني أحبّه وأعرف أنني لا أحبّه. أحبّ صاحبي أنا أم لا أحبّه؟

الليل طويل وأشبع قلقاً حتى الصبح. تطاردني صور من عالم الأحياء وأعجز عن النوم. أقوم إلى التلفزيون وأفتحه. أدخل إلى الحمام ثم أعود إلى التلفزيون. أفتحه وأرى أخي ساهراً في بيتنا في الأشرفية. بيروت نائمة وهو مفتوح العينين ينظر إلى التلفزيون. على الطاولة جرايد قديمة. نور الكهرباء يضيء غرفاً شاسعة. هذا السقف العالي الذي أعرفه يكرر الصدى. في الزاوية: الساعة الكبيرة أطول من أبي. أذكر دقّاتها. لا أنسى دقّاتها. أنظر إلى التلفزيون ويملأ الحنين بدني. أنا هنا. لست هناك. لست في بيتنا الذي أحفظه قطعة قطعة.

قطعت النهر ولم أقطعه. في ليلتي الأولى على هذا الجانب، بعد أن حدقت طويلاً إلى الرضّة السوداء على خدي وأذني، جلستُ على حافة السرير. كان السرير طرياً، نظيف الأغطية، تفوح منه رائحة الخزامى.

أعرف رائحة الخزامى. إذا أخرجت جدتي ثياب الشتاء من الصندوق الخشب ـ «صندوق ستي» كنا نسمّيه ـ إذا أخرجت جدتي تنانيرها الصوف فاحت رائحة الخزامى. عندنا جبوب خزامى تحت السنديانة. ثلاثة جبوب ملآنة عناقيد، وكل جب كذيل الطاووس، يتعالى تحت نور الشمس، ويرعى فيه النحل. إذا غطت الغيوم السماء اختفى النحل. النحل لا يرعى زهور الخزامى إلا في نور الشمس. هنا نرى القمر أكثر من الشمس. لكننا نرى الشمس أيضاً.

أذكر رائحة الخزامى. جلست على حافة السرير وقتاً طويلاً لا أدري كيف أستلقي بجسمي الذي أعرفه على هذا السرير الخشب

الذي لا أعرفه. الفراش طري جامد. والمخدة طرية جامدة. الفراش نظيف. وجه المخدة ناصع البياض. الأغطية كلّها مغسولة. وأنا تعبانة. النوم يدعوني إلى مملكة النوم وأنا لا أدري كيف أنام. كل هذا الارتباك الداخلي، كل هذا الفوران الغامض المحير في الأعماق، مع كل هذا اللافهم كيف أقدر أن أنام؟

جلست على حافة السرير وقتاً طويلاً أنظر إلى الأشياء ولا أراها. أين أنا بالضبط؟ يدي امتدت وحدها إلى الكتاب على الكومودينة. ما هذا الكتاب؟ فتحته فرأيت أنه «الكتاب المقدس». عرفت أنه «الكتاب المقدس» من الخط الأسود الصغير. من الورق الأبيض الرفيع. من الكلمات المتداخلة كقطعان النمل. وعرفتُ من العبارة المكتوبة على صفحته الأولى: «الكتاب المقدس».

فتحته وقرأت «من آمن بي وان مات فسيحيا». للمرة الأولى في حياتي أقرأ كلمات طالما قرأتها على باب الكنيسة، على باب المدرسة، وحتى على باب بيتنا، فأنتبه إلى معناها. من قبل لم أكن أعلم ماذا تعني هذه الكلمات. إذا مات رجل في مدينتنا نكتب هذه الكلمات في رأس النعي ثم نلصق النعي على الحيطان ونكتب وقت الصلاة على روحه في الكنيسة ونكتب وقت الجنازة. نطلب بدل الأكاليل تبرعات للكنيسة. «من آمن بي وان مات فسيحيا». أقرأ الكلمات وأتابع القراءة. أقلب الكتاب على صفحة أخرى. أقفز من صفحة إلى صفحة. أشعر بماء في عينيّ. بسبب النور أم بسبب السهر؟ عليّ أن أنام. أن أرتاح ساعة. بلا نوم سيهجم عليّ صداع. لكن كيف أنام وكل هذه الأشياء تموج في صدري، تموج في رأسي، كيف يأتي النوم؟

فتحت جارور الكومودينة فوجدت كتباً أخرى. التقطت كتاباً مجلداً بالأبيض لا بالأسود. كتاب سميك مثل الكتب الأخرى لكن

غلافه من الكرتون الجامد الأبيض، ليس أسود. فتحته فرأيت أنه بالإنكليزية: «الألياذة». أذكر هذا الكتاب من الجامعة. كان مقرراً في «مادة الحضارات» لكنني لم أقرأه. كتبه يوناني أعمى يدعى هوميروس. لم أقرأه. كتبه باليونانية قبل قرون بعيدة ولم يكتبه بالإنكليزية. هنا ـ في سنوات الأرق ـ لم ألبث أن قرأت «الألياذة». أكثر من مرة قرأتها.

*

يهاجمني الأرق والحنين فأقوم إلى التلفزيون. أرى سمعان، أرى أخي، يسير في شوارع بيروت. مصابيح الكهرباء تنير المدينة. ناس يتحركون على الأرصفة. المقاهي على ساحة ساسين بدأت تفرغ. الناس يُنهون السهرة باكراً هذه الليالي. يخشون تفجيرات جديدة مع اقتراب تقرير ميليس. أنظر إلى وجوههم. أتأمل ايماءاتهم وهم يتبادلون تحيات المساء. كل واحد يصعد في سيارته. السيارات المفخخة أخافت أهالي المدينة. أي واحد قد يموت وهو يقطع الطريق، وهو ينزل من سيارة، وهو يطلع في سيارة. الموت يأتي في أي ساعة. الناس يخافون. خصوصاً في الأيام التي تعقب الانفجار. لكن متى ابتعد الانفجار إلى وراء، يوماً بعد يوم، ليلة نوم بعد ليلة نوم أخرى، إذا ابتعد إلى خلف، إذا دفعه الوقت أبعد فأبعد، تضاءل دوي الانفجار، لم يعد الناس يفكرون فيه كثيراً، وتضاءل رويداً رويداً الخوف في قلوبهم. كأن الانفجار لم يقع في هذه المدينة. كأنه وقع في بلد آخر.

وجوههم محمرة من الشرب والأكل والرقص والضحك. امرأة تعانق رجلاً على حافة الرصيف أمام ستارباكس. القمر في السماء لكن أنوار الكهرباء باهرة تمنع ناس بيروت من رؤية القمر. السماء

تعجّ بالنجوم هذه الليلة. لكن النجوم غير مرئية. تغيب في بطانيات التلوث والرطوبة. الرجل يلمس ظهر المرأة العاري، يضغط اللحم الأبيض كالجبنة بأصابعه العشرة. أرى علامات أصابعه على لحمها. المرأة سمكة تونة تذوب وتغرق في أضلاع الرجل. أسمع أنفاسها. أسمع أنفاسه. أتعب وأنا أنظر إليهما. أفرغ من داخلي. أتجوف. التلفزيون يعطيني هذا الاحساس. ينهكني تماماً. الكتاب أحسن. لا أشعر أنني أجاوز خط التماس عائدة إلى عالم الأحياء إلا وأنا أقرأ. شاشة التلفزيون تمنعني من العبور إلى الجانب الآخر. الكلمات لا.

أكتب أيضاً. حين يؤرقني الليل الصامت أقوم وأكتب. ميثولوجيا الإغريق تحوي نهراً يفصل عالم الموتى عن عالم الأحياء. لم أقطع نهراً أنا. لم يأتِ قاربٌ وعلى القارب رجل ويحملني من ضفة إلى ضفة مقابلة. لكلٍ نهره. نهري خط التماس بين الشرقية والغربية. خط التماس ومستنقع الوحل والماء والبرغش يترامى أمام سيتي بالاس ويكاد ـ لولا البنايات المتداعية المتباعدة ـ أن يبلغ حافة البحر. الآن أنظر إلى سمعان يقطع المستنقع وأرى أن المستنقع قد جفّ وغُطي بالحصى الأبيض ونور الشمس. لا أرى البنايات المثقوبة بالشظايا والرصاص، العمارات المحروقة والشرفات المشلعة والنوافذ المتساقطة، بلا درابزين الحديد الذي يُسرق في فترة الهدنة بين جولة قصف وأخرى، بلا أثاث البيوت والمكاتب الذي يُسرق قبل حديد الشرفات والشبابيك والأدراج، وبلا بضائع المتاجر في الطبقات السفلية التي تُسرق ما أن تبدأ الحرب ثم تُحرق لتمويه السرقة. المرفأ يحترق والدخان الأسود يلفّ بيروت والناس يركضون بين المتاجر. على ظهورهم غسالات وتلفزيونات وبرادات. يركضون إلى سيارات وشاحنات وبيوت. يركضون ويضحكون. قبل وقت قليل رأيت المشاهد نفسها، لكن في

بغداد. الحرب والنهب. الركض والضحك. الليل يُجوفني والتلفزيون يُجوفني. أفرّ من التفزيون إلى كتاب. أو أفرّ إلى هذه الأوراق. كلّنا نكتب هنا. ليس كلّنا. لكننا كلّنا نقرأ. هذا ما نفعله بعد الموت. نقرأ ونقرأ ونقرأ. ولا نشبع أبداً. أخذني جدي كي أزور أهله. أبوه كان أمياً. لم يتعلم يوماً لا القراءة ولا الكتابة. عندما انتقل إلى هذا الجانب أُعطي نعمة أن يقرأ ويفهم الحروف. من قبل لم يكن يعرف كيف يقرأ اسمه، كيف يقرأ لافتة الدكان. كل حياته ينظر إلى دفاتر الحسابات في دكاكين أصحابه في أسواق بيروت القديمة ويشعر بالحزن. حزن فظيع يملأ قلبه لأنه لا يفكّ الحرف، لا يقدر أن يقرأ هذه الكلمات. مات بالسكتة القلبية. أذهب وأزوره بين وقتٍ وآخر. مرات أذهب مع جدي أو أبي. مرات أذهب وحدي. مرات أذهب مع ناظر المكتبة. مرات أذهب مع إحدى صديقاتي. أراه ممدداً في فانلة قطن سمراء اللون. من جنب الفانلة أرى ثديه الأيسر المنكمش. الثدي يتجعد جلده وينكمش بالذبحة الصدرية. يقرأ ويشرب ماء ويقرأ. كلنا نقرأ هنا. هذا ما نفعله. آخذ له كتباً هدية.

لم أقطع نهراً. حملني جدي. كان شعره أسود. قال إنه صبغ شعره بالأسود لأن شعره الأبيض ظلّ يُذكره بالجانب الآخر ويُعذبه بالذكريات. أنهكه الحنين. صبغ شعره بالأسود وفكر أنه الآن يبدأ من جديد. فكر أنها حياة أخرى.

كتبت أكثر من مرة عن تلك الليلة والقمر في السماء. المستنقع مملوء ضوءاً مكسراً كالزجاج. ونوافذ المدينة فارغة وسوداء مثل نوافذ برج المرّ الذي لم يُسكن أبداً. أنظر إلى نوافذه وسمعان ينظر إلى نوافذه فأراها كعيون الغول تُحدق إلى المدينة. كتبتُ أكثر من مرة عن خط التماس والطريق أقطعها من المتحف إلى السوديكو إلى

وسط المدينة. والقمر يتلألأ كالفضة على الزجاج الفارغ. المدينة مهجورة، مظلمة، بلا كهرباء، نائية وساكتة كالتراب، وأنا أمشي. لم أقبل أن يلمسني الحيوان الأصفر العينين.

هناك سبعة جرذان. وجرذ واحد كبير. الجرذ الكبير يسكن بطن الجبل. الجرذان السبعة تنام في سبعة أوكار تجاور وكره في بطن الجبل. الجرذ الكبير ينام أكثر مما يستيقظ. ينام فترات طويلة. سنة 1990، عند انتهاء الحرب، خلد إلى النوم. قلّ عدد الموتى بانتهاء الحرب فقلّت الأرواح وقلّ العمل. جاع. وليتغلب على جوعه غرق في نوم عميق. أو لعله الجوع أنعسه وأخذه إلى السبات. نام كما ينام الدَّبّ أثناء الشتاء. الجرذان السبعة أصغر منه حجماً. لكنها عملاقة أيضاً. الجرذ بحجم بغل. وهناك جرذان أصغر منها. وهناك جرذان عادية. وكل هذه الجرذان نادراً ما نراها. تحيا في جوف التراب. لا تخرج إلى سطح الأرض إلا فيما ندر.

ارتجّ الجبل بعد الانفجارات الأخيرة المتعاقبة. 14 انفجاراً؟ أقل؟ الانفجار والصدى. ارتج الجبل والجرذ الكبير اهتزّ نومه. ألف كيلو غرام من الـ T N T ليست كمية قليلة من المتفجرات. رأيت سمعان واقفاً وراء الشريط الأصفر مع ناسٍ كثر، ينظرون من فوق البنادق والأكتاف وقبعات الجنود والدرك، ينظرون إلى الهوّة السوداء أمام أوتيل سان جورج. رأيت الشرفات التي وقعت. رأيت طحين الزجاج على السيارات والرصيف وأشجار الزيتون. رأيت النخلات المحروقة. رأيت الأشلاء المبعثرة. رأيت خرطوم شاحنة الاطفاء. رأيت الماء ينبثق كالنهر من الخرطوم ويغسل دماً وبقايا بشرية عن الأرصفة. يقذفها إلى فتحة مجرور بغطاءٍ من قضبان حديد. رأيت فأراً على الطريق. رأيت قطة تلتقط يداً بيضاء من ركام الحجارة والزجاج. الأسود يغطي البنايات. وزجاج المصرف الإنكليزي على

الأرض. والسقالات الحديد والخشب للورشة المجاورة مالت في الفضاء ولم تقع. رأيت حشود البشر تحجّ إلى مكان الانفجار وتذكرت سنوات الحرب. دائماً بعد الانفجار وبعد القصف نذهب لرؤية الدمار. ننظر إلى الدمار ونتبادل نظرات الحزن والصدمة ثم نتبادل الكلمات. البعض يهمس. البعض يرفع صوته. العيون تكون غير العيون. الصوت غير الصوت. رأيت كل ذلك.

الجرذان السبعة استيقظت أيضاً. لا بد أن وقت العمل الكثيف قد اقترب مرة أخرى. أثناء الحرب هلكت هذه الجرذان وهي تركض من ميت إلى ميت. ليست شريرة. هذه ليست الجرذان التي كنت أقرأ عنها في المدرسة. لم نكن نقرأ. المعلمات كنّ يهددن التلميذات المشاغبات بالجرذان. تقول الواحدة منهن لي: أفركُ أذنيكِ لبناً ولبنة وأحبسك في الغرفة تحت الدرج مع الجرذان.

رأيت إحدى معلماتي قبل خمس سنوات. جاءت إلى هنا بعدي. ذهبت مع الذين ذهبوا لاستقبالها. ذهبت هكذا. لم يكن عندي ما أفعله. كنت أشعر بتعبٍ في عينيّ من القراءة المتواصلة فقلت أذهب وأتأمل هذه الطقوس. ثم أنني أكتب. والكاتب يحبّ أن يراقب العادات والتقاليد.

ذهبت ورأيتها. خُيّل إليّ أنها تعرج. لماذا تعرج؟ أخبروني أنها وقعت في بيتها وماتت. ما الذي أماتها؟ قالوا إنها مرضت فجأة بالسرطان. ضرب السرطان عظمها. تجوَّف العظم. انكسرت ساقها مثل عود يابس ثم ماتت. امتلأتُ حزناً والصوت يُخبرني بما جرى لها. طالما كرهتها وأنا في عالم الأحياء. الآن وأنا أراها تعرج هنا، أمام صفٍ من المتاجر المزينة بزينة عيد الميلاد، أحزن حزناً لا يُصدق. الشفقة تملأ أضلاعي. في يدي ابريق ماء. لو أملك القوة الكافية أهرع إليها وأسقيها هذا الماء وأسندها. لكن أين أعثر على

هذه القوة؟ استندتُ إلى عمود كهرباء ونظرت إليها على الرصيف البعيد، تعرج، وتنظر إلى الملابس في الواجهات. أنوار كثيرة. سلاسل من الأضواء الملونة. أشجار خضراء حقيقية. وأشجار بلاستيك. قطن. أو ثلج. أو رذاذ ثلج اصطناعي يتوزع الأغصان. كرات حمراء وبيضاء وزرقاء وصفراء. غزلان صغيرة. وكهف تحت الشجرة. ألعاب ودمى. الزينة تملأ الطريق والمرأة تعرج ولا تعرف أين هي. نظرتها حائرة. وجهها فقد لونه. أرى جرحاً في صدرها. قميصها مفكوكة. أرى ضمادة بيضاء على صدرها. لماذا قميصها مفكوكة؟ أنتبه أن هذا ليس قميصاً. بينما تتحرك من بقعة ظل إلى بقعة من النور الكهربائي أنتبه أنها تلبس ثوب مستشفى أبيض. تلبس الثوب القطن الأبيض النظيف على اللحم. لا تلبس تحته شيئاً. أبرد وأنا أراها. أشعر بالهواء الرطب لعالم الموتى، كالجليد على جلدي. كأنني أُفرك بالوحل. أشعر بخوفها. خوف أم حزن؟ أريد أن أسندها وأن أشرح لها وأسقيها ماء. لا أتحرك من مكاني. يدي على العمود. وعلى رأسي عرق.

أشياء كثيرة عليّ أن أكتبها. أكتب وأكتب وأكتب. إذا قرأت ما أكتب أطلب تمزيقه. أريد أن أُمزق هذه الأوراق. الكتابة صعبة. لا أعرف كيف أكتب ما أرى. أرى الأشياء ليلاً نهاراً. كلما خرجت من البيت رأيت ناساً وتكلمت مع ناس. حتى وأنا في البيت أو في المكتبة أرى أشياء. أريد أن أكتب ما أراه. أرى أشياء لا بد من أن يُكتب عنها. الأشياء لا تهتم. لا تبالي. لكن أنا أهتم. أنا أبالي. ضروري أن أكتب ما أراه. لماذا ضروري أن أكتب ما أراه؟ إذا لم أكتب أعجز عن النوم. لا أقدر أن أنام إلا إذا كتبت.

لكنني إذا قرأت الورقة التي كتبتها أريد تمزيقها. الكتابة صعبة. لم أكتب ما أردت أن أكتبه. بين ما رأيت وما كتبت هوّة سوداء.

السيارات تختفي في هذه الهوّة. والأجسام تختفي أيضاً. «بعد الانفجار ضربت القوى الأمنية طوقاً حول مسرح الجريمة»، أقرأ بينما سمعان يقرأ. ضربت طوقاً وقطعت الطريق أمام السيارات ومنعت دخول الناس إلى الشارع. الناس عندها موتى تحت الركام. ممنوع الدخول وأخذ الأموات. الموتى الذين قضوا في موكب الحريري حُملوا إلى برادات المستشفيات. مستشفى الجامعة الأميركية ومستشفى أوتيل ديو ومستشفى المقاصد. لكن ناساً صادف عبورهم على طريق البحر ساعة الانفجار ـ كانوا يتمشون على الكورنيش، رياضة وسلوى ـ ناساً يعبرون في ذلك المكان صدفة دُفنوا تحت الأنقاض. القوى الأمنية تمنع أقاربهم من الدخول وتفتيش مسرح الجريمة لإخراج البقايا. أحد الضحايا يحمل هاتفاً خليوياً. حاول أن يتصل بعائلته. لم يكن قد مات بعد. قال إنه مدفون تحت سيارة. قال ساقي عالقة تحت السيارة المحروقة، ونادى في التلفون. سمعان يقرأ الكلمات وأنا أقرأ الكلمات. هل أصدق ما يقرأه سمعان؟ هل يصدق سمعان؟

بعد يوم يقرأ أشياء أخرى في الجريدة. يقرأ أن قططاً تخرج من مسرح الجريمة الأسود المسور بحواجز الحديد المطلية بالأبيض والأحمر. القطط تدخل من تحت الحواجز ومن تحت شريط الشرطة الأصفر، تدخل وتخرج ولا تمنعها البواريد والرشاشات. تدخل خفيفة لكنها تخرج مثقلة البطون. سمعان يقرأ إن الناس في مينا الحصن وعين المريسة يسمعون صوت القطط تتقاتل في الليل وتموء مواء وحشياً. امرأة ترى قطة خارج نافذة المطبخ تحمل بأسنانها يداً بيضاء بشرية. تزعق المرأة وتزعق وتزعق. عائلة ـ امرأة وبناتها الثلاث وشقيق المرأة ـ تعارك الدرك وتدخل المكان الممنوع أن يدخله أحد. لجنة تقصي الحقائق يقودها الإيرلندي مبعوث الأمم

المتحدة ادوارد فيتزجيرالد تأخذ عينات من مسرح الجريمة الآن. رجال يرتدون كمامات بيضاء وقفازات بيضاء يركعون على التراب الأسود المحروق، بين جلاميد الزفت، ويأخذون عينات تراب. في هذه الأثناء تقتحم العائلة المكان. بين الركام تُرى قدم، قدم عارية. الحذاء احترق والكلسات احترق. ألم يرَ أحدٌ قبلكِ أيتها المرأة الباكية هذه القدم؟ في يد الرجل الباقية تلفون انتهت بطاريته.

أريد أن أمزق ما كتبت. لماذا أكتب هذه الأشياء الفظيعة؟ سمعان قرأها في الجريدة. العائلة نفسها، عائلة الرجل الذي قُتل لأنه مرّ في تلك النقطة في تلك الدقيقة من ظهيرة 14 شباط، العائلة المنكوبة ذاتها، قرأت في الجرايد ورأت في التلفزيون كل هذه الأشياء. هل أمزق ما كتبت؟ أراهم يقعدون في البيت العالي، بين الأثاث الذي اشتراه الأب، يقعدون في البناية المشرفة على كورنيش المنارة، يتكلمون ويبكون. أرى الابنة الكبيرة وأرى الابنة الصغيرة. أراهم وأفكر في أهلي. أراهم ولا أبكي. لماذا لا أبكي الآن؟ من شرفة البيت يستطيعون رؤية جامع عين المريسة وتمثال جمال عبد الناصر ومطعم ماكدونالد وأوتيل فاندوم والشبح الأسود لفندق سان جورج. من هنا يرون سيارات الاسعاف البيضاء مرسوم على أبوابها الصليب الأحمر أو الهلال الأحمر. من هنا يرون شاحنات الاطفاء الحمراء وشاحنات الدفاع المدني والنجدة الشعبية. من هنا يرون الركام الأسود. من هنا رأوا قبل وقت النار والدخان. نزل الأب ليمشي قليلاً. خرج ولم يعد.

أريد أن أمزق ما كتبت. لكن تمزيق الأوراق ممنوع. هذا قانون صارم في عالم الأموات. كل ما يُكتب يُحفظ في الأرشيف. ممنوع تمزيق الورق. بعد زمن طويل ـ إذا لم يطلب أحد رؤية هذه الأوراق ـ يُمكن غسل الصفحات بمادة خاصة فترجع الأوراق

بيضاء. ممنوع منعاً باتاً تمزيق الأوراق. الحروف تحتشد كالحشرات على الورقة وممنوع أن أحرقها. أريد أن أحرقها. لكنني لا أقدر.

سمعان أيضاً سهران. أتعب وأفتح التلفزيون لحظة فأراه على الصوفا، ما زال يلبس بنطلونه، ورأسه على المسند. لماذا لا يتخلص من ثيابه ويرتدي المنامة؟ لماذا لا يرتاح؟ على التلفزيون قبالته شريط اخباري: كتائب الأقصى تتبنى... قوات الاحتلال تغتال... ارتفاع عدد ضحايا زلزال باكستان إلى 53 ألف قتيل... الجيش الأميركي يقول إن خمسة من جنوده قد... انفلونزا الطيور تنتقل مع طيور مهاجرة من تركيا إلى سورية... نسبة الرافضين الدستور في سامراء وحدها بلغت... اكتشاف مقبرة جماعية لضحايا مذبحة سابرنستيا في البوسنة... تحذير بريطاني من... المغرب يتهم الجزائر والبوليساريو بالسعي إلى... مسيرة نسائية في العاصمة البلجيكية... التضامن مع... مقتل 3 مستوطنين اسرائيليين... كتائب الأقصى تتبنى... ها هو الشريط يبدأ مرة أخرى. دار على نفسه دورة كاملة وسمعان ما زال يقرأ الكلمات. هل ينتبه أنه يقرأ الكلمات ذاتها؟

حين أخذوني إلى المكتبة للمرة الأولى وقفت بين الصفوف الطويلة، بين الخزائن والرفوف والممرات، وقفت ولم أعرف ماذا أفعل. كيف سأقرأ كل هذه الكتب؟ قلت هذا مستحيل، في مئة سنة لن أقرأ هذه الكتب كلّها.

قالوا عندك أكثر من مئة سنة. ولا ضرورة لقراءة الكتب كلّها. المهم القراءة.

أخذوني إلى أعماق المكتبة. هناك، في أعماق المكتبة، توجد الكتب القديمة. طاولات لا تُعد وناس يتوزعون الطاولات. الكتب

مفتوحة على الطاولات، تحت المصابيح الخضراء، والرجال والنساء ينكبون على القراءة. وجوههم تسبح في عوالم أخرى، ومرات ينسون أن يحركوا أطرافهم، وتخدر الأطراف. إذا نهض الواحد منهم ومشى إلى برّاد الماء ليملأ كوبه ماء استند إلى الطاولات لئلا يقع. على ساقه يزحف النمل. احساس حلو. تنمل الساق. تتنمل ساقه وتتنمل يده من القعود الطويل. امرأة تقف وراء طاولة أخرى، تُبعد الكتاب وتقف وتسير إلى النافذة. أنفاسها تعمل بخاراً على الزجاج. تنظر إلى الأشجار وإلى السماء وإلى الغيوم. من بين الأشجار تظهر قطعة من البحر. قطعة زرقاء يشعّ عليها ضياء الشمس، نقطاً بيضاء كالفضّة، نقطاً صفراء كالذهب. أرى دموعاً في عينيها. ماذا تتذكر؟ ماذا تفكر الآن؟ شعرها أحمر. على وجهها نمش. على كتفيها وظهرها نمشٌ أيضاً. تلبس بلوزة بلا كمين. كتفاها مدوّرتان. رجل على طاولة أخرى يرفع وجهه عن كتابٍ وينظر إليها. بلوزتها بيضاء كبشرتها. عليها زهور حمراء كالدم. بنطلونها أبيض. ليست سمينة. لكنه ينظر إليها كما ينظر رجل إلى امرأة سمينة. امرأة ملآنة. أعرف كيف ينظر الرجل.

في أعماق المكتبة، حيث الكتب القديمة، يزدحم القراء. الموتى يعرفون الكتب. لا أحد هنا يقرأ كتباً جديدة. يقول ناظر المكتبة الذي يساعدني في العثور على ما أريد، يقول إن الكتب الجديدة غير ضرورية. يشرب ماء ويقول إن الكتب الجديدة تُقسم إلى نوعين: النوع الأول غير جيد. والنوع الثاني جيد. النوع الثاني هو إعادة كتابة لمؤلفات قديمة. النوع الأول يريد أن يكون جديداً، لا يريد أن يُقلد القديم. هذا النوع يكتبه عموماً ناس لا يحبّون القراءة. يقولون إنهم يحبّون القراءة لكنهم في الحقيقة لا يحبّون القراءة.

ناظر المكتبة يقول:

ـ من يحبّ القراءة لا يكتب. من يحبّ القراءة لا يضيع الوقت بالكتابة. لماذا يكتب؟ عنده كل هذه الكتب ليقرأها.

أنظر إلى وجهه الأبيض الفتيّ ـ كأنه صبي هذا الرجل ـ وأقول له إنني صرت أحبّ القراءة كثيراً وأنا هنا، لكنني مع هذا أحبّ أن أكتب أيضاً.

يقول إن هذا أمر مختلف فأنا لست في عالم الأحياء الآن وهو يتكلم عن الكتب الجديدة التي تكتب هناك. ويقول إنني ما زلتُ شديدة الحماسة للجدل.

ـ من يحبّ القراءة لا يُضيع الوقت بالكتابة ولا بالجدل. بل يقعد ويقرأ.

يحبّ تكرار الجملة مرتين. إذا أحبّ وقع الكلمات على أذنه يكرّرها. كأنه لا يُكلمني. كأنه يُحدث نفسه.

تضايقني ثقته بنفسه. لعل ما يزيد انزعاجي وجهه. لو كان عجوزاً كنت أتقبل كلامه. لكنه يبدو ولداً.

أقول له إن الواحد قد يملّ وهو يقرأ، ثم أنه يقول دائماً أن الكتب الجيدة هي الكتب القديمة، ويقول إن الكتب القديمة ليست كلّها جيدة، وهذا معناه أن الكتب الجيدة قليلة، وبالتالي الواحد يقدر أن يقرأها كلّها، وبعد ذلك ماذا يفعل؟ بعد أن أنهى قراءتها ألا يستطيع أن يكتب؟ لقد انتهى من قراءة الكتب الجيدة، أقول، فماذا يفعل الآن؟

يقول لي:

ـ يقرأها من جديد. القراءة الأولى لا تُحسب. القراءة الثانية هي القراءة الأولى. بعد المرة الثالثة يبدأ يفهم ما يقرأ. من هنا

وصاعداً، في القراءات التي تتوالى مكررة سنة بعد سنة، عقداً بعد عقد، يبدأ يرى ما يقرأ. في البداية لا ترين إلا الكلمات. بعد وقت تأتي الصور. الكتاب الذي أعطيتك إياه قبل شهرين ستعودين إليه بعد عامين. ولن تصدقي أنك رأيته من قبل.

أتضايق من كلام يوحنا ولا أتضايق. أنظر إلى أوتار رقبته وهو يحكي وأسترخي رويداً رويداً. أعلم أنه لا يكذب. كلماته مستقيمة. فيها حرارة. لا يتكلم إلا قليلاً. لا يحبّ الكلام. يقولون إنه كان هو أيضاً يكتب. ليس هنا، في عالم الأحياء. هنا لا يكتب. لم أجد ورقة واحدة في صندوقه في الأرشيف. لكل واحد منا صندوق في الأرشيف. كل ما أكتبه ولا أريده يؤخذ إلى هناك. ما أريده أتركه عندي. يُترك عندي فترة محددة ثم يؤخذ إلى هناك أيضاً. صندوقي شبه ملآن. وسأعطى صندوقاً آخر. صندوق ناظر المكتبة فارغ. الصناديق الفارغة في الأرشيف قليلة. كلّنا نكتب. الكتابة كالوباء. لكن العجائز لا يكتبون جميعاً. وبين الشباب من لا يكتب أيضاً.

أريد أن أقرأ كل ما قرأه يوحنا. لكن هذا يحتاج إلى وقت طويل. لا أعرف متى جاء إلى هنا. لكنه جاء قبل زمن بعيد. كيف مات؟ لا أعلم. ليست على جسمه علامات ظاهرة. لعله مات وهو نائم. مع أنه يبدو في الثلاثين أو العشرين من العمر. لا أعرف كم عاش، وجهه طفولي ويخدع العين. لعله مات وهو في الأربعين.

أنظر إلى سمعان ينظر إلى التلفزيون. لماذا لا ينهض ويخرج إلى الشرفة وينظر إلى القمر؟ أوشك البدر أن يكتمل في سماء بيروت. هذه ليلة السبت وغداً الأحد. غداً بعد الظهر يقع مطرٌ على المدينة. وبعد المطر تصفو السماء ثم يبين القمر. عند الثالثة فجراً يظهر جبل غيوم بيضاء في سماء بيروت. ليس جبلاً. سلسلة جبال. غيوم بيضاء تفور، والقمر يرتفع فوق الغيوم. لكن أحداً لا ينظر إلى

القمر. الناس نيامٌ. المدينة هاجعة. سهروا في المطاعم والملاهي والبيوت والطرقات. سهروا حتى تعبوا فارتموا في الأسرة. بعد الطعام والشراب والدخان واللهو غرقوا في نوم عميق. لا أرى إلا امرأة على شرفة، أيقظها القمر. تنظر إلى البدر ويدها على بطنها. تلبس قميص نوم أزرق وتنظر إلى القمر. المرأة تعرف القمر أكثر من الرجل. يؤثر في جسمها القمر. الطاقة تفور في بطن المرأة وهي تنظر إلى القمر وتسمع رجلاً في أحد البيوت يسعل وهو نائم. مع أنها أمطرت عند المساء فثمة نوافذ مفتوحة. الجو منعش لكنه ليس بارداً. تسمع طقطقة تخت. ونباح كلب.

لكننا ما زلنا في السبت. لم نبلغ بعد الأحد. أنظر إلى سمعان أمام التلفزيون وأفكر: ألا يقرأ أبداً هذا الرجل؟ إذا قرأ يقرأ الجريدة أو يقرأ الترجمة على شاشة التلفزيون. لماذا لا يقرأ؟ أختي ماري كانت تدفع الكتاب أمام عينيه في أيام المدرسة وتقول اقرأ هذا، هذا حلو، فيه صور حلوة، وقصته حلوة. لكنه لا يقرأ. يقول أنعس وأنام إذا فتحت أمامي كتاباً.

فكر أنه يريد أن يقرأ شيئاً وهو يغادر بيت تلك المرأة في ذلك الحيّ المطلّ على جبل برج حمود. كان متعباً مشقوق الصدر من السهر وقلة النوم، ورأسه مصدّع بالحرّ والرطوبة، وفكر أنه يريد أن يقرأ شيئاً. كانت هذه فكرة غريبة عن طبيعته، حتى أنه سأل نفسه، وهو يطلع في السيارة الغارقة في النور البرتقالي لمصابيح الكهرباء، سأل نفسه من أين جاء هذا الاحساس؟ «أنا أطلب أن أقرأ كتاباً»؟ كان هذا شديد الغرابة بالنسبة إليه حتى أنه شعر نفسه ينفصل عن جسمه. هل زرعت أنا هذه الفكرة فيه، من هنا، من الجانب الآخر، وأنا أنده له في ظلمة المدينة التي لم تستيقظ بعد؟

لم أقطع نهراً. انحدرت على خط التماس صوب البحر. القمر

يتدفق كالفضة المذابة، يبرق ثقيلاً كالزئبق على زجاج البنايات. القمر خفيف النور. الأشجار تطفو في نور القمر. العمارات تطفو والبيوت. لكن تلك الليلة كان نور القمر أثقل من أشعة الشمس في عزّ الصيف. لم يكن قمراً. كنتُ أخرج من عالم الأحياء.

هنا أشعر بالراحة وأنا أقرأ. هنا لا نشعر بالخوف. أتكلم مع كثرٍ حين لا أقرأ. نتكلم ونأكل معاً. أعرف ماذا يفكرون. لا يخافون. في عالم الأحياء يدفعنا الخوف من ساعة إلى ساعة. هنا لا نخاف. لكننا نشعر بالحاجة إلى الماء. لا نجوع كثيراً. إذا كنت غارقة في كتاب قد تمضي عليّ أيام ولا أنتبه أنني لم أضع في فمي لقمة. لا يحدث هذا دائماً. لكنه يحدث. لا أشعر بالجوع كثيراً. لكن العطش. أينما ذهبت، في الطرقات، في المكتبة، في البيوت، حتى في الحقول، تجد برّادات الماء وسواقي الماء وينابيع الماء وبرك الماء. الحياة هنا مستحيلة بلا ماء. لا ترتاح حقاً إلا وأنت تشرب. دائماً هذه الحاجة: الرغبة في الماء.

أشرب وأقرأ. لا أخاف هنا. لا أتألم. عندما تلقيت الخبطة الأولى على رأسي، وأنا أُخطف عن «المتحف»، رنّ رأسي رنيناً. كأنه جرس الكنيسة. سمعت الطنين من أذن إلى أذن. وسمعت الصدى يتورم ويؤلم عينيّ. عرفتُ أنني أُخطف. عرفت. لكنني لم أفقد الأمل. هناك ناس خُطفوا ثم عادوا. ليسوا كثراً. لكن هذا حدث من قبل. وأنا أعلم أن الربّ لن يتركني. لم أفكر في الربّ. فكرت في الحياة. الحياة لن تتركني الآن. لن تتخلى الحياة عني، ما زلت في أول الحياة. من أين جاء ذلك الأمل العارم وملأ قلبي؟ بلى، بالتأكيد، كنت مملوءة خوفاً. لكن، مع الخوف، جاء أمل. أحاول أن أفهم سرّ ذلك الأمل. أقرأ وأشرب ماء وأكتب وأريد أن أفهم. حتى هذه الساعة لم أستوعب موتي. لم أستوعب بعد. كيف

مت؟ لماذا مت؟ وقتي لم يكن قد حان بعد، فكيف خرجتُ من عالم الأحياء؟ كيف خرجت؟

لا أقدر أن أنام. أصابعي تتعب وأنا أكتب. أترك الأوراق وأذهب إلى النافذة. أُعطيت هذه الغرفة في جناحٍ من أجنحة المكتبة بعد أن صُرت أشتغل هنا. أحبّ هذه الجهة من المكتبة. هذا العالم ـ الذي أصبح عالمي ـ مكتبة لا نهائية. هل هو عالمي؟ ما زلتُ مشطورة بين عالمين. لم أنسَ ذلك الجانب بعد. لا أقدر أن أنساه.

أنظر من النافذة وأرى غيوماً تسبح في سماء الليل وأفكر في سمعان يفتح نافذة وينظر إلى الشبح الأسود لمكب برج حمود. الآن إذا قام عن الصوفا وخرج إلى الشرفة المطلّة على الكنيسة وراء البيت (لا يقدر من الشرفة أن يرى الكنيسة لكنه يرى قمة القرميد ويرى البرج الحجر ويرى ـ في قلب البرج ـ الجرس النحاس)، إذا خرج ونظر إلى السماء العالية ماذا يرى سمعان وماذا يفكر؟ لم يعد ولداً. بات في الأربعين.

عندي خزانة. وعلى باب الخزانة الداخلي مرآة. الخزانة مملوءة كتباً. هنا لا أملك فساتين وجزادين وسكربينات. أنظر إلى المرآة في الليل وأتخيل نفسي في عالم الأحياء. كل هذه السنوات مرّت عليّ وما زلت كما أنا، لم أتغير. الرضّة السوداء على خدي هي هي. تنورتي الصوف الرمادية المنقطة بالأزرق هي هي. فانلتي القصيرة هي هي. ألمس بطني المدوّرة. ألمس عظمة يدي هذه ثم عظمة يدي هذه. ألمس الرضّة الزرقاء على بطن فخذي. ألمس عينيّ. أمشط شعري وأفكر في الحياة.

نسمع أن الجرذ الكبير أيقظته الانفجارات الأخيرة. ألف كيلوغرام من المواد المتفجرة في وسط بيروت. هُزَّت المدينة كلّها.

سمعان يحبّ هذا الرجل الذي قتلوه. الرجل رمَّم المدينة. رمَّم بنايات يحبّها سمعان. جدّي اسمه سمعان أيضاً. حين سمّى أبي ابنه الوحيد (كان يعلم أنه لن ينجب ولداً آخر، هو يعلم وأمي تعلم) حين سمّاه سمعان مثل أبيه، قال جدّي سمعان إن هذا الولد سيكبر ويصير مهندساً مثل جدّه. أخي سمعان ينظر إلى فيلا مكسيكو، ينظر إلى البنايات الثلاث المتطابقة في شارع المعرض، ينظر إلى قناطر بيتنا، ويسأل نفسه ماذا صنع حتى الآن بحياته؟ يشعر بثقل الوقت على كتفيه. كأنه في هذه السنة الأخيرة عاش دفعةً واحدة أربعين سنة.

أريد أن أتكلم معه. أشتاق إليه. كنت أحبّ الكلام معه. أذكر قعودنا في كافيتريا الجامعة معاً نشرب ونأكل همبرغر وندخن. أذكر قعودنا على شرفة البيت. أذكر نزهاتنا على الطريق المجاورة لبيت جدي في الجبل. أذكر البحر وأذكر الشمس وأذكر الرمل. أذكر زيت البحر. كل هذه الأشياء أذكرها. وأذكر ضحكته. كان يتبعني من غرفة إلى غرفة حين كان صغيراً.

الجرذ الكبير استيقظ جائعاً من نومه الطويل. منذ 15 سنة وهو نائم. سنوات السلم الأهلي أعطته النوم. الجوع ثم النوم. قلّت أعداد الموتى فنام. الآن استيقظ. الجرذ جائع وغاضب. غاضب لأنه جائع. وجائع لأنه غاضب. لماذا أيقظوه بهذا الدوي؟ أولاده ـ الجرذان السبعة ـ متوترون. أين الطعام؟ أين الأرواح؟ أين الدم؟ أين الحياة التي تؤكل؟ ينتظرون ما سيأتي. جرذ من الجرذان أضاع طريقه في أنفاقٍ تفضي إلى أنفاق وقطع هذا الجانب. عَبَرَ النهر المذكور في «الأوذيسة»، النهر الفاصل بين عالمين، أم لم يعبره؟ دانتي لم يذكر الجرذ آكل الأرواح في كتابه. أقرأ كتابه وأشعر أن الذي كتب هذا الكتاب واحد من هذا العالم، ليس من عالم الأحياء. لكن يوحنا قال لا، كان في عالم الأحياء عندما كتبه.

أتناقش مع يوحنا أحياناً. لكنه عموماً يُفضل السكوت. يطلب مني القراءة مرة أخرى. أقول هل يعرف دانتي هوميروس؟ أقول قرأت أنه لم يكن يعرف لغة اليونان، هل هذا صحيح؟

يقول هذه الأشياء غير مهمة الآن.

أسأله متى تصير مهمة.

يقول إنه يقرأ الآن، لماذا لا أذهب وأقرأ؟

أقول إنه قرأ هذا الكتاب ألف مرة وأنا هنا، ولا أحد يعلم كم مرة قرأه قبل أن أجيء.

يرفع وجهه ويبتسم. أعرف أنه يحبّني. حتى وهو يرفع صوته ـ هذا مسموح ـ حتى عندئذٍ أعرف أنه يحبّني. لا أخاف منه. لكنني لا أحبّ أن يزعل مني. أريد أن أعرف أشياء عن حياته. لكنه لا يقول شيئاً أبداً.

جرذ ضلّ الطريق وقطع هذا الجانب إلى الجانب الآخر وأثار ذعراً بين بيوت بيروت. هذا ليس الجرذ الكبير. الجرذ الكبير بحجم جبل. إذا خرج من هذا العالم إلى عالم الأحياء قلب المدينة كما تقلب الزلازل المدن. أنظر إلى سمعان ينظر إلى التلفزيون وأشعر بالنعس. هذه فائدة التلفزيون بالنسبة إليّ. بينما أنظر إلى عالم الأحياء، إلى صورٍ من عالم الأحياء تتوالى في الشاشة الصغيرة، أشعر أنني أنعس، كأنني أتحول من امرأة إلى شجرة.

أنعس أمام الشاشة وأنام. اللون الأزرق يملأ عينيّ. أنتبه أنني أنعس قبل أن أغرق في النوم. كأنني لم أعد أشعر بأصابعي. كأن أصابعي تراب. لم أعد جوزفين يارد. تحولت إلى تراب. أنعس رويداً رويداً وأغرق في الصوفا وأغرق في التراب. الآن لا يبلغني الحنين ولا تعذبني الرغبات. أنا تراب. أنا نائمة. أنا. . .

عند السادسة صباحاً يرنّ جرس المنبه. عليّ أن أغتسل وأشرب ماء قبل أن أذهب إلى العمل. عملي غير بعيد. عملي هنا، في المكتبة. من الخارج، من وراء النافذة، تأتي أصوات المدينة وهي تنهض من النوم. طرقات. أبواب. نوافذ. رائحة قهوة. رائحة حليب. رائحة شاي. أصوات.

الروائح ليست قوية. ذكرى الروائح هي. لكنني أشمّها. يوحنا يقول إنني أفعل ذلك بقوة الحنين فيَّ. ويبدو حزيناً.

«بيروت الثلثاء 18 تشرين أول/اكتوبر ـ ينتظر اللبنانيون صغيرهم وكبيرهم بلهفة صدور التقرير النهائي الخاص بالتحقيق في مقتل رئيس الوزراء الأسبق رفيق الحريري والذي يعكف المدعي العام الألماني ديتليف ميليس على اعداده ويتساءلون ما إذا كان التقرير سيكشف عن الحقيقة كاملة أم لا.

وقالت غادة سنو وهي ربة منزل «أنا متلهفة جداً وقلقة في الوقت نفسه، أنا أستيقظ كل يوم وأشتري الصحيفة لأعرف متى سيظفر الذئب الألماني (ميليس) بفريسته ويضع من دبروا اغتيال الحريري في السجن».

ولقد صار ميليس حديث المدينة في كل مكان وحتى في أفنية المدارس حيث يتحدث الأطفال الذين تتراوح أعمارهم ما بين 8 و13 سنة عن المدعي العام الألماني الذي كلف قبل ثلاثة أشهر برئاسة اللجنة التي عينتها الأمم المتحدة للتحقيق في اغتيال الحريري في 14 شباط/فبراير الماضي. وقالت رندا حكيم وهي مدرسة «لقد سمعت أحد تلاميذي يقول لزميله هل تعلم أن ميليس سيسلم تقريره يوم الخميس وسنعرف بعدها من قتل الحريري». وأضافت رندا لوكالة الأنباء الألمانية «طلبت من تلاميذي أن يذكروا اسم شخص مشهور في لبنان وأجاب أحدهم أنه ميليس النسخة الألمانية من

المحقق كولومبو في الأفلام الأميركية». وأضافت أن بعض أولياء الأمور أبلغوها أن أولادهم قد يتغيبون عن المدرسة يوم الجمعة خوفاً من وقوع عنف عقب صدور تقرير ميليس».

وعلاوة على المدارس يتحدث الناس في الشوارع عن تقرير ميليس وعندما يمشي المرء في شارع الحمرا الشهير في العاصمة بيروت فإنه يلحظ على الفور الأعداد الكبيرة من الجالسين على المقاهي وهم يقرأون الصحف اليومية اللبنانية أو يناقشون التحقيق في اغتيال الحريري.

وقال أحمد حجازي وهو رجل أعمال أنه جاء إلى هذا المقهى (الويمبي) كي يقرأ الصحيفة في محاولة لتخمين ما سيقوله ميليس في تقريره وهل يعرف الحقيقة كاملة أم أن التقرير سيكون عاماً. وقال سليم الحلو وهو موظف بنك أنه يأمل خيراً خصوصاً وأن الألمان مشهورون بالدقة.

وقال أبو جلال دكروب بائع الصحف المعروف في هذا الشارع أن الصحف تنفد كلّها منذ ساعة الصباح الأولى وهذا لم يحدث في حياته من قبل وهو يزاول مهنة بيع الصحف منذ 47 سنة.

وقال الموظف في ستارباكس (الحمرا) يوسف خوند وهو يمسح الماء عن طاولات بللها المطر الذي هطل فجراً أن «الجرايد تبلى وهي تتنقل من طاولة إلى أخرى، وأن الزبائن يطلبون الجرايد بالدور ويتعاركون عليها». ويلاحظ تزايد كثيف لقوات الأمن وعناصر الجيش على المفترقات وحول السفارات وأمام المجمعات التجارية.

وتخطط مدارس للتعطيل يومي الخميس والجمعة على سبيل الحيطة والحذر. بينما يواصل عدد من الوزراء والنواب الاقامة خارج البلاد خشية التعرض لعمليات اغتيال. ويعتصم الزعيم الدرزي

المعارض وليد جنبلاط بقصر «المختارة» المحصن على قمة الجبل. أما سمير جعجع القائد المسيحي المعارض الذي أُخرج أخيراً من سجن وزارة الدفاع حيث أقام طوال الـ 11 سنة الأخيرة في قبوٍ ضيق تحت سطح الأرض، فهو ينزل حالياً في أحد فنادق العاصمة الفرنسية باريس محاطاً بتدابير أمنية مشددة. ويواصل رئيس أكبر كتلة نيابية في المجلس المنتخب إثر اغتيال الحريري نجله سعد الحريري تنقله بين عواصم القرار العالمي بانتظار صدور تقرير ميليس. ووجود كل هذه الشخصيات خارج لبنان يزيد هواجس المواطنين.

لكن الأجنبي الذي يمرّ في بيروت خلال هذه الفترة لا بد أن تستوقفه ضجة ورش البناء في وسط المدينة، وتحديداً في المنطقة الممتدة من ويغان واللنبي غرباً باتجاه أوتيل فينيسيا وفندق سان جورج، وهو الجزء الغربي من مشروع سوليدير لإعادة بناء الوسط التجاري الذي دمرته الحرب. وتغطي السماء هنا الأوناش الصفراء العملاقة ويعجب السواح من نشاط حركة البناء في الشهور الأخيرة رغم حالة الاضطراب والخوف في وقتٍ استمرت فيه التفجيرات. ويرتبط هذا النشاط العمراني بارتفاع أسعار النفط أخيراً وبالاستثمارات الخليجية في وسط المدينة.

وقال يوكيو يوميوري وهو رجل أعمال من طوكيو يزور بيروت للمرة الأولى أنه ركب المنطاد السياحي Sky Gate ودهش من عدد الأبراج التي تُبنى في وقتٍ واحد على طول الشاطئ الممتد من قلب الوسط التجاري إلى منطقة عين المريسة. ويقدر العابر في المساحة المذكورة أن يحصي عشرات الورش الضخمة وأن يتخيل ما ستكون عليه المنطقة خلال الشهور الآتية بالنظر إلى الرسوم الكبيرة المعلقة على ورش البناء وبقراءة الأسماء التجارية مثل: «بلاتينوم تارو»، «بيروت تاور»، «مارينا تاور»، «تو بارك أفنيو»، «1330 بارك

أفنيو»، «فور سيزونز هوتل»، «هيلتون بيروت». هذه المباني الضخمة والفنادق ذات النجوم الخمس شكلت جزءاً من حلم الرئيس الحريري بتحويل المدينة إلى عاصمة الشرق الأوسط التجارية خلال السنوات القليلة المقبلة. وتمتد الواجهة البحرية قبالة مكب النورماندي للنفايات الذي يُعالج منذ سنة 1999 بغية تحويله إلى حديقة عامة. والمشروع تتولاه سوليدير وكان المفروض أن ينتهي في 54 شهراً أي في اكتوبر 2003 بحسب المكتوب على اللوح الحديد الباقي في مدخل المكب.

وقال جاك متى أحد مهندسي أبراج الواجهة البحرية أن المشاريع لم تتأخر وأكّد أن سنتي 2006 و2007 ستشهدان ولادة جديدة لبيروت، خصوصاً وأن اكتمال مرفأ اليخوت الجديد سيفتح المدينة المتوسطية على البحر والعالم.

ويقول المهندس وليد غلام أن آلاف العمال يشتغلون ليلاً نهاراً منذ شهور لإكمال المهمة في الوقت المحدد. وبالفعل تشاهد قوافل من العمال اللابسين الخوذ وهم يشبكون قضبان الحديد ويُشغلون ماكينات صب الباطون ويُركبون ألواح الزجاج. والأبراج ستضم مساكن ومكاتب ومطاعم معاً.

وبينما تخفق ستائر سمراء خارجة من صفوف النوافذ المحطمة لأوتيل سان جورج حيث وقعت عملية التفجير التي أودت بحياة الحريري، تخفق أشرطة قماش حول قضبان بلاتينوم جديدة تُثبت ألواح الزجاج في «مارينا تاور». وفيما يتعالى هذا البرج الأزرق الزجاجي الفخم ليطلّ على البحر وعلى فندق المونرو الزهري اللون، تواصل عربات وشاحنات تعبئة الحفرة الضخمة التي أحدثها انفجار 14 شباط/ فبراير بالرمل الأصفر.

وكان موقع «نيتز تساتيونغ أونلاين» نقل عن مصادر مقربة من لجنة التحقيق الدولية تفاصيل مهمة حول الدقائق الأخيرة من حياة الرئيس الحريري:

ظهيرة الاثنين 14 شباط ـ وكان البحر ساكناً وسماء الشتاء صافية ـ عند الواحدة إلا عشر دقائق (12,50 ظهراً) غادر الرئيس الراحل مقهى الإيتوال مقابل مبنى البرلمان وأعطى توجيهاته إلى قائد الموكب محدداً الطريق الواجب سلوكها: عبر طريق حسين الأحدب مروراً بشارع ويغان وشارع فوش وصولاً إلى كورنيش البحر.

قاد الرئيس الحريري سيارته المصفحة بنفسه يرافقه النائب الراحل باسل فليحان... إنها سيارة خاصة فريدة من نوعها لا تخرقها صواريخ الـ ب 7. وبحسب خبراء دوليين في جهاز ميليس فإن سيارة الحريري لم تصب بأعطال كثيرة.

السيارات الثانية والرابعة والخامسة كانت من نوع مرسيدس سوداء بداخل كل واحدة ثلاثة مرافقين من الحرس وكانت مجهزة بأحدث الآلات التقنية لقطع الإرسال في محيط الموكب السيّار. تبلغ تكلفة هذا الجهاز 300 ألف دولار.

في آخر الموكب المكون من 6 سيارات سيارة اسعاف تلبية لرغبة الرئيس الراحل في وجود أطباء عند الضرورة.

12,56 مرَّ موكب الرئيس الراحل أمام فندق المونرو ثم ميناء الحصن وزاد سرعته ليستدير نحو فندق سان جورج، أفضل الأمكنة لتدبير الاغتيال.

بعد أقل من نصف دقيقة وقع الانفجار الذي هزّ المدينة... وتبين للأطباء أن وفاة الرئيس الراحل رفيق الحريري ناتجة عن جرح داخلي في الدماغ.

ست دقائق ونصف من ساحة مجلس النواب إلى مكان الانفجار. . . هذه الدقائق تُقلق حالياً بال المحقق الدولي ديتليف ميليس الذي يُركز أيضاً على اتصالات ستة هواتف خليوية شُغلت في المنطقة المذكورة قبل الانفجار ثم عُطلت ورميت بعد الانفجار. ففي ست دقائق ونصف، وبينما الموكب يقطع بين ورش البناء، وقعت الجريمة».

من الأحد 16 تشرين الأول إلى الأربعاء 19 اعتاد سمعان وسيسليا أن يلتقيا أول المساء ويظلا معاً إلى بعد منتصف الليل. انتظم العمل في المونوبري وباتت سيسليا تذهب إلى هناك في الصباح الباكر وتغادر بين السادسة والسابعة، بينما السماء تظلم والمصابيح تضاء في شوارع بيروت. مساء الأحد طبخا لوبياء بالزيت. سمعان يقلي بصلاً مفروماً وثوماً بزيت الزيتون في الطنجرة. وهي تفرم بندورة على اللوح الخشب. رائحة التقلية تملأ المطبخ. سيسليا تضحك وتقول كل النهار وأنا أطبخ ثم أرجع إلى البيت لأطبخ من جديد. ولا نأكل إلا نصف الطعام. حتى النصف لا نأكله. اليوم طبخت مجدرة وطبخت ورق عنب وعملت صواني كبّة بالفرن. والآن لوبياء بالزيت.

سمعان يقول إنه لم يكن يعلم أنهم هدموا البناية قبالة سوبرماركت عون، متى هدموها؟

سيسليا تقول قبل أيام، يومين أو ثلاثة.

سمعان يقول إنه مرّ من أمام مطعم واكيم فلم يرَ العجائز لاعبات السكرابل قاعدات في الداخل، كل عجوز على طاولة وأمامها اللعبة والحروف، وجنب اللعبة صحن خزف مدور صغير فيه قطعة بسكويت بنيّة اللون.

سيسليا قالت المدينة غيّرت عاداتها هذه الفترة.

سمعان قال إن المكان بات فسيحاً هناك بعد أن أزالوا البناية والشجرة الكبيرة.

سيسليا قالت لا أذكر شجرة.

سمعان قال لا أحكي عن البناية قبالة «عون»، البناية الأخرى قبالة «واكيم»، جنب صناديق النفايات، ألا تذكرين الشجرة العملاقة التي تخيم على الرصيف والطريق؟

سيسليا قالت انتبه للبصل، لا نريده بنيّاً.

قلبت اللوبياء المقطوعة في الطنجرة ورشت ملعقة ملح. قالت الآن علينا تقلية اللوبياء جيداً ثم نضيف البندورة وملعقة ربّ بندورة ونتركها على النار، أليست سهلة هذه الطبخة؟

سمعان قال هكذا فقط؟ انتهينا؟

سيسليا قالت انتهينا، الآن تطبخها النار.

المكان دافئ ونور الكهرباء ينعكس على المجلى وصوت التلفزيون المفتوح يأتي من غرفة القعود. على الطاولة قنينة نبيذ أبيض بلا سدّة وكوبان وصحن جبنة بيضاء. وضعت سيسليا غطاء على الطنجرة وعدلت النار. سمعان سكب مزيداً من النبيذ في الكوبين. فجأة هبّ هواء عبر النافذة وهطل المطر.

مطر غزير تساقط على المدينة. ومع القطرات الأولى انقطعت الكهرباء. تعالى صراخ الأطفال. أولاد خرجوا إلى شرفات البيوت يصفقون للمطر ويصيحون. أبواق السيارات ارتفعت. الشوارع تتحول إلى أنهار في لحظات. شعلة الغاز تحت الطنجرة تضيء المطبخ بضوء أزرق ضعيف. المقعدان يتجاوران. سيسليا تضحك فرحة بالمطر. هذه المطرة الأولى. رائحة الباطون تفوح. ورائحة

الأرض تفوح. المدينة تغسل عن جسمها الصيف وغبار الصيف. الفضاء يغتسل. الكهرباء انقطعت لكن هذا طبيعي في مدينتنا. بعد قليل ترجع الكهرباء. لا طائرات تقصفنا هذه الأيام. والمرفأ فيه سفن وقود. المولدات تشتغل بعد قليل والكهرباء تعود. موسيقى المطر بين عمارات بيروت. صرخات الأطفال الجذلى. صوت المدينة الذي يتغير ويصفو.

تعانقا وخرجا إلى الشرفة. كانا يتحركان ببطء. لم يخرجا إلى الشرفة. فتحا الباب ووقفا هنا، على الحافة بين الداخل والخارج. بلاط الشرفة تبلّل بالمطر، والخيوط تنزل مائلة من أعلى وتلمع كالفضة.

الماء ينزل كالمسلات، كالإبر والخيوط. يتصل ثم يتقطع. في الجانب الآخر اشتغلت المولدات الاحتياطية للمجمع التجاري. شعت المصابيح في المجمع وظلّت مصابيح الشارع ـ مصابيح البلدية ـ مظلمة. الظلام ثم النور. والنور الذي يأتي ويقع على المطر وعلى الظلام. خيوط المطر تبرق. الضوء ينعكس عليها وينشطر إلى عددٍ لا نهائي من حبّات الضوء. كأن السماء تمطر ماء وشرراً. شرقط الفضاء بموسيقى الماء والكهرباء. البنايات المظلمة انعكس عليها نور المجمع التجاري، انعكس على نوافذها، انعكس على وجوه مسرورة متأملة تنظر مشدوهة من وراء الزجاج إلى الأمطار.

اللوبياء بالزيت ليست لليلة. حين تبرد يتركانها في البراد إلى غد. يسقيانها بزيت الزيتون الأصفر الشهيّ ويتركانها للغد. سيسليا تحبّ ألوان هذه الأكلة. أحمر البندورة وأخضر اللوبياء وأبيض البصل والثوم. ثم قطرات الزيت الذهبية. اللوبياء بالزيت ليست طيبة إلا باردة وبائتة. تبيت ليلة في البراد فتتمازج نكهاتها وترتاح وترقد. سمعان يحبّ البصل معها. سيسليا تحبّ الخيار.

الليلة يأكلان جبناً وسندويشات باردة. يشربان نبيذاً ويأكلان طعاماً خفيفاً. سيسليا قالت إن وزنها زاد في الأيام الأخيرة. سمعان قال إن العلم لا ينفع البطن وإنه مع هذا الطبخ بدأ يُربي كرشاً. سيسليا ضحكت لأن بطنه عضلات على عضلات. كل يوم يسبح ساعتين أو ساعة. ولا تعرف كم ساعة يسير.

في الفراش سألته هل أخذ موعداً لفحصه السنوي. ضحك وهو يبعد شعرها عن وجهها ويسألها لماذا تفكّر في القلب وتخطيط القلب هذه اللحظة. جمعت شعرها وراء رأسها ثم ربطته. كانت تربطه بالربطة القماش البيضاء عندما شعّت الكهرباء في غرف البيت. ضحكت وانبطحت عليه والتصقت بجسمه. باغتها النور الباهر.

أنعسه النبيذ وأنعسه الفراش. نام نصف ساعة وبينما هو نائم التفت بغطاء وخرجت إلى الشرفة. المطر كفّ عن التساقط. رفعت وجهها إلى السماء فخطف المنظر أنفاسها. غيوم بيضاء كاللبن تفور مثل الحليب وتتسلق سماء الليل النظيفة. وقمر أبيض كامل الاستدارة يتسلق الغيوم، يعلو فوقها، وينير حوافها وينير السماء. الغيوم بدت مثل سلاسل جبلية. وفي القمة بانت السماء صافية، شديدة الصفاء، تشف وترقّ. القمر نظر إلى سيسليا واقفة على الشرفة. يدها على بطنها. كتفها عارية مدوّرة وتلمع تحت الضوء. ظلّت سيسليا واقفة. كانت تُصلّي.

عالم الموتى ينقسم إلى سبعة أقاليم. كل إقليم ينقسم بدوره إلى سبعة أقاليم أخرى، وهكذا . . .

لا أعرف هذه الأقاليم. وليست عندي رغبة حقيقية في السفر إليها واكتشاف مدنها وقُراها وجبالها وأنهارها وسهولها. أولاً السفر ليس سهلاً. ثانياً القراءة تُمتع أثر. الرحلة من رفّ يحمل مجلدات تبدأ بحرف «ألف» إلى رفٍ يحمل مجلدات تبدأ بحرف «باء»، هذه الرحلة تستغرق سنوات وسنوات، وبين مجلدٍ وآخر نكتشف أقاليم لانهائية. هذا ما نفعله هنا. إذا وضعنا جانباً الحنين إلى عالم الأحياء فإن رغبتنا الأعمق هي في القراءة. حتى الكتابة يكفّ عنها الذين قضوا هنا زمناً طويلاً. في البدء يكتبون كثيراً. ثم يتوقفون. من يستمر في الكتابة بعد وقت طويل يكون غريباً. هؤلاء «الغرباء» ـ في معظمهم ـ لم يلمسهم الحيوان الأصفر العينين أول وصولهم إلى عالم الموتى. عند «الغرباء» تبلغ درجة الحنين أقصاها.

ما أعرفه من هذه الأمور أعرفه عبر: 1 ـ التجربة الشخصية. 2 ـ القراءة. 3 ـ أحاديث يوحنا، إذا تحدث. يوحنا نادراً ما يحكي لكنه إذا حكى يتدفق بالكلام سريعاً. آخذ منه في نصف ساعة معرفة لا تؤخذ من أحاديث الآخرين حتى ولو استمروا في الكلام سنوات.

لا توجد احصاءات سكانية في هذا العالم. لكن الأكيد أن

الأعداد خيالية. هناك أقاليم يزدحم فيها الموتى ازدحاماً شديداً حتى إن الواحد لا يقدر أن يتنفس. يصير الهواء قليلاً فوق الرؤوس. تصير تشهق لتحصل على بعض الهواء. هذا إحساس يعرفه الأحياء أيضاً. إذا كان الواحد ماشياً في تظاهرة حشدت آلافاً في ساحة ضيقة، مثلاً. أو إذا علق في مصعد والكهرباء مقطوعة. لكن في المقابل هناك أقاليم قصية، باردة المناخ، لا يحيا فيها إلا قلة. يثقبون قشرة الجليد ويصيدون سمكاً. في الشتاء يمكثون في بيوتهم الثلجية ولا يخرجون. لا يضايقهم أن العاصفة تهدر في الخارج وأن غبار الثلج يغطي السهل الأبيض الفسيح. داخل البيت الثلجي عندهم نار صغيرة وعندهم كتب. يغرق القارئ في كتابه فلا يعود يعرف أين هو.

يوحنا سافر في وقتٍ من الأوقات إلى تلك الأقاليم. لا يحكي عنها كثيراً. لكنك تشعر إذا أتى على ذكرها أنه يعرفها معرفة الحواس الخمس وليس معرفة القراءة فقط. قد يكون هذا خيالياً. لأنني في مرّات أخرى آخذ كلامه حرفياً فأفهم أقواله خطأ.

مع أننا نقضي في مكانٍ واحد وقتاً طويلاً لا أعرف عن حياته الكثير. لا يحكي عن عائلته. عرفت فقط أن جده كان يملك «غابة كليمنصو» (في جوار الجامعة الأميركية)، وأنه باع الغابة المذكورة إلى السفارة الفرنسية، ثم بنى بيتاً بقناطر، بنى بيتاً بثلاث طبقات على الهضبة المطلة على وادي أبو جميل. مات الجد فأكمل الابن ـ والد يوحنا ـ العمل. سقف الحارة قرميداً. وجلب المعلم نعمان لاوندس فعمل للنوافذ أباجوراً فخماً لم تعرفه قصور بيروت. فوق النوافذ الصغيرة في السقيفة العالية عمل سقوفاً من القرميد. النوافذ زجاجها ملون. معينات ودوائر ومثلثات. أحمر وأزرق وأخضر. فكّرت ـ بينما يوحنا يخبرني عن بيت العائلة ـ فكّرت أن يوحنا يقول هذه

الأشياء لأنه تذكرها وهو يقرأ ما أكتبه. يوحنا يقرأ أوراقي قبل أن يضعها في الأرشيف. عندما انتهى من وصف بيته قلت له إنني أنا أيضاً ـ وكما كتبت ـ عشت حياتي كلّها في بيتٍ قديمٍ عالي السقف بكوى مدورة ملونة الزجاج.

يوحنا هزّ رأسه ولم يقل شيئاً.

لم أتخيل يوماً وأنا على قيد الحياة أنه سيأتي يوم وأجدني في هذا العالم. اعتقدت دائماً أن حياة الإنسان تنتهي ساعة يلفظ الروح. تلفظ أنفاسك الأخيرة فتموت. إذا كنت مسيحياً يغسلونك جيداً بالليفة والماء والصابون ويلبسونك ثياباً نظيفة تفوح برائحة دواء الغسيل ثم ينقلونك إلى تابوت. إذا كنت مسلماً يغسلونك جيداً بالليفة والماء والصابون ثم يلبسونك كفناً نظيفاً ثم... هذه أشياء لم أفكّر فيها كثيراً لكنني عرفتها دائماً. مت قبل أن أكبر ويخط الأبيض شعري. لم أرَ وجهي يتجعد ولم يشغل الموت تفكيري مع أنني فكَّرتُ فيه. فكَّرت فيه بسبب الحرب. وفكّرت فيه بسبب جدي. مات جدي وهو يقطف توتاً من شجرة التوت. شجرة من التوت الهزّاز الأبيض اعتاد قريبنا باسيل يارد أن يقول إنها أطيب توتة بيضاء في العالم. أخبرنا مرة أنه في كيوتو في اليابان رأى شجرة توت قزمة في معبد للرهبان البوذيين. شجرة توت هزاز عمرها مئة سنة وحجمها حجم الطفل أو الولد الصغير. خشبها أملس يلمع، صقيل كالعاج، فخم المنظر. ورقها أصغر بقليل من ورق توتتنا وكل سنة في آخر الصيف تظهر بين ورقها الأخضر حفنة من الثمر الأبيض العسل. الرهبان يعتبرون هذه الثمار القليلة ثماراً من عند بوذا. ثمرة واحدة تملأ البدن حلاوة سنة كاملة.

كان جدي يقطف توتاً كل صباح في موسم الصيف. يشرب القهوة الصباحية مُرّةً ثم يذهب إلى شجرة التوت. في هذه الزاوية من

الحديقة شجرة التوت، وفي الزاوية الأخرى النخلة. النخلة بلحها أحمر لمّاع في التشارين. لا يحبّ البلح مقدار ما يحبّ التوت. كنت نائمة. جدي يستيقظ باكراً. أخي سمعان كان معه يقطف توتاً. مات جدّي وهو يلمّ حبات الهزّاز الساقطة تحت الشجرة. لم أرَه وهو يموت. لكن سمعان رآه.

إحدى الخادمات الكثيرات في بيتنا أيقظتني:

ـ جدك مات، قومي، قومي.

أثناء الحرب أيضاً رأيت موتى وجنازات. فكَّرت دائماً أن هذه هي النهاية. نذهب إلى الكنيسة. ويوم الأحد نسمع القداس. أمي تشعل شموعاً وماري تشعل شموعاً وإميلي تشعل شموعاً وإذا طلبوا مني أشعلت شموعاً أيضاً. لكنني لا أفكِّر في الكنيسة ولا أفكِّر في الحياة الأبدية. أقول ما زلت في بداية حياتي ويوم أصير عجوزاً ألبس كنزة صوف طويلة حمراء وأحمل مظلة حمراء، في ذلك اليوم سأفكِّر في هذه الأشياء. وربما حتى عندئذٍ لن أفكِّر. لماذا أفكِّر؟ الواحد يموت وتنتهي حياته. قبل ذلك عنده أعوام طويلة يعيشها وفي هذه الأعوام عليه أن يتعلم أن يكون سعيداً. هكذا كنت أفكّر. هل كنت على خطأ؟

في قاعة الكتابة طاولات. صفوف من الطاولات. على كل طاولة رزمة ورق وأقلام حبر أزرق ماركة Bic. نقعد ونكتب. في البدء ـ أول وصولي إلى هنا ـ أخبروني أن عليّ أن أكتب حياتي كاملة على صفحة واحدة. هذا هو المطلوب. عندي كل هذه الأوراق وعليَّ أن أجرب مرة تلو مرة تلو مرة. المسودات أضعها في جارور الطاولة. والنسخة الصحيحة الأخيرة أتركها على الطاولة وأضع فوقها قلم البيك. كان ذلك صعباً. أنا متعودة على أقلامَ

الحبر السائل، لم أتعود على أقلام الحبر الجاف يوماً. ثم كيف يستطيع الواحد ـ حتى ولو عاش حياة قصيرة مثلي ـ كيف يستطيع أن يكتب حياته كلّها في صفحة واحدة؟ ماذا أكتب وماذا لا أكتب؟ ماذا أضع على الصفحة وماذا أحذف؟ ما هو المهم (العائلة، الأصدقاء، الأماكن) وما هو غير المهم (الطعام، الأفلام، الثياب)؟ كيف أعرف ماذا يريدون؟ أين أبدأ؟ هل أبدأ من سنة ميلادي ثم أتقدم كلمة بعد كلمة، وكلما وصلت إلى نهاية السطر أنزل وأبدأ سطراً جديداً، إلى أن أبلغ زاوية الورقة الأخيرة وأكتب سنة موتي؟ هل هذا هو المطلوب؟ وإذا كنت أعرف الكلمة الأولى (رقم السنة) والكلمة الأخيرة (أيضاً رقم سنة) فهل أعرف الكلمات الكثيرة (الكلمات القليلة) بين الرقمين، بين زاوية البداية والزاوية حيث انتهت الحياة؟ لكن كيف أعرف ماذا أكتب وماذا لا أكتب؟

كنت أعتقد قبل أن أبدأ أن صفحة واحدة لن تكفي. ثم بدأت. وحين بدأت وجدت الصعوبة في مكان آخر. من أين أجلب الكلمات؟ الكلمات لا تقول ما أريد أن أقول! مضت عليّ أيام، مضت عليّ أسابيع، مضت شهور، وبدأت أكتب أكثر فأكثر. واكتشفت أن الورق لن يكفيني. أكتب وأكتب وأكتب. يوم واحد في حياتي يملأ رزمة ورق. فماذا أفعل؟ كيف أحذف؟ وماذا أترك!

استمر هذا فترة طويلة، ثم بدأت أحذف. أحذف وأحذف وأحذف، حذفت كل الأوراق. الآن ماذا أفعل؟ عليّ أن أبدأ من جديد. على مهل. هذه المرة كتبت نصف صفحة ثم توقفت. توقفت كمن ركض حول العالم. كنت منهكة، ألهث وأتعرق، مع أنني لم أكتب إلا نصف صفحة. أريد ماء. لساني جاف وحلقي جاف وزلعومي جاف. أين الماء؟ الكوب فارغ. أين المرأة التي تجلب لنا الماء؟ عطش شديد. كلمات على الصفحة تتحرك كالحشرات. هذه

حياتي كلّها. نصف صفحة. وهذا العطش الشديد. كأنني كنت آكل رملاً وأنا أكتب. لم أكتب غير نصف صفحة، حفنة كلمات، فلماذا عطشت هكذا ولماذا أشعر بنار في عينيّ؟ جاءت المرأة بمريولها الأزرق. ملأت كوبي ماء. نظرت إلى النقطة الحمراء على أنفها وأردت أن أبكي. وضعت القلم على الورقة وبكيت. هل بكيت؟ لكن أحداً لم يرني. هل كانوا يبكون هم أيضاً، كل واحد يبكي على طاولته وراء ورقة بيضاء أو سوداء؟

الناس لا يبكون هنا. نادراً ما رأيت أحداً يبكي. في أقاليم أخرى يعلو البكاء واصطكاك الأسنان. «إقليم القتلة» شديد الحرارة. إذا دخلت ذلك الإقليم سال الماء من جسمك وجفت أعضاؤك. الواحد قد تقع عنه ذراعه وهو يسير هناك. بسبب اليباس والرمل الحار. الماء هناك فظيع. لونه أحمر، فاتر، زنخ الرائحة. مرات يغلي في البرك. والقتلة لا يشربون إلا هذا الماء. هذا عقابهم الأبدي. شرب الدم. كل الوقت يتصببون عرقاً. على الرفوف مناشف. يمسحون صدورهم بالمناشف فتصير المناشف حمراء كالدم. يشربون من البرك التي تغلي ويبكون. كل الوقت يبكون. أصابعهم زرقاء. كل الوقت يعضون أصابعهم. كأنهم يبرون أقلام رصاص. ولا يأكلون شيئاً. ليس يوجد طعام في إقليم القتلة. فقط الماء الأحمر الفظيع.

إذا كفّوا عن شرب الماء من البرك يفتك بهم العطش. الجسم إذا عطش يمتص الماء من العينين. سائل العينين يجفّ، وتشعر كأن شوكاً ينغرز في عينيك. هذا من النشاف. الواحد يركض عندئذٍ إلى بركة الدم. يغطس في البركة. لا يفتك به الدم الذي يغلي. يبكي ويزعق ويبكي. بلا ثياب. ثيابهم تؤخذ منهم. مثل حياة البهائم حياتهم. أسوأ. أسوأ بدرجات. البهائم حياتها طيبة. البهائم ترعى

العشب الأخضر، تشرب الماء الحلو النظيف. وإذا تأملت المناظر رأت أشجاراً وجبالاً وقرى. البهائم حياتها طيبة. سكان إقليم القتلة لا يرون ـ ليلاً نهاراً ـ غير البرك المملوءة بالدماء. يحيون على فواصل تراب بين البرك في أكواخ معمولة من عظم. العظم قديم تفوح منه رائحة بشعة. ينامون في هذه الأكواخ ساعة أو أقل ثم يوقظهم العطش. يقفزون في البرك مرة أخرى.

نحن لا نعرف ذلك الإقليم. هذا قانون. لا أحد هنا يذهب إلى هناك. حرام أن يرى الإنسان العادي تلك المناظر. نعرف عنها لكننا لا نراها. وإذا أردنا ننساها. لكن أنا ـ لأنني أكتب ـ لا أريد أن أنسى. مهم أن أحفظ في رأسي كل شيء.

عندنا كتب لا أفهمها. رسومها غريبة ولغتها غريبة. الرسوم تجمع الشكل البشري بأشكال النباتات. اللغة تشبه المسامير والحلقات والملاقط. هذه الكتب لا أحد يعرف أن يقرأها.

مات سمعان يارد مساء الخميس 20 تشرين الأول (أكتوبر) 2005. كان عائداً من فندق فينيسيا بعد سباحة دامت ساعتين. لم يبلغ بيته في شارع غندور السعد. عابراً أمام «مطعم بالتوس» أحسَّ ـ من دون إنذار ـ بألم فظيع في صدره. تعثر وسقط على وجهه.

*

أين يقع بالضبط «مطعم بالتوس»؟ وماذا يغير ذلك؟ المطعم يقع في وسط بيروت التجاري. في منتصف الطريق من فندق فينيسيا إلى ساحة البرلمان. المطعم جزء من مجمع تجاري وسكني لم يكتمل بناؤه بعد: 1330 Park Avenue. على مسافة قريبة يصعد مجمع آخر Two Park Avenue. جنبه عمارة فخمة بنية اللون Avenue Plaza، وبنايات تتحلق حولها الحدائق. لا البنايات اكتملت حتى الساعة، ولا الحدائق بانت. لكن الورش تعمل طوال النهار. حول الورش ألواح الخشب. على الألواح رسوم: رسوم المشاريع بالألوان. «حدائق بيريتوس» Berytus Parks، على تقاطع أحمد شوقي ـ بارك أفنيو. بنايات باطون وزجاج. من سطح هذا المجمع ـ إذا اكتمل يوماً هذا المجمع ـ يمكن أن ترى كل هذا القسم من سوليدير: ترى البحر وأبراج الواجهة البحرية (هيلتون، فور سيزونز هوتيل، مارينا تاورز، بلاتينوم تاور، بيروت تاور). ترى أوتيل فينيسيا (زهري اللون

مثل مونرو) والهوليداي ـ إن ما زال مهجوراً أسود النوافذ مثقوب الجدار نصفه مغطى بلافتة عملاقة ملونة لمشروع سكني في الجبل (تلال العبادية: فيلات فخمة، حدائق، مسابح) وفوق الهوليداي ـ إن: برج المرّ. لا أحد يطلق النار من برج إلى آخر. المكان ساكن. ترى حارات وادي أبو جميل، ترى القرميد العالي، وترى الفيلات تحت السراي الكبير، وترى قرميد السراي، ومن وراء السراي تطلّ قبّة كنيسة الأرمن. لونها أسود قاتم. ترى مآذن جامع محمد الأمين، من هنا لا ترى القبب الزرقاء، لكنك ترى المآذن والذهب يلمع في القمم.

بنك الكويت والعالم العربي عند تقاطع فوش ـ ويغان متى يكتمل؟ مكتوب على رخصة البناء أنه ينتهي سنة 2008. عند تقاطع فوش مع شارع الميناء ورش أخرى: «مساكن فوش» Foch Residence. ألواح الخشب تُسور حفرة عميقة. الجرافات تعمل. رائحة الوحول والصخر. ثم يبدأ دق الأساسات. وشبك الحديد. وصب الباطون. على لوح حديد مكتوب أن العمل ينتهي في أيار (مايو) 2007.

سمعان يارد لن يرى هذه الأبراج. الضجة تستمر طيلة ساعات النهار. المكان كلّه، من فوش إلى سان جورج، ورشة. حركة وضجة وغبار. أذرع حديد صفراء اللون تغطي السماء. لكن الشمس غابت. أزرق النهار تحول برتقالياً ثم رمادياً قاتماً ثم أسود. هبط الليل على بيروت. الورش همدت وماتت. المكان فارغ. الناس في البيوت. الشوارع ساكنة.

بين «مطعم بالتوس» و«حدائق بيريتوس» يستلقي رجلٌ ويلفظ أنفاسه. لا أحد يراه. تعبر سيارة، لكن نور مصابيحها الأصفر الوهّاج لا يقع على هذه الجهة. هذا المطعم مشهور بشوربة السمك.

حساء السمك وجبة يوم الجمعة الفاخرة. الطبق بخمسين دولاراً. لكنه أطيب طبق سمك ببيروت. لا يقدّم المطعم هذا الحساء إلا الجمعة. يوم الثلاثاء يقدّم قريدساً مع الرزّ. يوم الاثنين يطبخ دجاجاً بالزعتر. أنفلونزا الطيور تُفزع الناس لكنه ما زال يطبخ دجاجاً بالزعتر. ويوم الجمعة: حساء السمك.

لم يأتِ نهار الجمعة بعد. غداً الجمعة. غداً تقرير ميليس. ما زلنا مساء الخميس. بيروت فارغة الشوارع على غير عادة. عند تقاطعات الطرق عربات عسكرية وجنود ودرك. الأهالي في البيوت، ينتظرون التقرير. هذا المساء، أو في الليل، أو غداً فجراً، يُذاع تقرير ميليس. القاضي الألماني سلم تقريره قبل ساعتين إلى كوفي أنان.

لم نبلغ بعد فجر الجمعة. فجر الجمعة يُذاع التقرير على الفضائيات. على «الجزيرة» ترجمة فورية من الإنكليزية إلى العربية تستمر أربع ساعات. بيوت المدينة مضاءة بالأزرق. هذا أزرق التلفزيونات. التلفزيونات توجّ داخل النوافذ والستائر. الشوارع تغرق في الظلام. لا أحد يتنفس. وجوه نصف نائمة. ووجوه مستيقظة تماماً. ينظرون ويسمعون الترجمة. كهرباء تعبر الأجسام. التقرير ظهر أخيراً. الآن نعرف ما أردنا أن نعرفه. نعرف ماذا؟

لم نبلغ بعد فجر الجمعة. هواء مالح رطب يخشخش في صف نخلات. على الرصيف المجاور لمطعم بالتوس كفَّ الجسم الممدد عن الحركة.

لا أرى أهلي كثيراً. أذهب وأزورهم بين حين وآخر. ليس كثيراً. لا أعرف كيف أتصرف معهم. أبي وأمي وجدي وجدتي. يقعدون على الكنبة تحت السنديانة أو على الشرفة. يشربون الماء ولا يتكلمون. كل واحد يقرأ في كتاب. وإذا رفعوا وجوههم ونظروا إليّ أحتار ماذا أعمل. لا أزورهم إلا نادراً.

أقرأ وأكتب وأعمل في المكتبة. حتى التلفزيون لا أفتحه كثيراً. لم أُشفَ بعد من الحنين إلى عالم الأحياء. لكن التلفزيون لا يعطيني ما أطلب. أقرأ وأفقد نفسي بين دفتي كتاب. أضيع وأرى الحقول ثم أرى المدينة. أدخل شارعاً طويلاً تنيره مصابيح الكهرباء. الرطوبة تصنع كواكب مضيئة حول المصابيح. الذهب يسيل من اللمبات. أسير في الشارع وأرى الناس. أسمع الأصوات والموسيقى. أشم رائحة بطاطا مقلية ورائحة باذنجان ورائحة قرنبيط. أقرأ وأضيع في العالم الذي خرجت منه.

ها أنا في غرفته. لا أنسى تلك الغرفة. الستائر القديمة والشمس تسطع وراء الستائر. السرير الخشب والفراش العريض. الكومودينة عليها راديو وكاسيتات. منفضة الزجاج، خضراء اللون. خضراء أم زرقاء؟ معقول أنني نسيت؟ كيف؟ الذكريات تهرب. كالرمل يتسرب بين أصابعك على الشط. نسيت لون المنفضة. لكنني

ما زلت أذكر بقع السقف. الطلاء يتموج كصفحة البحر. وأذكر رائحة أصابعه. أذكر الظفر الطويل. وكيف يقف أمام البوتاغاز وهو يعمل الشاي ساكتاً. الشمس تسطع في قماشة الستارة. أصوات الشارع. بوق سيارة. رنين جرس بعيد.

الجرذ يبحث عني. الجرذ جائع. يوحنا قال لي ألا أخرج من المكتبة. إلا إذا كنت أريد أن أتخلص من كل هذا الحنين. يوحنا قال أحسن لكِ، الواحد لا يرتاح في موته مع كل هذا الحنين في العروق.

قلت له إنه هو أيضاً يشتاق إلى العالم، ألا يشتاق إلى الحياة؟

ظلّ ساكتاً.

قلت له إنني سمعت أنه حتى يسافر إلى ذلك الجانب أحياناً، هل هذا صحيح؟ هل توجد معابر يقدر الواحد أن يقطعها إلى هناك؟

يوحنا ضحك وقال الدروز عندهم هذه القدرة. وسكت كأن الضحك قد أحزنه.

قلت إنهم أخبروني أنه عندما يختفي وقتاً يكون هناك.

ـ وأنت تصدقين؟ نحن موتى يا جوزفين. لا أحد يعبر من عالم الموتى إلى عالم الأحياء. لا أحد. إذا مات الإنسان يكون قد مات.

قلت أعرف، أتظن أنني لا أعرف.

نظر إليّ ولم يقل شيئاً.

*

لكن هناك أشياء كثيرة لم أعرفها بعد. أعرف أشياء وأجهل أشياء. رأيت أشياء ولم أرَ أشياء. في قاعة الكتابة أرى ناساً يكتبون. إذا نهضوا إلى برادات الماء تحركوا بخفة. كأنهم يسبحون سباحة سهلة. الواحد يصير خفيفاً عند بلوغه هذه الأنحاء. يُعطى

قدرات. يفقد آلامه الجسمانية. في أحد الممرات رأيت الحريري قاعداً يقرأ عشرين ورقة، وكلما انتهى منها عاد يقرأها من جديد. على كل ورقة سيرة حياة واحدة. هؤلاء الذين قتلوا معه في الانفجار. الورقة الأخيرة كتبها الممرض في السيارة الأخيرة: سيارة الإسعاف. في ممر آخر ـ عند طرف المكتبة ـ أرى الرجل الذي انفجرت عبوة تحت مقعد سيارته. هذا الرجل كان يكتب. هنا لا يجد الكتابة سهلة. لم تعد الكلمات تأتي إليه. لا يدري كيف يكتب ما يريد أن يكتبه. يريد أن يكتب رسالة إلى زوجته. يكتب خمسة حروف ثم يتعب. لا يعثر على حرف سادس. ولا يعثر على كلمة أخرى. الدوي ما زال يتردد في رأسه، والدخان أسود كثيف في عينيه. الألفا روميو سيارة صغيرة. ضغط الانفجار فظيع في المكان الضيق. يشرب ماء وينظر إلى الكلمة على الورقة البيضاء. ينظر إلى الاسم والدخان يتبدد من عينيه والدوي يتراجع. يرى شارعاً طويلاً بين صفّين من المتاجر. يرى واجهات تتوزعها أصناف الحلويات. هذه باريس. هذه الظلات الحمر والصفر يعرفها. هناك مكتبة جيبير. هناك مطاعم سان جرمان. الأكياس المملوءة. المطر الذي ينهمر رذاذاً. المظلات القماش. رغيف الخبز الباغيت الطويل. زهور البروكلي أمام المتجر. قنينة النبيذ. يعرف ماذا سيكتب. لكنه بحاجة إلى وقت. أتى قبل قليل. لم يألف المكان بعد. عليه أن ينام. بعد النوم يكتب.

في ممرٍ آخر ضيق يستلقي رجل على سرير. ساقه عارية، تبدو شديدة النحول. يمسح ساقه بمرهم ويشرب ماء من كوب بلاستيك.

في ممر غير هذا الممر يقعد رجل إلى طاولة ويكتب أنه عندما رأى النار تشتعل في جسم صاحبه لم يعرف ماذا يفعل. أراد أن يساعده لكنه عجز عن الحركة. عجز عن الحركة لأنه مات قبل

صاحبه الذي تشتعل في ثيابه النار. مات ولم يعلم ـ إلا بعد وقت ـ أنه قد مات.

الرجل الذي يشتعل لم يمت. أخذوه بالطائرة إلى أوروبا. عملوا له عمليات. زرعوا جلداً بدل الجلد المحروق. ثلاثون يوماً وهو في غرفة العناية الفائقة. لم يمت. الدخان في رئتيه. وهو يلفظ الدخان من فمه. ثم خنقه الدخان. مات. بعد موته فتح عينيه فرأى أنه يمشي بين أشجار صنوبر. بعد الأشجار درج طويل. نزل على الدرج فرأى ملعباً أخضر. دار حول الملعب وخرج من بوابة الحديد إلى كورنيش عريض. وقف على الرصيف ينظر إلى البحر. كان البحر أزرق شاسعاً يمتد كالسماء إلى ما لا نهاية. رذاذ خفيف يتساقط من الأعالي. وسكينة كاملة طيبة تملأ هذه الأرض. شعر أنه ليس وحده. نظر إلى قطرات الماء تتقافز على البحر، تتقافز على صفحة الماء الساكنة، تطلع ثم تقع، تطلع ثم تقع، وأحسّ بالنعاس.

قاعات القراءة تعجّ بالقُراء. المصابيح الخضراء حلوة المنظر. أراها من بعيد وأنا آتية لأرد كتباً عن الطاولات إلى الرفوف ساعة الإقفال. تحيات متبادلة. أكواب الماء في سلة المهملات. البخار على زجاج النوافذ. في إحدى الزوايا فتاة صغيرة شقراء الشعر، تلبس ثوباً أحمر. أمامها كتاب فيه صور ملونة. أراها دائماً في تلك الزاوية. ودائماً تقرأ الكتاب نفسه. تقرأ الكتاب وتلعب باسوارتها الخشب وتلعب بشعرها. تقرأ وتشرب ماء. إذا نظرت إليك يفرح قلبك. عندها نظرة تملأ الإنسان حبّاً لهذا العالم.

*

الجمال هنا داخلي. واحد تفوح منه رائحة ليمون: لا بدَّ أنه كان يحبّ بساتين البرتقال. واحد يطلع منه خرير ساقية: في عالم

الأحياء كان الأرق يعذبه، هنا يسمع خرير الساقية وينام على هذا الخرير. في إحدى القاعات قارئ تحيط به هالة القمر. هذا شعوره تجاه عالم الأحياء. في ممر آخر أرى عجوزاً ضحكته تكرج كرجاً، كأنه ولد صغير.

ناس تراهم فتشعر بطعم تحت لسانك.

نساء تخرج منهن نداوة الهواء وقت الخريف وبعد أول شتوة.

رجل تفوح منه رائحة الكعك والمناقيش. قُتل برصاص القنص وهو ذاهب إلى الفرن. يعبر بين رفوف الكتب محني الظهر. عادة قديمة. أراه يفتح أحد المجلدات ويقف ويقرأ. أدلّه إلى طاولة فارغة ومقعد فارغ. يشكرني. أجلب له ماء. يقول إنه يحبّ هذا الكتاب. أقول له إنني مسرورة لأنه يحبّ الكتاب.

*

أنظر إليهم وأكتب عنهم وأخاف. أشعر كأنني أقع خارج الحدود المعروفة. أخاف أن يزعلوا. ثم أتذكر أن هذه الأوراق لي. أنني أكتبها من أجلي. أنني أكتبها لأنني لا أقدر إلا أن أكتبها. أكتب من دون أن أفقد ذلك الإحساس: كأنني أسقط خارج حدود العالم.

رأيت رجلاً يكتب سيرته ثم ينظر إلى الكلمات ولا يفهم حياته. من دون أن ينتبه نقل الكلمات المنقورة على شاهد قبره في عالم الأحياء. يقرأ الكلمات والتواريخ التي كتبها ويدرك أن هذه الكلمات لا تقول شيئاً. هذه الكلمات ليست حياته. هذه الكلمات بلا قيمة. يريد أن يكتب كلمات تقول حياته. كان كاهناً تحبّه الرعية. الآن ليس كاهناً. كيف يكتب حياته؟ ماذا يكتب؟ أمام الكنيسة شجرة صنوبر. جذع الصنوبرة يغطيه الصمغ. مرة رأى فراشة عالقة في الصمغ. جلب سكيناً. اقتلع قطعة الصمغ وفي جوفها الفراشة. هذا ما يريد أن يكتبه. هذه حياته.

أرى امرأة شابة، امرأة في عمري، على وجهها علامات. أعلم أنها قُتلت بالرصاص. أراها تقرأ وتلتفت بين حين وآخر وتنظر في هذا الاتجاه. تنظر إليّ أم تنظر إلى براد الماء؟ براد الماء هنا، جنب طاولتي. ماذا تفكّر وهي تنظر إلى قارورة الماء؟

عليَّ ألا أستسلم للأفكار السوداء. في الجناح الشرقي غرف ضيقة كالتوابيت. الغرفة لا تسع إلا الطاولة والمقعد حيث يجلس الرجل. هذا رجل كان يكتب حبّاً بالانتفاع لا حبّاً بالكتابة. كان يكتب من أجل الوجاهة. في هذا العالم لا يكتب إلا جملة واحدة. «أكتب لئلا أختنق». هذه هي الجملة. عليه أن يكررها على الصفحة، من اليمين إلى اليسار، من فوق إلى تحت. الغرفة الضيقة كتابوت مملوءة بالورق الأبيض، كدسات على كدسات وكل ليلة يجلبون المزيد. ولا يُخرجون إلا الورق الذي سوَّده بهذه الجملة. أكتب لئلا أختنق. أكوام الورق تتراكم على وجهه، تخنقه، إذا تعبت يده من تسطير الكلمات. في سقف الغرفة فتحة صغيرة يدخل منها الهواء. إذا سدّتها الأوراق البيضاء اختنق.

لا أقدر أن أستوعب جميع قوانين المكتبة. هناك مجلدات أبحث عنها منذ سنوات ولا أعثر عليها. مجلدات رأيتها من قبل. لكن أين هي الآن؟

قرأت كتاباً عن مدينة مملوءة تراباً. الحركة صعبة في المدينة المملوءة تراباً. الناس يميلون إلى الكسل هناك. إذا فتحت باب غرفتك يصعب عليك أن تغلقه. التراب ثقيل. كيف تغلق الباب الآن؟

هناك قسم من المكتبة مخصص للمخطوطات القديمة. هذا قسم المحفوظات. يحوي نبؤات اسبيريدون العجائبية. هذا رجل

(يحمل اسم القديس القديم) عاش في بيروت نهاية القرن الثامن عشر وتنبأ بفتنة 1860. لغة ذلك الزمن غريبة، لكنني أفهمها. تنبأ بحروب كثيرة وكتب عن زلزال يضرب السلطنة بعد قرنين من موته فيطلع نجم الصباح على الآستانة فتكون مغمورة بالماء والحيتان تسبح فوق أنقاض برّ الشام من يافا إلى اللاذقية. المخطوط أصفر الأوراق. يتفتت بين الأصابع.

في جانب آخر من المكتبة توجد قاعات الرسم. هذه امرأة ترسم حصاناً. وهذا جبران اكتشف أنه لا يجب أن يكتب والآن لا يكتب لكنه ما زال يرسم ولا يرضى عن رسومه ويريد أن يمحوها لكن هذا ممنوع وكلما نظر إلى رسومه تعذب وأراد أن يعتزل الرسم.

قاعات الرسم واجهتها زجاج عالية. وراء الزجاج أشجار فاكهة. عند بركة الماء المدورة أولاد يرمون خبزاً للبط.

يوجد مقعد خشب أحبّه. لونه أخضر وتغطيه ظلال شربينة. آخذ كتاباً وأذهب إلى هناك. الجلول تحتي تغطيها سجادات عشب أخضر ومساكب زهور ملونة. يوجد ممر من البلاط. ليس بلاطاً. هذه صخور مفلطحة فاتحة اللون. لا أنزل إلى هناك. أنظر إلى الصخور من هنا وأنا أقرأ. أتعب من القراءة فأرفع وجهي عن الكلمات وأنظر إلى الممر يقطع الجلّ. عصافير تزقزق في الأشجار. قطة بيضاء كالحليب تخرج من دغل ثم تختفي وراء دغل آخر. معي قنينة ماء. أشرب وأقرأ وأفكّر في كلمات يوحنا. لماذا أخرج من المكتبة هذه الأيام؟ قال إن الجرذ جائع. فلماذا أخرج من المكتبة وأجيء إلى هذه الحديقة؟

كنت مرة هنا فوجدت كتاباً. فتحت الكتاب وأنا لا أشعر بالرغبة في القراءة. لكنني بعد قراءة الجملة الأولى وجدتني أقرأ

الجملة الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة... كان كتاباً غريباً. قرأته كلّه وأحسّست أنني لم أفهمه. فهمته ولم أفهمه. عليّ أن أقرأه مرة أخرى، قلت في نفسي.

هل قرأته مرة أخرى؟ لم أعد أذكر! ماذا كان ذلك الكتاب؟

الذكريات تهرب مني. ذكريات عالم الأحياء تهرب. وذكريات هذا العالم أيضاً.

ـ أقرأ الورقة الأولى ثم الثانية ثم الثالثة . . . أقرأ عشرين ورقة. بين الورقة والورقة أتوقف. أحاول أن أستوعب ما قرأت. الورقة الواحدة عليها أكثر من مئتي كلمة. أقرأ جملاً قصيرة. وأقرأ جملاً طويلة. لم أعرف هذه الأشياء عن هؤلاء الناس. الآن أعرف. لكن ماذا تقدر أن تعرف من مئتي كلمة؟ لا تعرف كثيراً. الحياة قصيرة. صعب أن تعرف الكثير. الآن أعرف. أشرب ماء وأنظر إلى الكلمات ثم أنهض. الممر مملوء مجلدات.

*

حين سمعت الدوي لم أفهم. كأن شفرة تجرح دماغي. سمعت الانفجار ولم أسمعه. رأيت النار تشتعل. شلال أبيض من النار وسيارات تطير. لكنني لم أستوعب. لم أتخيل. كأنني غبت عن الوعي. لم أرَ شرفات أوتيل سان جورج تتساقط. رأيت زجاج السيارة يتهشم ويسيل. رأيت النار تحرق ثيابنا. ثم أظلمت عيناي. كأنني غبت عن الوعي. فتحت عينيّ فلم أرَ أنني في السيارة المشتعلة. كنت واقفاً وحدي في ساحة البرلمان. أقف عند ساعة العبد، أقف في الظلّ، وأشرب قنينة ماء.

القنينة كانت زجاجاً. مثل قناني البيبسي. شربت القنينة

ووضعتها على الحافة. ساعة العبد تقدمة ميشال عبد لمدينة بيروت سنة 1933. أحبّ الوقوف هنا. أحبّ هذه الساحة المبلطة بالحجر البركاني الأسود. أثناء الحرب كانت هذه المنطقة أرض أشباح. أرض ألغام وموت ومتاريس ومتاجر محروقة. وقفت في ساحة النجمة وأحسست بالسكينة. لم أخف. لم أركب سيارة مصفحة. لم أبحث عن المرافقين والوجوه التي أعرفها. كان الهدوء يملأ جسمي. نادراً ما استطعت أن أتمشى على مهل في هذه الدروب كما أحبّ. الآن أريد أن أمشي وأنظر إلى المدينة.

نزلت في شارع حسين الأحدب حتى نوافير الماء. هذه نوافير البلدية. وأنا في السيارة لا أسمع خرير هذه النوافير. الآن أسمعها. 11 نافورة. أقف وأنظر إلى الغيوم تعبر نوافذ البلدية. هذه البلدية بُنيت زمن الانتداب الفرنسي. أثناء الحرب الطويلة احترقت. بعد الحرب رجعت جديدة. السماء زرقاء شاسعة. السيارات تقطع ويغان. هذا شارع غزير التيار. كان يقطع بيروت المسورة القديمة عرضياً من باب السراي إلى باب إدريس. كان ضيقاً، وكانوا يسمّونه سوق الفشخة.

أعرف أشياء كثيرة الآن. عندي وقت أكثر للقراءة. كان نهاراً صافياً. الهواء بارد. لكن ليس لاسع البرودة. قطعت ويغان وانحدرت في شارع فوش. قبل أن أقطع ويغان استدرت وألقيت نظرة أخيرة على ساعة البرلمان. كانت الواحدة ظهراً إلا عشر دقائق.

عن يميني ورشة بنك الكويت والعالم العربي. عن يساري يوسف الرامي، ثم سعد زغلول. البناية حيث «بنك بيروت» ـ ومحلات سبرنغفيلد وتمبرلاند ـ فخمة. أذكرها قبل الترميم. أذكر الشرفات المحطمة. أذكر التيجان المنقوشة يغطيها أسود النيران.

الآن كل المحلات تبرق. الحيطان مصقولة. العين المدققة فقط ترى أثر الشظايا والحرب.

شارع المطران إلى يساري يربط فوش بأللنبي. منطاد سكاي غايت الأصفر يرتفع عالياً هناك، فوق فينيسيا و«فور سيزونز هوتيل». الورشة تعمل ثم تتوقف ثم تعمل. لكن يأتي يوم ويكتمل البناء. العراقيل مؤقتة. كل العراقيل مؤقتة. لا بدَّ أن تزول العراقيل. بناية عالية المدخل محفور على عتبتها: 1925. هذه العمارات!

بان البحر. بان مكب النورماندي. وسياج القاعدة البحرية. وورشة «فوش رزيدانس». أنظر إلى الخريطة. رقم 7 هنا: تقاطع فوش ـ الميناء. رقم 2: فندق فينيسيا. و«بيروت تاور»؟ أين رقم «برج بيروت»؟ سرب حمائم يعبر فألتفت وأتبعه بنظراتي. أنسى الخريطة (تقدمة سوليدير) وأنسى الأرقام. الحمائم تحلق، تحوم حول الورشات الساكتة، تحوم فوق المآذن والعمارات. الورشات كلّها ساكتة. المدينة كأنها تنام. أنظر إلى ساعتي. الواحدة ظهراً إلا عشر دقائق. معقول؟ لم يتقدم الوقت لحظة!

أسير من «فوش رزيدانس»، على طول الطريق البحرية، نحو «الغربية». أذكر هذه المنطقة في الحرب. أذكر التراب الأسود وأذكر الكلاب الشاردة وأذكر الفئران. أذكر الذبّان. كان الواحد يخاف أن يعبر هنا بسبب الذبّان. أعرف أشياء كثيرة الآن. صار عندي الوقت. كنت أعرف. وصرت أعرف أكثر. أعرف بأسلوب آخر الآن. أشياء كثيرة. الحمائم أقدامها حمراء. أنظر إلى الحمائم وأسير ولا أعرق. غريب أنني لا أعرق. مع أنني ألبس القميص والبذلة. والشمس قوية. صحيح أننا في شباط. لكن الشمس قوية اليوم.

ورشة مكب النورماندي متوقفة. عندنا تصميم ياباني بديع

للحديقة. قبل سنوات كانت رائحة النفايات فظيعة هنا. الآن الرائحة غير قوية. في الأعالي تسبح غيمة بيضاء. غيمة صغيرة تشبه غيمة معمولة من قطن. لا أسمع صوت البحر. البحر ساكن اليوم. المدينة أيضاً ساكنة. أين الناس؟

أعبر أمام ورشات الواجهة البحرية. لا أرى عمالاً يعتمرون خوذ الحديد ويلبسون القفازات والنظارات الخاصة بتلحيم القضبان. هل هي ساعة الراحة؟ يأكلون الزوادة الآن؟ أنظر إلى ساعتي. هذا غريب. ما زالت الواحدة إلا عشر دقائق!

أرى سرب نوارس يطير فوق اليخوت ثم يحطّ على سطح سان جورج. لم أبلغ المكان بعد. لكنني أرى الفندق من هنا. لونه زهري والستائر البيض ظاهرة في نوافذ طبقاته الست. النورس يطير مرة أخرى ويقطع الفضاء ثم يختفي فوق البحر. أريد أن أشرب. عطشت وأنا أمشي. عليّ أن أجد ماء. أدخل إلى دكان وأشتري ماء؟ لكنني لا أحمل مالاً. المال مع المرافقين.

وقفت ونظرت إلى اللوحة الحديد عند مدخل المكب. قرأت الكلمات والتواريخ. استدرت ونظرت إلى اليخوت وإلى أوتيل سان جورج وأوتيل فينيسيا. ما الذي أبحث عنه؟ أشعر بهدوء غريب. لا أبحث الآن. حتى الماء لا أحتاج إليه. أريد فقط أن أنظر إلى هذه المدينة. أن أنظر إلى هذه السماء. أن أنظر إلى هذه الطيور.

وقفت ونظرت إلى بيروت. البحر ساكن كصحن زجاج. جبال صنين مكلّلة بالثلوج. صنين أبيض والبحر أزرق وبيروت تملأ عينيّ. لا أطلب شيئاً. أنظر إلى ساعتي: الواحدة ظهراً إلا عشر دقائق.

كيف هذا؟ تركنا الإيتوال منذ دقائق ولم يتغيّر الوقت!

رفعت رأسي ونظرت إلى السماء. لم أرَ الشمس في القبّة الزرقاء. رأيت القمر. كان أبيض كالعظم. تدفق شلال النور الحليبي وملأ عينيّ. كان حلواً كالماء.

أغمضت عينيّ.

روايات للمؤلف:

1 ـ **سيد العتمة**، دار رياض الريس، جائزة الناقد للرواية، 1992.

2 ـ **شاي أسود**، دار الآداب، 1995.

3 ـ **البيت الأخير**، دار الآداب، 1996.

4 ـ **الفراشة الزرقاء** (نور خاطر)، المركز الثقافي العربي، 1996، طبعة ثانية عن الهيئة العامة لقصور الثقافة (القاهرة)، 2001.

5 ـ **رالف رزق اللّه في المرآة**، دار الآداب، 1997.

6 ـ **كنتُ أميراً**، المركز الثقافي العربي، 1997.

7 ـ **نظرة أخيرة على كين ساي**، المركز الثقافي العربي، 1998.

8 ـ **يوسف الإنجليزي**، المركز الثقافي العربي، 1999.

9 ـ **رحلة الغرناطي**، المركز الثقافي العربي، 2002.

10 ـ **بيروت مدينة العالم** (الجزء الأول)، دار الآداب والمركز الثقافي العربي، 2003، طبعة ثانية 2005.

11 ـ **بيريتوس: مدينة تحت الأرض**، دار الآداب والمركز الثقافي العربي، 2005، طبعة ثانية 2006.

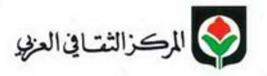
12 ـ **بيروت مدينة العالم** (الجزء الثاني)، دار الآداب والمركز الثقافي العربي، 2005.

ربيع جابر

تقرير ميليس

الواحد يصير خفيفاً عند بلوغه هذه الأنحاء. يُعطى قدرات. يفقد آلامه الجسمانية. في أحد الممرات رأيت الحريري قاعداً يقرأ عشرين ورقة، وكلّما انتهى منها عاد يقرأها من جديد. على كل ورقة سيرة حياة واحدة. هؤلاء الذين قُتلوا معه في الإنفجار. الورقة الأخيرة كتبها الممرض في السيارة الأخيرة: سيارة الإسعاف. في ممرٍ آخر ــ عند طرف المكتبة ــ أرى الرجل الذي انفجرت عبوة تحت سيارته، هذا الرجل كان يكتب. هنا لا يجد الكتابة سهلة. لم تعد الكلمات تأتي إليه. لا يدري كيف يكتب ما يريد أن يكتبه. يريد أن يكتب رسالة إلى زوجته. يكتب خمسة حروف ثم يتعب. لا يعثر على حرف سادس. لا يعثر على كلمة أخرى. الدوي ما زال يتردد في رأسه، والدخان أسود كثيف في عينيه. الألفا روميو سيارة صغيرة. ضغط الإنفجار فظيع في المكان الضيق. يشرب ماء وينظر إلى الكلمة على الورقة البيضاء.

ISBN 9953-68-113-9
9789953681139



دار الآداب ـ بيروت